

الأجداد و الأباء و الأبناء

القصة الكاملة لسيرة عائلتنا الشاملة

تاريخ عائلي يمتد لقرون

مصطفى حميدو

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القصة الكاملة لسيرة عائلتنا الشاملة

سيرة عائلية

الأجداد و الأباء و الأبناء

القصة الكاملة لسيرة عائلتنا الشاملة

تاريخ عائلي يمتد لقرون

مصطفى حميدو



اسم الكتاب: القصة الكاملة لسيرة عائلتنا الشاملة:

تاريخ عائلي يمتد لقرون

تأليف: مصطفى حميدو

تصميم الغلاف: مصطفى حميدو

الموقع الإلكتروني: Hamido.net

البريد الإلكتروني:

mustafa.hamido@hamido.net

الترقيم الدولي: 9798879370010

ISBN: 979-8-87937-001-0



الطبعة الأولى شباط / فبراير 2024

إصدار عائلي خاص

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

منشورات خاصة تحت علامة "ي"

إلى سليمان و طارق... لن ننساكم ما
حيننا

ما نسيناكم يوما فأنتم أحلا ما فينا
غبتم كجسد و بقيتم نورا في ما فينا
و روحكم تخلق في الأرجاء تؤنسنا
تزورنا في الليالي السود تشفيننا
ونسمع الضحكة منكم عنا راضية
وجهه بشوش ناصع بياض أهلينا

المقدمة

الحمد لله و الصلاة و السلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد بن عبد الله القرشي الهاشمي المبعوث رحمة للعالمين و على آله و صحبه و سلم،
أما بعد:

فلقد قضيت شطرا كبيرا من عمري أحاول أن أكتب في موضوع نسبنا توثيقا و تدوينا، فقممت على مدى عقدين من الزمن على جمع المصادر: شفوية كانت أم مكتوبة لإخراجها في إطار كتاب يضمها كلها بعد تدقيقها و ضبطها. لقد كانت أول محاولة لي للكتابة في هذا الموضوع قبل نحو عقدين من الزمن. فأذكر أنني كنت قد جلست مع أكثر من شخص من كبار العائلة أسألهم و يجيبون دون أن أبلغ ما أريده. فما كانوا يروونه كان لا يتعدى العناوين دون أن يعرفوا المثير من التفاصيل. فقد كانوا يذكرون نسبنا مكثفين بعناوين النسب الرئيسية دون أن يستطيعوا شرحها أو الاستفاضة في الكلام عنها، و هم بالطبع معذورون في ذلك. فما لا يدون ينسى مع الزمن، مهما حرص الناس على تكراره و إعادته. فمع كل تكرار زيادة أو نقصان، فيختلط الحق بالباطل و يصبح الأمر غير واضح و مشوه. لقد جمعت

القصص التي رووها و قاطعتها مع المصادر المتاحة، فوصلت إلى ما أظنه الرواية الأقرب للكمال، التي توثق رحلة عائلة كبيرة منتشرة في كل منطقتنا تقريبا، إذا اعتبرنا العائلة الكبيرة هي العائلة الرفاعية، و في كل سورية و بلاد الشام إذا اعتبرنا العائلة الكبيرة هي العائلة السبسية، و في شمال سورية و جنوب تركيا إذا اعتبرنا العائلة الكبيرة هي العائلة الدملخية .

لقد اعتمدت في هذا الكتاب على الروايات العائلية و على مصادر مكتوبة و مدونة و على وثائق فقاطعتها كلها مع بعضها البعض للوصول إلى نص يجب على الأسئلة و يشرح نسبنا بطريقة بسيطة سهلة و زودت الكتاب بالصور و المشجرات و الخرائط لتعطي القارئ صورة شاملة كاملة عن أصلنا و فصلنا اعتمادا على موروث تتناقله أبا عن جد، مفتخرين به و قائمين على حفظه. فأصل النسب هو الشهرة و الإستفاضة، فأما شهرة نسبنا فعروفة في كل مكان نزلت فيه عائلتنا و أما استفاضته فإنه قد تجاوز في شهرته مكان تواجدنا إلى أماكن أخرى لم تنزل بها عائلتنا.

إن السبب الرئيسي الذي دفعني أن أقضي آخر عامين من عمري في كتابة هذا الكتاب هو رغبتي في جعل الجيل الجديد من عائلتنا الصغيرة مدركين لأصلنا و نسبنا. فما شهدناه في العقدين الأخيرين من حروب

و هجرة كفيل بضياح الذاكرة و ضياح الهوية . كان هذا الكتاب جزءا من محاولة لجعل الجيل الجديد يدرك هويته و أصله و نسبه و يحملهم معه أينما ذهب. الروايات الشفهية تتلاشى مع مرور الزمن دون تدوين و تصبح أمرا أقرب للأسطورة منها للحقيقة. وأخيرا فإني لا أدعي كملا فيما دونت، فهما بلغ الحرص يبقى البشر نساء خطاء، لكنني أدعي أنني بذلت أقصى ما أستطيع من علم و مهارات للوصول إلى المعلومات الصحيحة و الاستنتاجات الدقيقة، و هذا اجتهد كما أظنه كاف. فالإنسان مكلف بما لا يتجاوز قدرته و متى ما بذل ما في استطاعته سوح إن وقع في خطأ أو وقع في زلة.

والله من وراء القصد

مصطفى حميدو

أبوظبي في 2023/12/02

"فالخوف نار في نور والرجاء نور في نار والمعرفة نور
في نور. فالقنديل معلق بباب الكوة، إذا فتح العارف فاه
بالحكمة التي في قلبه، هاج في كوة فمه نور من الأنوار
التي في قلبه، فيقع ضياؤه على قلوب أهل النور،
فيتعلق النور بالنور . وإن بعض القول أشد ضوءاً من
النهار، وبعضها أشد ظلمة من الليل "

أبو بكر الواسطي

1

كيف ولد الشغف؟

منذ مدة طويلة و أنا أفكر أن أكتب عن ذكرياتي و ذكريات أهلي و عائلتي و قصتهم الطويلة التي تشبه قصص عائلات كثيرة بتفاصيلها لكنها تختلف بروحها و نكهتها و عطرها، لكنني لم أستطع أن أضع الخطوط العريضة لهذا الكتاب و لا أن أحدد المواضيع التي سأكتب فيها. في إحدى المرات قررت أن أكتب عن أبي و أسرد تفاصيل حياته القصيرة المليئة بالتجربة و المليئة بالأحداث، لكنني وجدت أن تلك القصة ستصبح ناقصة و محددة ضمن بيئة واحدة ستظلمه و ستظلم هدي من وراء الكتابة.

فهدفي في النهاية هو التوثيق و إيصال تجربة عائلية لمن لا يعرفها من أهلنا أولاً، ليعرفوا من هي عائلتهم و من هم أجدادهم و كيف عاشوا و كيف تفاعلوا مع محيطهم، و أيضاً لمن يحب مثل هذه القصص العائلية و يحب توثيق أساليب الحياة و عادات الناس في فترة زمنية و في بيئة مكانية محددة.

جرت أن أكتب كثيرا لكني كنت أتراجع و أمزق ما كتبتة أو كنت أهمله.

السؤال المحير

كان السؤال الذي ظل يؤرقني لمدة طويلة هو: من نحن؟ إن هوية الإنسان في النهاية جزء من شخصيته و متى ما عرفها تعرف على تفاصيل كثيرة عن ماضيه و أجاب عن كثير من الأسئلة عن واقعه و ما هو فيه. ظل هذا السؤال يؤرقني لمدة طويلة من الزمن دون أن أصل لجواب مفصل كامل. منذ صغرنا كنا نسمع في المجالس و "أوضة" جدي أننا دمانلحة دون تفسير واضح لما يعنيه هذا الاسم أو المصطلح. و عندما كبرت قليلا أضيف إلى هذا المصطلح مصطلح جديد و هو أننا حسينيون دون شرح واف مرة أخرى عن العلاقة بين المصطلح الأول الدمانلحة و الأصل الحسيني و لا كيف يصل نسبنا إلى الحسين.

مع تقديمي في العمر ظل هاجسي الكبير معرفة من نكون و الوصول إلى صورة واضحة تجيب عن ذاك السؤال. لا أعرف سر إهمال آبائي و أجدادي لتوثيق أصولهم بصورة تجعلهم ينقلونه من جيل لآخر. فالمعرفة التي تبقى في الصدر و تنتقل بالمشافهة فقط ستنسى بعد حين، والناس

أساسا ينشغلون بتأمين رزقهم و ملاحقة أعمالهم و ينسون في خضم الحياة القاسية أشياء و تفاصيل كثيرة.

ربما كان انتشار الأمية لفترة طويلة تجاوزت القرون و انشغال الأهل بحياتهم و اطمئنانهم بأنهم يعيشون ضمن بيئة تعرف أصولها و منابئها، لم يجعلهم يتخيلون أنه مع مرور الأجيال ستبدأ تلك المعارف بالضياع أو لنقل بالنسيان. لا يكفي فقط أن يقال لك أنك كذا دون شرح أو توضيح. فالمصطلح سيصبح مع السنين لغزا و هذا فعلا ما اكتشفته عندما حاولت سؤال الكبار في العائلة. كنت أسألهم ليوضحوا لي معنى دملخي أو حسيني، لكنني كنت أذهل عندما كانوا يعجزون عن شرح المعنى و توضيحه. كانوا يظهرون نخرهم بأصلهم لكنهم لم يكونوا يعرفون تاريخ هذا الأصل و تسلسله الزمني. كنت أسمع منهم يقولون بأن أجدادنا "بلشوا" أي قتلوا قتيلا و طالب أهل القتل بالثأر فهجوا و أتوا إلى الضيعة.

كانت تلك القصة تبدو مبهمة لا تفاصيل فيها، ثم كانوا يضيفون بأنهم قد أتوا من منطقة نهر الساجور ثم كانوا يصمتون. كانت شجرة العائلة التي كانوا يحتفظون بها توضح أصلهم الحسيني لكن دون وجود تفاصيل و لا شرح و لا توضيح لمعنى دملخي أو غيره. كانت شجرة تقليدية تصطف فيها الأسماء خلف بعضها البعض و فقط. حتى نانتي التي كانت

تنادي جدها الشيخ بركة كلما ضاقت بها الدنيا لم تكن تعرف من هو الشيخ بركة هذا. عندما كنت أسألها كانت تقول لي جدنا فقط. و لكن من هو؟

الشيء المدهش أن كبار العائلة لم يكونوا يعرفون أن يرووا من هم أجدادهم بعد الجد الرابع. فعندما كنت أسألهم من هو أبوه لمجدو لم يكونوا يعرفون و عندما كنت أسأل عن أولاده كانوا يتلعثمون. و هذا الأمر ليس خاصا بهم وحدهم بل هو أمر يشترك فيه الناس جميعا. فنادرا ما يعرف الأبناء أجدادهم ويستطيعون تسميتهم بدقة. فمع مرور الأزمان يصبح ذاك أمرا صعبا فيكتفي الناس بذكر أصولهم و جدهم الأكبر الذي يجتمعون عنده و يصلون إليه. و هذا ابن خلدون نفسه يقول بذلك عن نفسه فيعرف بنفسه قائلا: " عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن خلدون. لا أذكر من نسبي إلى خلدون غير هؤلاء العشرة، ويغلب على الظن أنهم أكثر، وأنه سقط مثلهم عدداً؛ لأنَّ خلدون هذا هو الداخل إلى الأندلس، فإن كان أول الفتح فالمدَّة لهذا العهد سبعمائة سنة، فيكونون زهاء العشرين؛ ثلاثة لكل مائة، كما تقدم في أول الكتاب الأول".

كنت تواقا للمعرفة و كنت مدركا أن هناك قصة كبيرة وراء وجودنا في هذه الدنيا ممتدة لقرون، لم أكن أعرفها و أغلب أقاربي كانوا يجهلونها. كنت موقنا بأننا أحد ورثة الطرق الصوفية خصوصا و أن أقاربنا كانوا يتوراثون المشيخة في الضيعة ويرعون زاوية صوفية تهدمت اليوم و توفي آخر من توارثها منهم قبل أكثر من عقدين. المهم أنني بحثت في رحلة طويلة امتدت لأكثر من عقدين لأعرف من نحن و من أنا فوصلت إلى أربعة فواصل تاريخية في أصلنا و كل فاصل منها هي قصة بحد ذاتها:

- الفاصل الأول و الأقرب هو أننا دمانلحة
- و الفاصل الثاني أننا سبسية (سباسبة)
- و الفاصل الثالث أننا رفاعية
- و الفاصل الأبعد أننا حسينية

جمع كل هذه الفواصل مع بعضها البعض يولد اسما طويلا يلحق باسم عائلتنا فتصبح عائلتنا كالتالي:

حميدو الدملخي السبسي الرفاعي الحسيني

هذه الفواصل كانت واضحة في شجرات العائلة لكنها لم تكن مفسرة و لم تكن مشروحة. كانت متروكة للحفظ في الصدور والذاكرة والمشاهدة دون وجود كتاب أو وثيقة تشرح بشكل كامل معنى كل فاصل.

السيرة تروى أمام الصغار

منذ صغرنا كان يقال أمامنا في اجتماعات كبار العائلة أننا دمانحة. لم أكن أعني بالضبط معنى هذه الكلمة ولم أكن أبذل أي جهد في البحث عن هذا المعنى.

فالمقولة شفوية و كل من كان يقولها كان يتوقف بعد إطلاقها و لا يكمل مفسرا لها. كانت هذه المقولة أساسا تقال في اجتماعات العيد العائلية و في المناسبات التي كان يجتمع فيها كبار العائلة أتراحا كانت أم أفراحا. كان مكان الاجتماع الرئيسي هو في "أوضة" جدي حج بكري و التي كانت مكان اجتماعات العائلة الرئيسي و مكان اللهو و التسلية و المناسبات الكبيرة. كانت هذه الأوضة -التي ما زالت موجودة لكن مكانتها و وظيفتها اندثرت تقريبا- أوضة عريقة في منطقة اعزاز كلها يكاد لا تذكر إلا و يذكر معها الكرم و العز و الأصل العريق.

كان هؤلاء الكبار عندما يقولون عن الأصل الدمليخي للعائلة يقولونه بنوع من الفخر والمباهاة دلالة على الأصل العريق للعائلة. ولكن أي عائلة و أي أصل؟

عندما بدأت أكبر في العمر صرت أكثر فضولا في معرفة معاني الأشياء. فكلما كنت أكبر عاما، كان يزداد وعي بتفاصيل الأشياء ومعانيها و دلالاتها و يزداد فضولي لمعرفة معاني و دلالات الأشياء المبهمة غير المفسرة. صرت فضوليا أحب البحث و الوصول إلى ما يشبع فضولي و يجعلني أستطيع أن أجيب السائل بثقة و بطلاقة و بقدرة على الإقناع.

خزانة أبي

كان عند أبي خزانة صغيرة يضع فيها أوراقه الخاصة و صورا قديمة و دفاتر و أشياء أستطيع أن أسميها اليوم أرشيف الذكريات الخاص به. فكلنا عندما نصل إلى مرحلة النضج نبدأ بالاهتمام بأرشيفنا و صورنا و دفاترنا التي دوننا فيها يومياتنا و مغامراتنا. تماما كانت هذه الخزانة تحوي كل هذا و كان عندما يقوم بفتحها أجلس بجانبه و أراقب محتوياتها. كان في أحيان يخرج لي بعض الصور و بعض الدفاتر ليريني

إياها. كنت أدهش من محتوياتها العتيقة القيمة و من رائحة الورق القديم المتحلل المطلق لعبق رائحة تشبه رائحة الفانيلا الحلوة اللذيذة. كان يلفت نظري كلما فتحت هذه الخزانة لفافة كانت مكونة في عمقها. كان ورقها قديم و مصفر و ذابل. كانت رقة الورق واضحة من ظهور الكتابة من خلفية اللفافة بشكل يجعلك تظن ان الورق نفسه شفاف و ليس متأكلا أو قديما. لم أكن أسأل عن ما تحتويه اللفافة أو عما تكون، فهي كانت تلفت نظري بشكلها الذي يشبه الرسائل القديمة التي كانت تكتب على جلد الحيوانات أو ورق البردي ثم تلف، لا بحتواها الذي كنت لا أعرفه.

كنت في ذاك السن الصغير تشدني الصور و كنت أفرح و أسعد عندما كان يخرج لي من خزانته صورا قديمة له تحمل ذكريات لشبابه و صباه و حتى طفولته. الصورة للصغير مغرية أكثر من مخطوطة قيمة قديمة لن يستطيع تقدير قيمتها أبدا و هو في ذاك السن الصغير.

تكررت رؤيتي لتلك اللفافة. في كل مرة كنت أجلس بجانب أبي عندما كان يفتح خزانته. لم يكن أبي يهتم كثيرا باللفافة و لم يكن يحاول أن يفتحها أو أن يخبرني عنها حتى تجرأت مرة على سؤاله عما فيها و ماذا تكون. أخرج يومها اللفافة ثم فردها فإذا هي مجموعة من الأوراق الموصولة مع بعضها البعض تشكل ورقة طويلة على شكل لفافة. كانت

تلك اللفافة مليئة بالدوائر التي بداخلها أسماء و مليئة بالأختام و الكتابات. كنت أول مرة في حياتي أشاهد مثل هذا الشيء. كانت الدوائر مصفوفة تحت بعضها البعض و في داخلها أسماء و تتفرع من بعضها دوائر أخرى و بجانب بعضها أختام و توابع تشكل في مجملها شيئاً يشبه الشجرة. الدنيا تعلم و تطلعك دوماً على الجديد فما بالك بطفل صغير لم يكن يتجاوز وقتها التاسعة من عمره عندما يرى شيئاً كهذا، فبالطبع سيدهش و سيزيد فضوله و سيصبح أكثر تدقيقاً و إلحاحاً في السؤال. صحيح أن ليس جميع الأطفال هكذا، فجزء كبير منهم هم اللعب و التسلية إلا أن الطفل عندما يعتاد مرافقة كبير أو محاورته و هو يقضي عمله أو يرتب أوراقه سيسأل و سيتعلم و سيراقب.

المهم هنا أنني سألت أبي يومها عما أشاهده و ماذا يكون فقال لي:
- هذه شجرة العائلة.

كان المصطلح جديداً علي كليا و لم أفهم معناه مباشرة، فكان توضيح أبي شارحاً و لو قليلاً المعنى:

- هذه أسماء أجدادنا. فمثلاً أنت إبني فيوضع اسمك داخل دائرة أسفل مني و أنا أوضع داخل دائرة أسفل جدك مصطفى و هكذا

يصطف الابن تحت أبيه ليشكلوا شجرة للعائلة نعرف من خلالها أجدادنا .

فهمت يومها ما قاله لكن فضولي لم ينطفئ و عطشي لمعرفة المزيد لم يرو. أعاد أبي اللفافة إلى مكانها و أغلق الخزانة لكنه لم يغلق عقلي عن طرح الأسئلة و الرغبة للوصول إلى أجوبة أكبر و أكثر. تكررت مرات عديدة رؤيتي للفاقة و كنت في كل مرة أشاهدها أستعيد في ذاكرتي كثيرا من الأسئلة التي ليس لها جواب عندي، و لم أكن أستطيع طرحها، ربما لنحل مني أو لعجز عن صياغتها بشكل دقيق أو ربما للنحل من عدم قدرتي على توضيح ما أريد معرفته.



الصورة 1 إطلالة بيتنا على دوار شيخان في حلب. الصورة قبل حرب 2011

صحيح أنني كنت صغيراً، لكن تلك الذكريات ما زالت في داخلي و كأنها تحدث أمامي الآن. و ما زلت أذكر مكان الخزانة بشكل دقيق و أذكر رائحة المكان و تفاصيله. كانت الخزانة في بيتنا في حلب في شارع تشرين في منطقة شيخان و في غرفة جلوس العائلة. كانت غرفة صغيرة لكنها حميمة تطل على دوار شيخان و شهدت فيها ربما أجمل ما عشته

في حياتي. كانت الخزانة قرب المدفأة السوداء الكبيرة. كان علينا أن نحشر أنفسنا بين المدفأة و الخزانة كلها كان علينا فتحها. طلبت في يوم من أبي و كان قد فتح خزانته أن يجعلني أشاهد اللقافة مرة أخرى. كنت جالسا بجانبه أراقب و أتوق لمشاهدتها مرة أخرى. تناول أبي اللقافة بحرص ثم تنحى جانبا و دعاني لأجلس بجانبه بعيدا عن المدفأة ثم فردها على السجادة التي كانت تتوسط الغرفة و أنا أراقبه.

أخذت أحرق بها و أقرأ الأسماء و أحاول قراءة الأختام التي تجاور بعضها لكنني لم أفهم شيئا منها. سألت أبي:

- ما معنى هذه الأختام؟

- قال: إنها أختام معرفي النسب و الشيوخ الحافظين له

طبعا لم أفهم يومها المعنى لكنني فهمت أنهم الكبار الذين يعترفون بصحة ما هو مذكور

- سألته: و إلى أين تصل الشجرة؟

ضحك و كأنه سمع نكتة من طفل صغير ثم قال:

- تصل للحسين.. جدنا هو الحسين حفيد الرسول

ارتجف جسمي يومها مما سمعت و لم أعلق ربما فرحا بشئ جميل لا أريد تفاصيل أخرى أن تفسد هذه الفرحة. قام أبي بلف الشجرة ثم أعادها

إلى الخزانة. كان قد بقي في داخلي سؤال لم أكن أريد أن أفوت هذه الفرصة لطرحه. قلت له و هو يقفل الخزانة:

- من أين أتيت بها؟

قال لي:

- أتذكر شيخا ذو لحية بيضاء كان يزورنا هنا في البيت؟

الشيخ إبراهيم الرفاعي

حرض بسؤاله ذاكرتي، وأخذت أستعيد الصور في ذاكرتي وأحاول أن أتذكر ملامح شخص تشبه ما ذكره. لقد تذكرته!! بالكاد بدأت صورته تظهر أمامي. رجل ذو لحية بيضاء ووجه رفيع ضاحك باسم يشع منه النور و جسم ضئيل. كان يضعني في حضنه في نفس غرفتنا الصغيرة هذه وعلى نفس الكنبه المجاورة لنا تلك ويضحك ضحكة عذبة. أذكره جيدا، هو نفسه الذي أعطاني ليرة ورقية وأنا في حضنه في نفس الغرفة وعلى نفس الكنبه وفي نفس اليوم. صرت أجمع الصور وألصقها ببعضها لأكون المشهد وكأنها لقطة سينمائية. استعدت المشهد كاملا. لم أكن أتجاوز من العمر 5 سنوات وقت حدوثه.

إنه الشيخ ابراهيم الرفاعي قريبنا و صاحب المعزة الكبيرة عند أبي و نانتى.

- قلت لأبي: الشيخ ابراهيم

- قال: هو نفسه من أعطاني هذه النسخة.

كان الشيخ ابراهيم الرفاعي أحد أقاربنا الذي جعل كنيته الرفاعي. في ذلك الزمن لم أكن أعرف ما تعنيه هذه الكنية ولا هذا الاسم. كنت صغيرا لا يفقه في هذه الأمور و يأخذ كل شئ على ما هو دون تحييص أو تدقيق أو تفسير. ورع الشيخ ابراهيم و تقاه كانا معروفين للجميع. يكفي فقط أن نعرف أنه قد توفي في ليلة القدر في جامع خالد بن الوليد في حمص لنعرف مدى تقاه و ورعه. ليسوا كثيرين من يحظون بنهاية كهذه. كان أبي على الدوام يصفه بأنه أطيب من رأى. ما زلت حتى هذه اللحظة أذكر ضحكته و ذقنه البيضاء. سؤال أبي حرض ذاكرتي في ذلك اليوم فاستعدت صورته و ضحكته و أصبحتا جزءا من ذاكرتي الدائمة حتى اليوم. كان يمكن لي أن أنسى كل شئ لولا سؤال أبي.

البحث عن التفاصيل

منذ صغري علق في ذهني كلمة دمانخة وأنا منهم وأنهم منتشرون في جهات عديدة من سورية وصولاً إلى تركيا. كنت عندما أقول لأحدهم أننا دمانخة أقرن ذلك دوماً بأننا حسينيون ننتمي للحسين رضي الله عنه. كنت أقول ذلك دون أن أعرف تفاصيل كثيرة أخرى تضيف إلى القصة أو تشرحها. كنت أعرف أن ما أقوله يبدو مبتوراً عن سياق أوسع لكنني لم أكن في الحقيقة أعرفه ولم أكن أعرف كيف أصل لهذا السياق الأوسع .

كان علي أن أبحث عن أحد يصح لي أويزني علماً ومعرفة بأصل العائلة وجذورها. عادة أدرى الناس بأصولها هم الناس أنفسهم، فهم الأحرص على تتبع أنسابهم وأصولهم وجذورهم.

كنت منذ صغري مهتماً جداً بالقراءة وجمع الكتب وتجميع المراجع خصوصاً التاريخية منها والدينية وقليل من الكتب الأدبية. كنت كلما قرأت كتاباً أو اقتنيت مرجعاً أو موسوعة أدهش من قدرة كتابها على تجميع ذاك الكم الهائل من المعلومات وكتابة كل تلك السطور والصفحات. كنت أحسدكم على جلدكم وقدرتكم على الصبر حتى إخراج تلك الكتب. رغم حيي للكتب لكنني أبداً لم أسع بجمع كتب

أنساب و لا تلك التي تتحدث عن الأصول و عن النسابة. فالجمال كبير جدا و لا يمكن الوصول إلى ما تريد دون مرشد أو معلم أو موجه. فالعلم أساسا دون أستاذ أو معلم لا يغدو علما بل قراءة و حفظا دون أساس. فوظيفة الأستاذ دوما أن يبني لك الأساس و يطلقك بين أكوام المراجع و رفوف الكتب. كثيرون يعتقدون أنك عندما تقرأ بشكل لا منهجي ستصل إلى خلاصات لكن الحقيقة هي أن المنهج الذي عادة ما يضعه الأستاذ هو أساس القراءة و الأساس الذي تبني عليه الخلاصة والاستنتاج الصحيح. ظللت طوال مدة طويلة أبحث عن يجعلني أستطيع أن أقرأ بشكل صحيح و أن أصل لما أريده بشكل يحل لي الأفعال التي تبدو أممي خصوصا في أصلنا الدملي و الحسيني. كان لنا قريب (متزوج من قريبتنا) تعرفنا عليه في الإمارات. كان هذا الشخص يحمل شهادة دكتوراة في أحد فروع الشريعة. لم نكن نعرفه قبل أن تنتقل للعيش في الإمارات فقد غادر سورية منذ زمن و لم يسبق لأبي أن قابله. بدأت علاقتنا به و بعائلته تزاد رويدا رويدا عبر تبادل الزيارات و الولائم و أصبحنا عندما نلتقي نتحدث في مواضيع كثيرة تتعلق بالعائلة و به و بالضيعة التي ينحدر منها شرقي حلب. فكرت ببني و بين نفسي بأنه من الممكن أن تكون معرفته بقصة الدمانحة أكبر من معرفتي أو معرفة أبي. فعادة يهتم دارسو الشريعة وفروعها المختلفة

بالأصول والأنساب، فجزء من تخصصهم خصوصا في فروع الحديث و الفقه يحتاج معرفة بهذا الموضوع تحديدا، و ما جعلني أعزز هذه القناعة هو أنه متزوج من قريبة لي من نفس الأصل و الجذر و من الطبيعي أن يكون مطلعا و لو قليلا على هذا الموضوع .

كانت زيارات هذا القريب تتكرر بين الفينة و الأخرى لبيتنا. في الحقيقة كانت هذه الزيارات تتم على فترات متباعدة حسب تقادير الحياة و الظروف. كنا عادة ندعوه على الغداء أو العشاء و هو يرد لنا الدعوة بمثلها، لكنها لم تكن دعوات منتظمة. ذات جمعة كان في زيارة لنا تلبية لدعوة من أبي لتناول الغداء عندنا، فقررت يوما أن اطرح الموضوع أمامه، لكنني كنت أريد أن يتم ذلك الطرح بنوع من العفوية لا يجعله يدرك تخطيطي المسبق. إنه نوع من الأنجل لا أكثر. فبذ صغري كنت أنجل و ما زلت من طرح ما أريد و قول ما أشتهي و سؤال من يستطيع الإجابة بشكل مباشر، مع أن صفة محب العلم هي الإلحاح و دون الإلحاح و التكرار لا علم و لا معرفة. المهم أني اصطدت اللحظة لأطرح ما أريد. فبعد أن انتهينا من الغداء وقف معجبا بمكتبتني أو لنقل مكتبة البيت التي كنت قد جمعت كتبها و رتبها في خزانة كبيرة كان قد فصلها أبي عند نجار يعرفه. كانت المكتبة قيمة بالفعل. فكل ما فيها من كتب هي مراجع لا كتب قراءة عادية لغرض التسلية أو إضاعة

الوقت. كانت مكتبة مليئة بكتب التاريخ و الدين و السير الذاتية و الموسوعات و غيرها. وقف أمامها بدهشة، فلم يكن يتوقع من بيت لا يعمل أفراده في حقول العلم أن يمتلكوا مثل هذه المجموعة القيمة من الكتب. تخيلوا أنها كانت تحوي موسوعة قصة الحضارة لويل ديورانت و قصة الفلسفة لنفس الكاتب و تفاسير متعددة للقرآن و موسوعة دولة الإسلام في الأندلس لمحمد عبد الله عنان و غيرها الكثير مما نسيته.

بعد أن وقف متأملا المكتبة جلس وهو يطري عليها و يمدح محتوياتها -لم تكن بالطبع تقارب في عدد كتبها عدد كتب مكتبته، فهو في النهاية أستاذ جامعي في اختصاص الحديث و عمله يتطلب مكتبة كبيرة لكن الفرق بين مكتبتنا و مكتبته هو تنوع مواضيع مكتبتنا و هذا ما كانت مكتبته تفتقده- أحسست في تلك اللحظة أنه قد آن الأوان لطرح ما أريده أمامه، فلا فرصة أفضل من تلك. فقد وقف الرجل أمام الكتب و عاينها و بان إعجابه وبالتالي فإن طرح أي موضوع يختص بالتاريخ و الأنساب أمامه يبدو مبررا، كان علي فقط إختيار المدخل المناسب. قلت له بعد أن أظهرت حيي للكتب و أني أجمعها مع أبي بشكل مستمر و بأني أريد أن أقتني كتبنا عن الأنساب فهذا الموضوع يكمل الجانب التاريخي في المكتبة و أنها من دونها ستبدو ناقصة.

صمت قليلا ثم قال بأنه غير مهتم بالأنساب عموما و لم يتعمق بها و بأنه كان يسمع روايات في مجالس عشيرته في شرقي حلب عن الأنفاذ و الأنساب لكنه لم يتعمق بها.

قلت له بأني مهتم بهذا الموضوع.. و بأني أحاول حتى توثيق نسبنا الحسيني:

- أظنك تعرف بأننا دمالحة و حسينيون..

ضحك دون أن يطلق صوتا لضحكته.. كتمها و قال:

- لا لا هذا نسب غير صحيح الدمالحة من بني سعيد و أعرفهم منتشرين شمال شرق حلب..

صدمت من جوابه. لأول مرة كنت أسمع كلمة بني سعيد. أعرف أننا دمالحة وأن الدمالحة ينتهي نسبهم عند الحسين عليه السلام. هذه المعلومة كانت بديهية عندنا جميعا و تتلقاها من أهلنا منذ صغرنا. لم يأت أحد أبدا على ذكر بني سعيد أو القول بنفي النسب الحسيني أبدا. لم أناقشه لأن أي نقاش يتطلب خلفية كافية تستطيع أن تشرح و توضح و تجزم بالحقائق و لم أكن يوما أعرف كثيرا عن الموضوع. كنت أعرف المعلومات المعروفتين دون شرح و توضيح و هما أننا دمالحة و حسينيون

بعد أن كبرت عقلا وفهما وعمقا عرفت أن من كنت أناقشه وهابي سلفي لا يحب قصص الأنساب و خصوصا تلك المتعلقة بأنساب الحسين و علي بل كان يجدها نوعا من الخروج عن صحيح الدين. للأسف هذا موجود لكن الشئ الحسن الجميل لا يستطيع أحد حجه أو نفيه فها بالك بنسب يتناقل عبر الأجيال و يورث من الأب لابن للحفيد. المشكلة دوما أن مرور الزمن يجعله يذوي و يصبح أمرا لا يهتم أصحابه به و يفقدون الوثيق و الكتابة و يكتفون بالمشافهة و عندها تختلط المعلومات و تدخل الأساطير لتجاوز الحقيقة.

الشغف طريق المعرفة

الشغف يولد المعرفة. هذه قاعدة وصلت إليها بعد سنوات طويلة من بداية بحثي في معاني و دلالات كلمة دملخي. فعندما تضع قصة أمامك و تجعلها أمرا أساسيا في حياتك، ستجعلك عادة البحث و التدقيق و الملاحظة تصل كل فترة إلى معلومة جديدة، و في النهاية عندما تجمع كل هذه المعلومات ستستطيع أن تولد رواية قوية و تفسيرا لما تبحث عنه.

في إحدى ليالي دبلن الطويلة عندما كنت أدرس الماجستير كتبت تعليقا على إحدى صفحات الفيسبوك العامة المهتمة بالشأن السوري فإذا بي أستقبل رسالة من شخص لم أكن أعرفه. قال لي: أنت من ديرجمال؟

- أجبت: نعم

- قال لي: نحن أقارب

دققت في الكنية فإذا هي كنية تعود لإحدى عائلات الضيعة القريبة لعائلتنا. لقد عرفني من الكنية. في الضيعة أكثرية العائلات تعود لجد واحد و أصل واحد، شكلوا خلال السنين عائلات منفصلة مستقلة بكنى مختلفة لكن الجميع يعرف أنهم أقارب لهم نفس الأصل الدمليخي. عرفني عن نفسه وبأنه يعيش في هولندا، وسألني عما أفعل في إيرلندا، فأخبرته بأني أدرس الماجستير وسألته عما يفعل في هولندا. كان الشاب يدرس في هولندا و يحضر لدرجة الدكتوراة مبتعثا من سوريا. المهم بدأنا نتحدث يوميا مع بعضنا البعض و نتكلم في مواضيع حياتنا اليومية و عن عائلاتنا كلاما عاما نتعرف به أكثر على بعضنا البعض. كنت قد سمعت من أبي سابقا عن عائلته. فقد كانت علاقة أبي بهم جيدة و كان يتكرر ذكرهم بين الفينة و الأخرى في بيتنا، لذلك لم أجد صعوبة كبيرة في الحديث معه. فالخلفية كانت موجودة عنه و عن عائلته و صلة القرابة معنا كانت واضحة بالنسبة لي مما جعل الحواجز بيننا تكاد تكون

لا تذكر. ظللنا هكذا فترة كان فيها الحديث بيننا روتينيا عن يومياتنا و ما نفعله. في أحد الأيام قال لي بأن أبيه قد أرسل له شجرة العائلة و قال لي إنها نفس شجرتكم فجذنا واحد. قلت له نعم إنه بالتأكيد كذلك. عادة عندما يسافر الأبناء يصبح هم آبائهم أن لا ينسوا جذورهم و لا أصولهم و من هنا فأن يحاول والده أن يرسل له ما يعرفه على أصله و جذوره يبدو مفهوما جدا. قلت له ذلك فضحك و قال بأنه لن ينسى ثم أرسل لي نسخة عبر الانترنت. فتحتها فورا و أخذت أتتبع الأسماء المكتوبة داخل الدوائر فتذكرت شجرة العائلة اللفافة التي كانت عند أبي لكن الفرق الوحيد هو أن الشجرة التي كانت عند أبي كانت مخطوطة و بجانبها أختام بينما هذه تبدو أنها قد رسمت حديثا و من دون هذه الأختام. قلت له بأنه كان لدينا النسخة الأصلية و لا أعرف ما حل بها و أظن أنها قد سرقت من ضمن جملة ما سرق في الحرب. أخبرني أن عمه عنده نسخة قديمة وأصلية أيضا و أن ما أرسله لي هي منسوخة عنها كي يحافظوا على ما فيها من معلومات بعد أن كادت تهترئ.

أخذت بشغف أمحص في الشجرة و أدقق فيها. إنها نفسها التي كانت عند أبي في خزانته. أصبحت و أنا في ذاك العمر و كنت قد وصل للثلاثين من عمري أقف عند كل اسم و أحاول أن أدقق به و أرسم

لي خطأ للبحث عنه و عن تاريخه و معناه. كنت فقط لا أعرف من أين أبدأ فكل بحث يجب أن تكون له نقطة بداية تستطيع من خلالها التفرع بسهولة و البحث بسهولة. الأهم هي أن تجعلك مرنا و توصلك إلى المعلومات والاستنتاجات بسهولة.

كان المستقر في ذهني فقط أننا دمانحة و أننا ننتسب في النهاية إلى الحسين عليه السلام و فقط. توارثنا ذلك منذ الصغر. فقد كان الكبار يروون ذلك أمامنا دون إضافات و دون شروحات. لم أكن أملك غير هاتين المعلومتين للبحث و معرفة المزيد. و لكن هل تلك المعلومتين تكفيان للوصول إل قصة كاملة لعائلتنا؟ هل يمكن من خلاهما أن أصل إلى ما يشبع شغفي؟

في النهاية الشغف لن يشبع إلا بمعلومات صلبة راسخة ترد على كل الأسئلة و تعطي كل الإجابات بطريقة رصينة و قوية. و هكذا بدأت البحث، فقررت أن أكتب عن كل مفصل أظنه مهما في شجرة العائلة بداية من أبي.

"وكذلك جعل سبب معرفة العبد ربه معرفة العبد
نفسه، بشاهد: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ أَيَّ : بالعبودية عرف
ربه بالربوبية ؛ ومن عرف نفسه بالفناء، عرف ربه
بالبقاء؛ ومن عرف نفسه بالجفاء والخطأ عرف ربه
بالوفاء والعطاء، ومن عرف نفسه بالافتقار قام لله على
قدم الاضطرار ؛ ومن عرف نفسه لمولاه، قلت حوائجه
إلى من سواه"

الإمام أحمد الرفاعي

البداية من والدي

لقد شغلني البحث عن الاصول و توثيقها سنوات و سنوات. كنت لا أعرف من أين أبدأ ولا كيف أهتدي إلى الطريقة التي سأبدأ بها. ظللت سنوات أجمع الوثائق والكتب لأكتب عن أصولنا وأوثق تاريخ أجدادنا معتمدا أساسا على الرواية الشفهية التي كان تناقلها العائلة جيلا بعد جيل. كنت و ما زلت أؤمن أن الرواية الشفهية دون نصوص مكتوبة و وثائق.

كانت الوثائق والكتب التي جمعتها تبدو كقطع لا رابط بينها و كأنها نجوم في الفضاء تخبرك دون أن تفهمك القصة كاملة. كان بناء النص و ربط كل هذه الروايات والوثائق مع بعضها البعض هو التحدي الذي كان أمامي. والتحديات عادة تحتاج همة و تحتاج وقتا و جهدا كبيرين. فالمعلومات في أغلب الأحيان تكون متوفرة بقليل من البحث و بالربط بين الرواية الشفهية و الكتب و الوثائق. صحيح أن الوصول إلى الكتب و الوثائق مهمة صعبة لكن الأصعب هو صهر كل تلك الوثائق و

النصوص في نص واحد متكامل يجعل من السهل لكل قارئ أن يفهم القصة كلها. إنها قصة عائلة لم توثقها كتب بل كل ما كان متوفر عنها هي الروايات الشفهية و القصص المتناثرة في الكتب و الوثائق دون ربط بينها و دون فهم حتى للظروف التاريخية التي عاشتها هذه العائلة. قررت أن أبدأ و بدايتي كانت بتوثيق نسب أبي و هو ما يوثق نسب العائلة كلها. لقد اخترت أبي بداية للطريق وفاء له و عرفانا لجهده الكبير الذي بذله في تربيتنا و تنشئتنا. فالأب هو أساس أي عائلة و هو الذي يصيغ عادة هويتها و يعطيها نسبها.

والدي

إنه سليمان مصطفى محمد محمود حميدو الدملخي السبسي الرفاعي الحسيني. ولد والدي في ديرجمال شمال حلب في الأول من أيار في العام 1955 و توفي في أبوظبي في الرابع من تشرين الثاني نوفمبر في العام 2016 عن عمر تجاوز الواحد و الستين عاما بأشهر قليلة. ينتسب والدي إلى جده حميدو و هو جده الرابع الذي ولد قرابة العام 1830-1820 ميلادية لعائلة دملخية سبسية رفاعية ورثت الطريقة الصوفية السبسية الرفاعية جيلا بعد جيل. و نسب أبي المفصل هو :

سليمان بن مصطفى بن محمد بن محمود بن حميدو (محمد) بن حج أحمد بن
 محمد علي بن حسن آغا بن إبراهيم بن حاج مصطفى بن السيد عمر الأول
 بن السيد بكور بن السيد علي بن الشيخ جمعة بن شاهين بن ناصر بن
 غنيمة بن محمد ديب بركة بن الشيخ علي بركة بن الشيخ سليمان
 السبسي الكبير بن الشيخ محمد مهدي السبسي بن حسن العسكري
 بن علي التقي بن منصور أبي الصفا بن أحمد نجم الدين الأخضر (ابن
 فاطمة بنت السيد أحمد الرفاعي) بن علي مذهب الدولة بن سيف الدين
 عثمان (زوج أخت السيد أحمد الرفاعي ست النسب وابن عمه) بن
 حسن العسكري بن محمد عسلة بن الحازم علي أبي الفوارس بن أحمد
 المرتضى بن علي بن الحسن الأصغر المعروف برفاعة بن مهدي المكي أبو
 رفاعة بن أبي القاسم محمد بن الحسن القاسم المكنى بأبي موسى بن الحسين
 عبد الرحمن لقبه الرضي المحدث بن أحمد الصالح الأكبر بن موسى الثاني
 بن إبراهيم المرتضى بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر
 بن زين العابدين علي الأصغر بن الحسين بن علي بن أبي طالب وأم
 الحسين فاطمة الزهراء بنت الرسول محمد ﷺ بن عبد الله بن عبد المطلب
 بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي
 بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن
 إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

الحاج أحمد

كان والد حميدو الحاج أحمد هو أول من أتى إلى ديرجمال قرابة العام 1855 ميلادية و اتخذها موطناً له و لعائلته. فقد كانت العائلة جزءاً من بني سعيد منذ منتصف القرن الثامن عشر تقريباً. فقد تشكل تحالف بني سعيد في ذلك التاريخ في منطقة الزور في مسكنه على الفرات شرقي حلب و شمالاً حتى الساجور¹. و كانت العائلة تعيش بجزء من بني سعيد حتى منتصف القرن التاسع عشر عندما حدثت اضطرابات شرقي حلب نتيجة غارات البدو من عنزة و الولادة مما دفع بني سعيد إلى الإنزياح شمالاً إلى حيث كان يعيش حلفاءهم الدمالحة الذي كانوا يسكنون المنطقة الممتدة من منبج إلى الساجور حوالي الغندورة

¹ تدل المرويات التاريخية أن الدمالحة بعد معركة اللاوند اتجهوا شمالاً حتة وصلوا إلى جنوب تلريكا في منطقتي أورفا و عنتاب ثم في القرن الثامن عشر وجدوا في المنطقة التي كان فيها فحل الخليل غربي الفرات في الزور حوالي مسكنة شرقي حلب فتحالفوا معه. و السؤال هل الزور المقصود بها دير الزور؟ على الأغلب فإن الزور تطلق على منطقة على النهر غمرها الماء ثم تراجع فأضحت خصبة بفعل ما رسبه من طمي وهي أيضاً المنطقة الداخلة في النهر أو التي توجد في إبتناء النهر. فالزور ليس اسماً تنفرد فيه دير الزور بل هو اسم شائع لأي منطقة تحمل نفس الموصفات السابقة و هو اسم يتكرر في العديد من البلدان. ففي الكويت هناك منطقة اسمها الزور على الخليج تحمل نفس الموصفات السابقة. و الواضح أن الزور كانت منطقة تقع شرقي مسكنة على الفرات تلاشت بعد الغمر و تكوين ما يعرف حالياً ببحيرة الأسد.

شمالاً. و خلال هذه الانزياح قدم الحج أحمد الى دير جمال التي لم تكن موجودة كضيعة بهذا الاسم ولا بهذا الموقع بل كانت حوالي كرمين و هو نبع الماء المغذي حتى اليوم للضيعة على طريق تل رفعت. كان موقع الضيعة الحالية عبارة عن خرائب أثرية لدير قديم. أنشأ الحج أحمد عائلة كبيرة و غنية تملك أراضي الضيعة و اشتهرت إضافة إلى غناها بإرثها الصوفي السبسي الرفاعي الذي أحيتة في الضيعة و أنشأت زاويتها الصوفية التي ظلت قائمة حتى نهاية العشرين.

حسن آغا

ينتسب الحج أحمد إلى جده حسن آغا الدملخي الذي عاش في القرن الثامن عشر في منطقة شمال شرقي حلب حوالي منبعج الى الساجور شمالاً. و يمكن تقدير تاريخ ميلاد حسن آغا في حوالي العام 1740 ميلادية. كان السيد حسن آغا سيدا مهابا ذا مكانة فكسب لقب الآغاوية لمكانته و مكانة عائلته عن الدولة العثمانية. لقد كان الدمالخة في العهد العثماني ذوي مكانة كبيرة فقد كانوا فرسانا ذوي مكانة كبيرة كلفوا في أحيان كثيرة بحراسة طرق التجارة في ولاية حلب إضافة الى أنهم كانوا من الأشراف مما جعل الدولة العثمانية تمنحهم الامتيازات الكثيرة ليس أقلها اعفائهم من الضرائب على أراضيهم. تخبرنا كتب

التاريخ عن ذلك كما تخبرنا أيضا الروايات الشفهية المتناقلة. تذكر هذه المرويات قصة انضمام الدمالحة ربما تحت قيادة حسن آغا لتحالف بني سعيد قرابة منتصف القرن الثامن عشر. فقد جاء أسعد السعدون جد فحل الخليل من دير الزور الى مسكنة وحواليها قرابة غربي الفرات حوالي في بداية القرن الثامن عشر قرابة العام 1700-1710 ميلادية. وبقدومه الى هذه المنطقة وجد العديد من العشائر مختلفة المنابت والأصول والذين كان منهم الدمالحة. كانت هذه العشائر تعيش في هذه المنطقة الواقعة من الساجور شمالا حتى مسكنة جنوبا، فنشأت بينهم وبين الوافد الجديد علاقات لقرب مساكنهم من بعضهم البعض ولحاجتهم للدعم والحماية في وجه قطاع الطرق والقبائل المتمردة. و قد تطورت هذه العلاقة في زمن حفيده فحل الخليل فقام بإنشاء تحالف قبلي سمي بني سعيد وهو تحالف قبلي ضم عددا من القبائل مختلفة الاصول والمنابت تحت قيادة فحل الخليل الذي ينحدر من زبيد القحطانية. لقد نشأ هذا التحالف في منطقة مسكنة و شمالها وضم إضافة إلى الدمالحة عشائر كثيرة مختلفة المنابت والأصول وصل عددها إلى حوالي 33 عشيرة.

لقد كان دخول هذا الحلف صفحة جديدة في حياة الأسرة الدملخية التي نشأت في حوالي نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع

عشر أي قبل قرابة المائة و خمسين عاما من نشأة تحالف بني سعيد. فقد أصبحوا يعيشون ضمن حلف قبلي واسع يمتد من الساجور في الشمال حيث كانوا يقطنون حتى جنوبي شرقي حلب في مسكنة، زاد خلاله نفوذهم و زادت معه قدرتهم على حماية أنفسهم من أي خطر خارجي يهددهم.

الدمالحة

يعود نسب الدمالحة إلى السيد علي بركة بن السيد سليمان السبسي بن السيد محمد مهدي السبسي. إنهم فرع كبير من العائلة السبسية الكبيرة الذي ينحدر من السيد علي بركة بن سليمان السبسي. لم يطلق على هذا الفرع السبسي من العائلة اسم الدمالحة إلا بعد معركة كبيرة حدثت حوالي نهاية القرن السادس عشر الميلادية و هي معركة اللاوند. و اللاوند هي معركة حصلت حوالي حماة في سهل الخصيمية بين السباسة الذين ينحدرون من نسل السيد علي بركة و فرق من عسكر الولاية المحليين و اشترك فيها السباسة و قبائل كثيرة انضمت اليهم و انتهت بتفريق هذا الجزء من السباسة الذي يعود نسبه إلى علي بركة. لقد حمل الدمالحة بعد تفرقهم من موطنهم حوالي حماة قصصا كثيرة متنوعة مختلفة

التفاصيل عن هذه المعركة. فمنهم من سماها البلشة أي أنهم قد قتلوا قتيلا فطولبوا بالثأر فهربوا و منهم من أعادوها لأصلها عن معركة حصلت فطولبوا بعدها بالثأر فهربوا. عندما كانت جدتي تخبرنا عن أصلنا كانت تقول بأننا بلشنا فهربنا دون أن تضيف كثيرا من التفاصيل. فعادة مع مرور القرون تختفي التفاصيل و تصبح الرواية شعبية تركز على الحدث دون الولوج إلى القصة بتفاصيلها و بخلفياتها التاريخية. بعد معركة اللاوند تفرق أحفاد علي بركة و عرفوا منذ ذاك الوقت الدماخلة و انتقلوا الى شمال سورية و جنوب تركيا في المنطقة الممتدة بين جنوب تركيا و شمال شرقي حلب في المنطقة المحيطة بنهر الساجور.

الساسبة

و الدماخلة هم سبسبيون يعود نسبهم الى السيد سليمان السبسي بن محمد مهدي السبسي. و الساسبة هم جزء من العائلة الرفاعية ينسبون إلى السيد حسن التقي بن السيد منصور أبي الصفا بن السيد أحمد الأخضر بن مذهب الدولة بن عثمان الرفاعي و يصلون بنسبهم الى السيد أحمد الرفاعي عن طريق ابنته زينب التي تزوجها السيد مذهب الدولة بن سيف الدين عثمان الرفاعي ابن عم السيد أحمد الرفاعي. قدم

السباسبية إلى بلاد الشام من موطنهم في أم عبيدة في واسط في العراق بعد الغزو المغولي للعراق. و تمدنا المصادر التاريخية أن السيد أحمد الأخضر قد توفي في العام 645 هجرية جوالي العام 1247 ميلادية أي قبل الغزو المغولي للعراق بأحد عشر عاما. ويمكن لنا فهم سبب هروبهم من العراق بما حصل بعد الغزو المغولي له. فقد انحطت الأحوال الاجتماعية و الاقتصادية و السياسية بعد الغزو المغولي مما دفع كثيرا من العلماء و العائلات الدينية إلى مغادرته كما تذكر المصادر التاريخية التي تحدثت عن أثر الغزو المغولي على العراق على الناس و العلماء و الأنشطة الاقتصادية و الاوضاع السياسية.

يلقب السيد محمد مهدي السبسي بنزيل سبسية كما يلقب أيضا بدفين سبسية حيث توفي و دفن فيها. و سبسية هي قرية في حوران نزلها و قدم إليها السيد محمد مهدي السبسي. و لا نعرف يقينا إن كان السيد محمد مهدي السبسي قد قدم مباشرة من العراق إلى سبسية في الشام أم أنها كانت المكان الأخير الذي استقر فيه في الشام. إننا نعرف أن السيد محمد مهدي السبسي قد ولد قرابة العام 1305 ميلادية دون أن نعرف مكان ولادته و هل تمت في العراق أم في الشام لكننا نعرف أنه قد دفن في سبسية. يمكن لنا التأكيد أن العائلة الرفاعية التي ينحدر منها السيد محمد مهدي السبسي قد غادرت العراق في نهاية القرن السابع

المهجري أو بداية القرن الثامن الهجري كأقصى تقدير. بعد وفاة السيد محمد مهدي السبسي انتقلت العائلة السبسية التي ورث مشيختها السيد سليمان السبسي عن والده إلى حوالي حماة في منطقة الخصيمية حيث تملك اقطاعات واسعة أورثها لأولاده من بعده عبر وقف خيرى أو ذري حصر الاستفادة من هذا الوقف بأولاده وأحفاده من بعده.

الرفاعيون

و ينسب السباسة إلى الى العائلة الرفاعية الكبيرة و التي يرجع نسبها الى السيد أحمد الرفاعي الذي عاش في القرن السادس الهجري. فقد ولد السيد أحمد الرفاعي في قرية حسن في أم عبيدة ي منطقة البطائح في واسط في سواد العراق في حوالي العام 512 هجرية أي حوالي العام 1119 ميلادية و توفي في العام 578 هجرية أي حوالي العام 1183 ميلادية.

و السيد أحمد الرفاعي هو قطب صوفي بارز في التاريخ الصوفي الإسلامي. فقد كان له الفضل في تأسيس الطريقة الرفاعية كأهم الطوائف و التي تفرعت منها الكثير من الطرق الصوفية الأخر. فقد ولد السيد أحمد الرفاعي في فترة استشرى فيها البعد عن الدين و الإنشغال بمتع الدنيا فكانت الطرق الصوفية القادرية نسبة الى السيد عبد القادر الجيلاني

والرفاعية بعدها نسبة الى السيد أحمد الرفاعي نوعا من الرد على العيش بعيدا عن أسس الدين وتعاليمه و الانشغال بالدنيا.
يمتد نسب السيد أحمد الرفاعي إلى السيد موسى الكاظم بن جعفر الصادق وصولا الى سيدنا الحسين بن علي رضي الله عنه فهو السيد أحمد الرفاعي الحسيني فهو:

السيد أبو العباس أحمد بن علي بن يحيى بن ثابت بن الحازم علي أبي الفوارس بن أحمد المرتضى بن علي بن الحسن الأصغر المعروف برفاعة بن مهدي المكي أبو رفاعه بن أبي القاسم محمد بن الحسن القاسم المكنى بأبي موسى بن الحسين عبد الرحمن لقبه الرضي المحدث بن أحمد الصالح الأكبر بن موسى الثاني بن إبراهيم المرتضى بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين علي الأصغر بن الحسين بن علي بن أبي طالب وأم الحسين فاطمة الزهراء بنت الرسول محمد ﷺ بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان².

² الكيلاني جمال، الصميدعي زياد، الإمام أحمد الرفاعي المصلح المجدد، ص12.

ولقب الرفاعي يعود إلى رفاة جده السابع واسمه الحسن وكان الحسن أيام اضطهاد أحفاد علي رضي الله عنهم قد ترك مكة واتجه إلى المغرب ثم عبر منها إلى الأندلس وأقام في قرية قرب إشبيلية وعاش هناك و عاشت عائلته بعده هناك إلى أن قرر أحد أحفاده يحيى³ الحج فقدم مكة وأقام بها لفترة ثم اتجه إلى البصرة في العام 450 هجرية أي حوالي العام 1059 ميلادية فأقام بها وخطب فيها للخليفة المستنصر وتولى فيها نقابة الأشراف و تزوج من بناتها فولد أبي الحسن علي الرفاعي في العام 459 هجرية أي حوالي العام 1067 ميلادية الذي أعقب السيد أحمد الرفاعي. ويبدو أن السيد يحيى بن ثابت بن علي الحازم قد جاء للحج مع أعمامه وأقاربه قاصدين موطن أجدادهم القديم و منهم عمه محمد عسلة بن علي الحازم الرفاعي الذي أعقب السيد حسن و الذي بدوره أعقب السيد سيف الدين عثمان. تزوج السيد سيف الدين عثمان بأخت السيد أحمد الرفاعي ست النسب فأعقب السيد علي مذهب الدولة و عبد الرحيم ممهد الدولة. تزوج السيد علي مذهب الدولة من ابنة السيد أحمد الرفاعي السيدة فاطمة و من نسله جاء السباسة.

³ السيد أحمد الرفاعي هو أحمد بن علي بن يحيى بن ثابت بن علي الحازم و هو جد السيد أحمد الرفاعي المباشر أما السيد سيف الدين عثمان فهو سيف الدين عثمان بن السيد حسن العسكري بن السيد محمد عسلة بن السيد علي الحازم

أما السيد عبد الرحيم ممهد الدولة فقد تزوج من ابنة السيد أحمد الرفاعي
السيدة زينب.

"أي سادة إن لله تعالى عبداً اصطفاهم لمعرفته،
وخصهم بمحبته، واختارهم لصحبته، و اجتباهم لمؤانسته
وقربهم لمناجاته، وحرصهم على ذكره، وأنطقهم بحكمته،
وأذاقهم من كأس محبته، وفضلهم على جميع خلقه، حتى
لم يريدوا به بدلاً، ولا سواه كفيلاً، ولا دونه ناصراً
ومعيناً ووكيلاً"

الإمام أحمد الرفاعي

3

الرفاعيون

لا توجد عائلات كثيرة حافظت على نسبها منذ 1000 عام حتى اليوم كما حافظت عليه العائلة الرفاعية. فرغم مرور قرون على نشأة هذه العائلة إلا أن معظم المنتمين نسباً وطريقة إليها يعرفون تفاصيل نسبها وقصة مؤسسها الكبير السيد أحمد الرفاعي. ورغم تفرق العائلة الرفاعية وانتشارها في كل البلاد العربية والإسلامية ورغم عدد المنتسبين إلى هذه العائلة الذي يقارب الملايين، إلا أن بطون الكتب والروايات العائلية حافظت كلها على قصة العائلة ونسبها.

من هم الرفاعيون؟

ينسب الرفاعيون طريقة ونسباً إلى السيد أحمد بن علي الرفاعي الحسيني القطب الصوفي الذي يعرف أيضاً بأبي العلمين وشيخ الطرائق والشيخ الكبير وأستاذ الجماعة. والسيد أحمد بن علي الرفاعي الحسيني هو فقيه شافعي صوفي ولد كما تقول أشهر الروايات في قرية حسن (من قرى أم

عبدة) في منطقة البطائح في واسط في العراق في العام 512 هجرية / 1118 ميلادية. و البطائح هي منطقة في سواد العراق ما بين دجلة و الفرات تمتد من شمال البصرة حتى واسط و تعرف بخصوبتها العالية و نظم ريفها التي تعود لأزمة بعيدة. و قد ذكرت عدة روايات عن تاريخ ولادته فقيّل بأن ولادته كانت في قرية من أعمال البصرة وولد سنة ٥٠٠ من الهجرة وقيّل بأنها كانت سنة ٥١٢ في شهر رجب وقيّل: إن الرفاعي هذا ولد بعد وفاة أبيه بأشهر وقيّل بل ولد في حياته في بغداد سنة ٥١٩ هـ وأن والده قد توفي و عمر أحمد الرفاعي آنذاك سبع سنين، وبعثه نقله خاله الشيخ منصور البطائحي هو وإخوته وأمه فاطمة إلى قريته حسن قرب أم عبدة. لكن الرواية الأكثر ثبوتاً أنه قد ولد العام 512 هجري في بلدة حسن في البطائح و فقد أبيه و هو ابن سبع سنوات ليكفله بعده خاله العالم الزاهد منصور البطائحي صاحب الطريقة التي أورثها له و عرفت لاحقاً باسمه.



خريطة 1 مرقد السيد أحمد الرفاعي، توضح الخريطة موقع مرقد السيد أحمد الرفاعي في قرية أم عبيدة في واسط في العراق وتقع حاليا في محافظة ميسان العراقية وقد كانت جزءا من واسط في العراق وحديثا تحولت إلى محافظة عراقية ضمن التقسيمات الإدارية المعاصرة

السيد أحمد الرفاعي

السيد أحمد الرفاعي هو قطب صوفي يعرف بأبي العلمين و هو لقب أطلقه عليه معلمه الشيخ الفقيه الفضل و يعرف أيضا بشيخ الطرائق والشيخ الكبير و أستاذ الجماعة . يمتد نسب السيد أحمد الرفاعي إلى السيد موسى الكاظم بن جعفر الصادق وصولا الى سيدنا الحسين بن علي رضي الله عنه. وقد ذكر أبو الهدى الصيادي أن السيد أحمد الرفاعي الحسيني هو:

أبو العباس أحمد الرفاعي الحسيني بن السيد السلطان علي المكي الرفاعي
 دفين بغداد ابن السيد يحيى نقيب البصرة المغربي ابن السيد ثابت بن
 السيد الحازم علي أبي الفوارس بن السيد ابي علي احمد المرتضى بن السيد
 علي ابي الفضائل ابن السيد الحسن الأصغر رفاعه الهاشمي المكي نزيل
 بادية اشبيلية بالمغرب بن السيد أبي رفاعه المهدي ابن السيد أبي القاسم
 محمد بن السيد الحسن القاسم بن موسى رئيس بغداد نزيل مكة بن السيد
 الحسين عبدالرحمن الرضي المحدث بن السيد أحمد الصالح ويقال له
 الأكبر بن السيد موسى الثاني ويقال له أبو يحيى وأبو سبعة بن الأمير
 الجليل السيد أبي محمد إبراهيم المرتضى بن السيد الإمام موسى الكاظم
 بن السيد الإمام جعفر الصادق بن السيد الإمام محمد الباقر بن السيد
 الإمام علي زين العابدين بن السيد الإمام الحسين بن الإمام علي بن أبي
 طالب وأم الحسين فاطمة الزهراء بنت الرسول محمد ﷺ بن عبد الله بن
 عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن
 كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة
 بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان⁴

⁴ الروض البسام في أنساب أشهر البطون القرشية في الشام ، أبو الهدى
 الصيادي ص 64.

ويعتبر العمود الذي ذكره الصيادي الأقرب للصحة مع وجود تعديلات بسيطة. فالمشهور في المشجرات الرفاعية أن السيد أحمد الرفاعي هو: أبو العباس أحمد الرفاعي بن علي بن يحيى بن ثابت بن حازم بن علي بن الحسن بن المهدي بن القاسم بن محمد بن الحسين العرضي بن أحمد الأكبر بن موسى الثاني أبو سبحة بن إبراهيم المرتضى بن موسى الكاظم عليه السلام وهو الخط الذي ذكره ابن عنبه عن شيخه ابن معية وهو تقريبا نفس الخط المشهور عند السادة الرفاعية وحسب ما هو موجود في أنسابهم ومشجراتهم القديمة والذي حصل فيه بعض التصحيح والتصويب والذي يكون:

أبو العباس أحمد الرفاعي بن سلطان علي بن يحيى بن ثابت بن علي الحازم أبو الفوارس بن أحمد المرتضى بن علي أبو الفضائل بن رفاعة الحسن المكي بن علي المهدي المكي بن محمد أبو القاسم بن الحسن القاسم بن المحدث حسين بن أحمد الأكبر بن موسى الثاني أبو سبحة بن إبراهيم المرتضى بن موسى الكاظم عليه السلام السيد الإمام جعفر الصادق بن السيد الإمام محمد الباقر بن السيد الإمام علي زين العابدين بن السيد الإمام الحسين بن الإمام علي بن أبي طالب وأم الحسين فاطمة الزهراء بنت الرسول محمد ﷺ بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر

بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

فالفرق بين العمود الذي أورده الصيادي و العمود الذي ذكره وصححه عبد الواحد الصيادي في كتابه الرد على التحقيق الرفاعي⁵ هو ذكر موسى رئيس بغداد كأب للحسن أبي القاسم و هو ما صححه عبد الواحد الصيادي.

وقد ذكر الصميدعي والكيلاني في كتابهم "الإمام أحمد الرفاعي المصلح المجدد" عموداً للنسب هو الأصح فصححوا أن الحسن أبي القاسم مكنى بأبي موسى على نقيض ما ذكره الصيادي بأن موسى هو والد الحسن أبي القاسم.

لقد ذكر الصميدعي والكيلاني العمود الأصح للنسب وهو ما يتطابق مع ما ذكره عبد الواحد الصيادي فقالوا عن الإمام أحمد الرفاعي أنه :
أبو العباس أحمد بن علي بن يحيى بن ثابت بن الحازم علي أبي الفوارس بن أحمد المرتضى بن علي بن الحسن الأصغر المعروف برفاعة بن مهدي المكي أبو رفاعة بن أبي القاسم محمد بن الحسن القاسم المكني بأبي موسى بن الحسين عبد الرحمن لقبه الرضي المحدث بن أحمد الصالح الأكبر بن موسى الثاني بن إبراهيم المرتضى بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن

⁵ الرد على التحقيق الرفاعي، عبد الواحد الصيادي، ص75.

محمد الباقر بن زين العابدين علي الأصغر بن الحسين بن علي بن أبي طالب
 وأم الحسين فاطمة الزهراء بنت الرسول محمد ﷺ بن عبد الله بن عبد
 المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب
 بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن
 مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان⁶.

ولقب الرفاعي يعود إلى رفاة جده السابع واسمه الحسن وكان الحسن
 أيام اضطهاد أحفاد علي رضي الله عنهم قد ترك مكة واتجه إلى المغرب
 ثم عبر منها إلى الأندلس وأقام في قرية قرب إشبيلية وعاش هناك و
 عاشت عائلته بعده هناك إلى أن قرر أحد أحفاده يحيى⁷ الحج فقدم
 مكة وأقام بها لفترة ثم اتجه إلى البصرة في العام 450 هجرية أي حوالي
 العام 1059 ميلادية فأقام بها وخطب فيها للخليفة المستنصر وتولى فيها
 نقابة الأشراف و تزوج من بناتها فولد أبي الحسن علي الرفاعي في
 العام 459 هجرية أي حوالي العام 1067 ميلادية الذي أعقب السيد
 أحمد الرفاعي. و يبدو أن السيد يحيى بن ثابت بن علي الحازم قد جاء

⁶ الكيلاني جمال، الصميدعي زياد، الإمام أحمد الرفاعي المصلح المجدد.

ص12.

⁷ السيد أحمد الرفاعي هو أحمد بن علي بن يحيى بن ثابت بن علي الحازم

و هو جد السيد أحمد الرفاعي المباشر أما السيد سيف الدين عثمان فهو

سيف الدين عثمان بن السيد حسن العسكري بن السيد محمد عسلة بن السيد

علي الحازم

للحج مع أعمامه وأقاربه قاصدين موطن أجدادهم القديم و منهم عمه محمد عسله بن علي الحازم الرفاعي الذي أعقب السيد حسن و الذي بدوره أعقب السيد سيف الدين عثمان. تزوج السيد سيف الدين عثمان بأخت السيد أحمد الرفاعي ست النسب فأعقب السيد علي مذهب الدولة و عبد الرحيم ممهد الدولة. تزوج السيد علي مذهب الدولة من ابنة السيد أحمد الرفاعي السيدة فاطمة و من نسله جاء السباسبية. أما السيد عبد الرحيم ممهد الدولة فقد تزوج من ابنة السيد أحمد الرفاعي السيدة زينب⁸.

و يعود نسب السيد أحمد الرفاعي من ناحية أمه إلى الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري. فيعود نسب أمه من ناحية الأب إلى الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري و أما من ناحية الأم فيرجع نسبها إلى الحسين بن علي رضي الله عنه.

فأمه و خاله الشيخ منصور البطاخي نسبهم أنصاري من الأب حسيني من الأم. أما من جهة الأب فيعود نسبهم إلى الشيخ يحيى النجار (جد السيد أحمد الرفاعي) بن الشيخ موسى بن سعيد ابن الشيخ كامل بن الشيخ يحيى الكبير بن الإمام الصوفي الشهير محمد أبو بكر الواسطي بن

⁸ الروض البسام في أنساب أشهر البطون القرشية في الشام ، أبو الهدى الصيادي

موسي بن محمد ابن منصور بن خالد بن زيد بن مت وهو أيوب بن خالد
 ابي ايوب بن زيد الأنصاري النجاري الصحابي الجليل رضي الله عنه.
 أما نسبهم من الأم فيعود إلى السيدة رابعة (جدة السيد أحمد الرفاعي)
 بنت السيد عبد الله الطاهر بن السيد علي بن السيد أبي يعلى بن السيد
 محمد بن السيد محمد أمير الحاج بن السيد محمد الاشر بن السيد عبيد الله
 بن السيد علي الصلح بن السيد عبيد الله الأعرج بن السيد حسين
 الاصغر بن السيد علي زين العابدين بن الامام ابي عبد الله الحسين سبط
 النبي صلي الله عليه وسلم.

وقد تزوج السيد علي بن يحيى الرفاعي من أخت السيد منصور البطائحي
 و رزق منها بالسيد أحمد الرفاعي. وقد كانت ولادة السيد أحمد
 الرفاعي في البطائح في واسط في قرية اسمها حسن قرب أم عبيدة في
 العام 512 هجرية حوالي العام 1118 ميلادية. ولما بلغ من العمر سبعة
 سنوات توفي والده علي في بغداد فكفله خاله الشيخ منصور البطائحي
 ونقله إلى قرية نهر دقلة في واسط. ويمكن أن يدلنا زواج السيد علي
 بن أحمد الرفاعي من أخت منصور البطائحي عن نسب السيد أحمد
 الرفاعي و اتصاله بالسيد موسى الكاظم بن جعفر الصادق. فالسيد
 منصور البطائحي صاحب الأثر الكبير في حياة السيد أحمد الرفاعي و
 عائلته كلها. فعائلته حسينية أنصارية فكيف يزوج ذا النسب الشريف

كنصور البطائحي اخته من شخص إذا لم يكن يعرف نسبه حكماً. فكلمة أنه من بني رفاعه لا تستقيم. فلم يعرف العرب قبيلة كهذه بل هي عائلة تنسب لجد هو الحسن المعروف برفاعة وكان المجتمع ومنهم السيد منصور البطائحي الذي زوج والد السيد أحمد الرفاعي أخته يعرفون نسبه ونسب عائلته الحسيني الشريف. فأمور النسب مهمة جداً في مسألة الزواج ولا يمكن تزويج من لا يعرف نسبه بشكل حقيقي لبنت عائلة معروفة ومشهورة بنسبها كعائلة الشيخ منصور البطائحي.

حياته و علمه

فقد السيد أحمد الرفاعي والده وهو في عمر السبع سنوات فكفله خاله منصور البطائحي وتولى تعليمه وتأديبه. وكان خاله الشيخ منصور البطائحي علامة عصره في الفقه والتصوف فكفله ونقله إلى قرية عين دقلة في منطقة البطائح في واسط ونهر عين دقلة هو أحد روافد نهر دجلة. وكما ذكرنا فقد تولى الشيخ منصور البطائحي رعايته وتهذيبه وتعليمه ثم أرسله إلى فقيه عصره الإمام العالم أبي الفضل بن محمد بن بكر بن عبد الرحمن القرشي الواسطي وكان مقرئاً ومحدثاً وواعظاً عالي الشأن. فتولى هذا الإمام أمره وقام بتربيته وتأديبه وتعليمه، فجاء السيد

أحمد الرفاعي في الدرس والتحصيل للعلوم الشرعية حتى برع في العلوم النقلية والعقلية، وأحرز قصب السبق على أقرانه فأجازته وهو في العشرين من عمره إجازة عامة بكل علوم الشريعة والطريقة وأعظم شأنه ولقبه بأبي العليين، أي صاحب العليين الظاهر والباطن⁹.

عصر السيد أحمد الرفاعي

عاش السيد أحمد الرفاعي في عصر الاضطرابات الاسلامية الكبرى. فنذ منتصف القرن الرابع عشر اندلع صراع كبير بين الدولة العباسية في بغداد و الدولة الفاطمية في القاهرة لبسط النفوذ و السيطرة على الخلافة الاسلامية فشهد القرن الرابع عشر والخامس عشر حروبا و مؤامرات انتهت بسيطرة السلاجقة على الشام و تمكن الدولة العباسية من بسط نفوذها اسميا عبر السلاجقة عليها. لكن عقودا من الصراع الكبير بين العباسيين و الفاطميين انتهت عمليا إلى إضعاف الأمة بشكل عام و تفتتها بين إمارات صغيرة تدين بالولاء اسميا للدولة العباسية. و ما كاد هذا الصراع يصل إلى خواتمه حتى جاءت الحملات الصليبية التي وجدت الأرض خصبة لاحتلال بلاد الشام. فساحة الصراع العباسي

⁹ الكيلاني جمال، الصميدعي زياد، الإمام أحمد الرفاعي المصلح المجدد.

الفاطمي كانت أساسا بلاد الشام وكانت من نتائج هذا الصراع إضعاف البلاد وتقسيمها بين إمارات صغيرة متناحرة في أغلب الأحيان، فأتى الصليبيون ليقطفوا الثمار الناضجة ويسيطروا على الشام ويرتكبوا مجازر لم يقف أمامها أحد بسبب ما كانت تعانيه هذه البلاد من ضعف وهن. لقد ولد السيد أحمد الرفاعي وشب وهو يعيش الغزو الصليبي للشرق العربي الإسلامي ويعيش ما يحيط به من ترف ونزوات كان الناس منغمسين فيها لاهين عن الخطر الكبير الذي يحيط بهم والذي أدى إلى الاحتلال الصليبي للشام.

ظهرت في العصر الذي ولد فيه السيد أحمد الرفاعي دعوات صوفية أخذت تدعو إلى الزهد والبعد عن الترف والملاذات وذلك استجابة لما كان فيه المجتمع من انغماس في هذه الملاذات والبعد عن جوهر الدين الحقيقي. و كان خاله أبي منصور البطائحي أحد هؤلاء الذين أنشؤوا طريقة صوفية تدعو لما ذكرناه سابقا. لقد كان تأثير الشيخ منصور البطائحي كبيرا على السيد أحمد الرفاعي حتى أنه وقبل وفاته عهد إليه بهذه الطريقة دونا عن ولده لنبوغ الشيخ السيد أحمد الرفاعي وتفوقه العلمي فنضجت على يديه طريقة عرفت لاحقا بالطريقة الرفاعية نسبة إليه فانتشرت في الأفاق وزاد مریدوها وأتباعها بمرور السنين.

لقد تزامن تبلور الدعوى الصوفية الرفاعية مع انتشار للطريقة القادرية وهي طريقة صوفية تنسب للسيد عبد القادر الجيلاني - (470- 561) هجرية (1078- 1166) ميلادية- تلميذ أبي حامد الغزالي - (450- 505) هجرية (1059- 1112) ميلادية- صاحب إحياء علوم الدين. لقد كان ظهور هذه الدعوات محاولة لإحياء قيم الدين الحقيقية في عصر سادت فيه الفوضى و الصراعات فكانت هذه الطرق الصوفية ردا على الفرق الباطنية و على الفوضى السياسية و الاجتماعية التي كانت تسود ذلك العصر فساهمت هذه الطرق الصوفية في فتح المدارس لتربية النشء الجديد و غرس قيم الإسلام فيهم و توعيتهم بهدف واحد هو هدف تحرير بيت المقدس. انتشرت هذه المدارس في كل مكان معتمدة أساسا على الوقف الخيري أساسا لتمويلها. لقد كان صلاح الدين الأيوبي نتاجا لهذه الحركة الفطرية الدينية الصوفية التي كان هدفها الرئيسي الحث على تحرير بيت المقدس و توجيه طلابها نحو هذا الهدف فنشأ خلال مدة قصيرة جيلا جديدا ساهم بشكل أساسي في تحرير القدس مقاومة الصليبيين¹¹⁰.

10 الكيلاني، ماجد عرسان، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، دار القلم

11 الكيلاني جمال، الصميدعي زياد، الإمام أحمد الرفاعي المصلح المجدد.

لقد لعبت الحركة الصوفية دورا هاما في الحفاظ على قيم الدين ونشرها في مواجهة الحركات الباطنية التي دعمتها ونشرتها الدولة الفاطمية والتي أدخلت الأمة بداية من منتصف القرن الرابع الهجري في صراع انتهى عمليا بالغزو الصليبي. لقد ساهمت المدارس الصوفية في توعية الناس و تثقيفهم وتعليمهم وإعدادهم ليكونوا جيلا مختلفا ساهم في تحرير بيت المقدس وحماية الإسلام من الحركات والدعوات الباطنية.

عرف السيد أحمد الرفاعي بأبي العلمين و شيخ الطرائق و الشيخ الكبير و أستاذ الجماعة لكن أعظم ما لقب به كان لقبه بالقطب الصوفي. إن لقب القطب هو لقب صوفي لم ينله غير الأئمة الأربعة: أحمد الرفاعي و السيد عبد القادر الجيلاني و أحمد البدوي وإبراهيم الدسوقي.

و القطب كما قال ابن عربي هو مركز الدائرة ومحيطها و مرآة الحق و تبسيطا فهو الغوث لالتجاء الملهوفين إليه و هو موضوع نظر الله إليه في كل زمان، فكان لهم المريدون و لطرقتهم الأتباع و منها انقسمت طرقتهم إلى طرق أصغر تسير على نهجهم و فكرهم. و يمكن ملاحظة تفاصيل أخرى في تعريف القطب لكنها تحمل في باطنها معاني شريكية لا يمكن حتى قبولها من الأقطاب أنفسهم بل هي نوع من شطط المحبين و تشويه الحاقدين لا يصح أن يقال عنهم، فهم في النهاية مسلمون موحدون لم يدع الألوهية ولم يدع خوارق لا تتناسب مع دعوتهم التي جاءت أساسا

لإعادة احياء أسس الدين ونبد الغلو و محاربة الباطنية التي انتشرت في عصرهم.

و الواضح من فهم معنى القطب أنه أصل الطرق التي تكونت من بعده فهو مصدر الطرق التي تكونت من بعده وإليه تعود. إن هذا يعني أن أصل الطرق التي نراها اليوم هي اربعة طرق تعود لأربعة أقطاب و سمي القطب بهذا الاسم كونه الاصل الذي تفرعت منه الفروع الصوفية الأخرى فهو الأساس فكريا و طريقة.

إن هذا التفسير يبدو أكثر إقناعا من تفاسير من شطط و تمادى في إصاق الشريكات بهؤلاء الأئمة حتى أن منهم من ادعى أنهم لم يموتوا بل انتقلوا إلى البرزخ يحيطون بعنايتهم أتباعهم وهم هناك و هذا تفسير شكري باطني لم يدعيه هؤلاء الأئمة ولم يقولوا به.

وفاة السيد أحمد الرفاعي

توفي السيد أحمد الرفاعي في أم عبيدة في واسط في العراق في العام 578 هجرية الموافق 1183 ميلادية و ما زال مقامه قائما حتى اليوم. و قد زار ابن بطوطة مقامه و كتب عن زيارته تلك في كتاب رحلته

الشهير. فقد نقل ابن بطوطة مشاهداته عند زيارته لأم عبدة في واسط عندما حضر مولدا صوفيا وصف فيه ما شاهده فقال:

"ووصلنا في ظهر اليوم الثاني إلى الرواق وهو رباط عظيم فيه آلاف من الفقراء. وصادفنا به قدوم الشيخ أحمد كوجك حفيد ولي الله أبو العباس الرفاعي الذي قصدنا زيارته وقدم من موضع سكاه من بلاد الروم برسم زيارته قبر جده وإليه انتهت الشياخة بالرواق ولما انقضت صلاة العصر ضربت الطبول والدفوف وأخذ الفقراء في الرقص ثم صلوا المغرب وقدموا السمات وهو خبز الأرز والسمك واللبن والتمر فأكل الناس ثم صلوا العشاء الآخرة وأخذوا في الذكر والشيخ أحمد قاعد على سجادة جده المذكور ثم أخذوا في السماع وقد أعدوا أحمالاً من الحطب فأججوها ناراً ودخلوا في وسطها يرقصون ومنهم من يترغ فيها، ومنهم من يأكلها بفمه حتى أطفئوها جميعاً وهذا دأبهم. وهذه الطائفة الأحمدية مخصوصون بهذا، وفيهم من يأخذ الحية العظيمة فيعض بأسنانه على رأسها حتى يقطعه."

وقد قام ابن بطوطة برحلته تلك بين العامين 1325 و العام 1352 ميلادية أي بين العامين 725 هجرية و العام 752 هجرية تقريبا أي أنها استغرقت منه قرابة الـ 27 عاما. والواضح أنه قد زار رواق السيد أحمد الرفاعي بعد حوالي 150 سنة من وفاة السيد أحمد الرفاعي الذي

توفي في العام 578 هجرية. لقد ذكر ابن بطوطة قدوم حفيد السيد أحمد الرفاعي لزيارته من بلاد الروم. لقد بدأت هجرة الرفاعيين من أم عبدة إلى الأمصار الإسلامية منذ بداية القرن السابع الهجري لكن الهجرة الكبرى كانت خلال الغزو المغولي للعراق وما فعله في المغول فيه فكانت هجرتهم منها إلى الشام و مصر و الأمصار الإسلامية حيث ذاع صيتهم و عظم شأنهم و نشروا معهم طريقة جدهم أحمد الرفاعي و منها تفرعت الكثير من الطرق الصوفية التي تنتسب إليه.

مذهبه و آثاره

كان السيد أحمد الرفاعي فقيها شافعيًا أشعري العقيدة صوفيا و ظل مذهبه هكذا حتى وفاته. و تقوم طريقته الصوفية الرفاعية على العمل بالكتاب و السنة مع العمل على مجاهدة النفس و مكابذتها مع قراءة ورد خاص بالشخص حسب توجيهات الشيخ أو المعلم مع التسليم و الانقياد له.

وتشترك كل الطرق الصوفية بضرورة وجود الشيخ أو المعلم الذي ينقاد له الشخص أو المريد و هو كما يمكن الاستنتاج نوع من استسلام التلميذ لمعلمه. فالأصل في كل هذه الطرق الصوفية هو تعليم الناس وإرشادهم

وجعلهم يتعلمون أسس الدين وقواعده في وقت بعد الناس عن أسس الدين وتلهوا بملذات الحياة وترفها. لكن هذا الانقياد الذي كان في بداية الطرق الصوفية كانقياد التلميذ لأستاذه تحول لاحقاً كما في كل الحركات أو الاتجاهات الفكرية إلى وسيلة سيطرة استغلها البعض للتحكم بالناس وتوجيههم و توجيهمهم والسيطرة عليهم وهو ما يخالف أسس هذه الطرق الصوفية التي وجدت أساساً لتعليم الناس وليس للسيطرة عليهم.

لقد كانت أحد أساليب هذه السيطرة في ظهور ما يعرف بكرامات الشيوخ وهو أمر لم يكن موجوداً في عهد السيد أحمد الرفاعي الذي لم يتحدث بكرامة ولم يدع الخوارق. فالأصل في طريقته هو تعليم الدين وأساسه بطريقة الإنقياد للمعلم الذي هو الشيخ. لكن هذا الانقياد تحول بعد وفاته وانتشار طريقته إلى نوع من الاستغلال من بعض من ادعوا الكرامات والخوارق من الشيوخ المعلمين. فادعى بعضهم القدرات الخارقة لجعل الثعابين تلسعهم والدخول في النار المشتعلة دون أن تحرقهم وهي أمور أحدثت بعد السيد أحمد الرفاعي ولم تكن موجودة خلال حياته. وقد ذكر ذلك كما أسلفنا ابن بطوطة عند زيارته لأُم عبيدة فقال عمن حضروا الذكر مع حفيد السيد أحمد الرفاعي السيد أحمد كوجك: "وقد أعدوا أحمالاً من الحطب فأجوها ناراً ودخلوا في

وسطها يرقصون ومنهم من يتمرّغ فيها، ومنهم من يأكلها بفمه حتى أطفئوها جميعاً وهذا دأبهم. وهذه الطائفة الأحمدية مخصوصون بهذا، وفيهم من يأخذ الحية العظيمة فيعض بأسنانه على رأسها حتى يقطعه." إن أساس دعوة السيد أحمد الرفاعي الصوفية بعيدة كل البعد عن الخوارق والكرامات فهي دعوة للتمسك بالكتاب والسنة والعمل بهما ولباس ثوب التعرية من الدنيا والنفس، وتحمل البلاء، ولبس الوقار واجتناب الجفاء. وقد جد السيد أحمد الرفاعي في تعليم الناس أمور دينهم وفي الوعظ والإرشاد. كما كانت حلقات العلم أساساً في تعليم الناس هدي الرسول والقرآن الكريم.

وللسيد أحمد الرفاعي كتب و مؤلفات عديدة في الفقه وفي الصوفية. فقد ألف السيد أحمد الرفاعي كتاباً في الفقه الشافعي اسمه كتاب الحكم شرح التنبيه كما له كتب كثيرة وصلنا بعضها ك تفسير سورة القدر و الطريق إلى الله وغيرها.

سلالة أحمد الرفاعي

لقد كان السيد أحمد الرفاعي علماً في حياته وبعد مماته. فقد ترك ارثاً عظيماً ما زال حاضراً في حياتنا حتى يومنا هذا. لقد كانت كتبه و

مؤلفاته و طريقته الصوفية التي نسبت إليه عاملين أساسيين في تخليد ذكره. لكن عاملا أكبر ساهم في ذلك و جعل طريقته و ذكره غير منقطعين حتى اليوم. هذا العامل هو عامل العائلة التي تركها خلفه و التي انتشرت في كل أصقاع العالم الإسلامي. ربما إذا أردنا أن نحصي الرفاعيين عددا لقلنا أنهم بلا مبالغة قد يصل عددهم إلى الملايين منهم من انتسب دما و منهم من انتسب طريقة و منهم من انتسب موالاة. فالعرب يعرفون النسب على أنه نسب بالدم أو بالموالاة أو بالحلف و كل هذه الأنساب مقبولة. إضافة إلى ذلك فالإسلام نفسه يعترف بالنسب سواء أكان عائدا إلى الأب أو إلى الأم. فالإسلام يقر بأن ابن الأخت هو أو هي من نفس القوم أي من نسب أمه كما يعترف أيضا بأنه من نسب أبيه و كليهما مقبولين. و هذا نص لرسول الله صلى الله عليه و سلم يؤكد ذلك بلا مواربة. فقد روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: دعا النبي صلى الله عليه وسلم - الأنصار، فقال: «هل فيكم أحد من غيركم» قالوا: لا، إلا ابن أخت لنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ابن أخت القوم منهم»

و من هنا يمكن فهم هذا العدد الكبير من الذي ينتسبون إلى السيد أحمد الرفاعي دما عبر العالم الإسلامي. فنسب الدم مقبول في الإسلام سواء أ جاء عن طريق الأب أو عن طريق الأم. فإذا أضفنا ذاك

العدد الكبير إلى من ينتسبون إلى الأسرة الرفاعية طريقة وموالة سنصبح أمام عدد كبير لهذه العائلة التي انتشرت من العراق إلى جميع أنحاء العالم الإسلامي بداية من القرن السابع الهجري.

ويصل النسب الذي يعود للسيد أحمد الرفاعي إليه عن طريق ابنتيه السيدتين فاطمة وزينب. فالسيد أحمد الرفاعي لم يعقب ذكورا بل كان له ابنتين هما السيدة زينب والسيدة فاطمة. لقد زوج السيد أحمد الرفاعي ابنتيه إلى أبناء عمومتهم ليكون النسب كاملا من طرفي الأب والأم يصل في نهايته إلى الحسين بن علي رضي الله عنه. فقد تزوجت السيدة فاطمة بآبن عمها مذهب الدولة بن سيف الدين عثمان الرفاعي نخرج من نسلهما إبراهيم الأعزب ونجم الدين أحمد. أما ابنته الأخرى السيدة زينب فقد تزوجت بآبن عمها عبد الرحيم محمد الدولة بن السيد عثمان الرفاعي نخرج من نسلهما السيد شمس الدين محمد والسيد أبو الحسن علي والسيد عز الدين الصياد والسيد أحمد عز الدين الكبير الملقب بابي القاسم والسيد أبي الحسن الثاني. وقد ذكر الصيادي هذا النسب تفصيلا في كتابه الروض البسام في أنساب أشهر البطون القرشية في الشام.

و السيد عثمان هو: سيف الدين عثمان بن حسن العسكري بن محمد عسلة بن علي الحازم بن أحمد المرتضى بن علي بن الحسن الأصغر

المعروف برفاعة بن مهدي المكي أبو رفاعة بن أبي القاسم محمد بن الحسن القاسم المكنى بأبي موسى بن الحسين عبد الرحمن لقبه الرضي المحدث بن أحمد الصالح الأكبر بن موسى الثاني بن إبراهيم المرتضى بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين علي الأصغر بن الحسين بن علي بن أبي طالب وأم الحسين فاطمة الزهراء بنت الرسول محمد ﷺ بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

ينحدر نسب العائلة السبسية الكبيرة من السيد نجم الدين أحمد بن مهذب الدولة بن سيف الدين عثمان. ونجم الدين أحمد هو الابن الثاني لمهذب الدولة بعد السيد إبراهيم الأعزب. إبراهيم الأعزب قد ولد في العام 546 هجرية حوالي العام 1152 ميلادية في أم عبيدة في واسط و توفي في العام 609 هجرية حوالي 1213 ميلادية ودفن في نفس قبة السيد أحمد الرفاعي أما السيد نجم الدين أحمد فقد توفي في العام 645 هجرية حوالي العام 1248 ميلادية و دفن في رواق الرفاعية أمام جامعهم في ام عبيدة أيضا.

و لم يعقب ابراهيم الأعزب إلا بنتا واحدة هي عائشة تزوجها ابن عمها ابراهيم ابن السيد نجم الدين أحمد. لقد اعقب نجم الدين أحمد ستة أولاد خمسة ذكور و فتاة واحدة و هم على الترتيب: السيد ابراهيم و السيد علي و السيد عبدالله و السيد صالح و السيد منصور أبا الصفا و السيدة ست النسب و السيد صالح.

و كما قلنا فان العائلة السبسية تنتسب إلى السيد نجم الدين أحمد بن السيد مذهب الدولة. فهي تنحدر من نسل ابنه السيد منصور أبي الصفا الذي أعقب علي الافضل الملقب بالتقي و الذي ينتسب إليه السيد محمد مهدي السبسي و العائلة السبسية.

يبدو لنا من دراسة تواريخ وفاة السيد نجم الدين أحمد المتوفي في العام 645 هجرية 1248 ميلادية أي قبل الغزو المغولي للعراق بحوالي أحد عشر عاما و تاريخ ميلاد السيد محمد مهدي السبسي 1305 ميلادية أي حوالي العام 704 هجرية أن العائلة الرفاعية المنحدرة من السيد نجم الدين أحمد قد غادرت العراق بعد وفاته بزمان قصير. فقد شكل الغزو المغولي للعراق و اضطراب الأوضاع السياسية و الدينية و الاقتصادية و العلمية دافعا لهذه الهجرة. لقد استمد السيد محمد مهدي السبسي لقبه السبسي من نزوله و دفنه في سبسية في حوران و لا نعلم

يقينا مكان ولادته لكن التقدير يقول بأنه قد ولد حوالي العام 1305 ميلادية أي 704 هجرية. إن هذه التواريخ تدلنا على أن العائلة الرفاعية المنحدرة من السيد نجم الدين أحمد قد غادرت العراق في النصف الثاني من القرن السابع الهجري بعد وفاته أي النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي. إننا لا نعرف بالضبط تاريخ هذا الانتقال من العراق نحو الشام لكننا ندرك تماما أن لقب السيد السبسي المأخوذ من سبسية حيث نزل و حيث دفن يدلنا على تواجد العائلة في الشام في بداية القرن الثامن الهجري وبداية القرن الرابع عشر الميلادي على أقل تقدير. إن المؤكد أن هجرة العوائل الرفاعية من العراق قد حدثت بعيد الغزو المغولي مثلهم مثل العائلات البارزة في العراق والعلماء وهو ما تؤكد كل المصادر التاريخية التي تحدثت عن أثر الغزو المغولي على هجرة العلماء والعائلات البارزة.

لا شك أنه عند دراسة النسب الواصل إلى السيد أحمد الرفاعي سيلفت نظرنا أن هذا النسب يصل إليه عن طريق بناته السيدة فاطمة والسيدة زينب. إن طريق هذا النسب يشبه طريق النسب الواصل إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. فالنسب الشريف الذي يصل إلى سيدنا

رسول الله يصل إليه عن طريق الحسن و الحسين ابني السيدة فاطمة الزهراء بنت سيدنا رسول الله. إن هذا التشابه الكبير يجعلنا نفكر كثيرا في دلالاته وربما في رمزيته. فربما أراد الله أن يوصل إلى السيد أحمد الرفاعي كما يوصل إلى رسولنا صلى الله عليه وسلم كرمزية لمكانة الرجل حفيد رسول الله وتأكيذا لدوره في إعادة إحياء أسس الدين بعد أن شهد عصره البعد عن الأسس و المبادئ الاسلامية فكانت دعوته إحياء لها و تأكيدا على أسسها. وربما يكون هذا التشابه أيضا إشارة إلى أن النسب يكون من الأم أيضا في تأكيد لما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن ابن أخت القوم منهم فقد روى أنس -رضي الله عنه- قال: دعا النبي صلى الله عليه وسلم - الأنصار، فقال: «هل فيكم أحد من غيركم» قالوا: لا، إلا ابن أخت لنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ابن أخت القوم منهم».

الطعن في النسب الرفاعي

لقد شكل النسب الرفاعي الحسيني مادة للطعن من قبل كثيرين خصوصا من غلاة الشيعة الذين لم يستسيغوا وجود عائلة حسينية كبيرة شافعية المذهب سنية العقيدة. فقد حاول كثيرون التشكيك فيه و ادعاء عدم وجود ما يؤكد أو نفهم ادعاء السيد أحمد الرفاعي لهذا

النسب. ينتسب السيد أحمد الرفاعي كما ذكرنا إلى موسى الكاظم بن جعفر الصادق وصولاً إلى الحسين بن علي رضي الله عنه وقد ورد أول إشارة إلى هذا النسب في القرن السابع الهجري في كتاب التذكرة في الأنساب المطهرة لابن مهنا العبيدي المتوفي في العام 681 هجرية حوالي العام 1283 ميلادية. لقد كتب ابن مهنا العبيدي كتابه في العام 657 هجرية حوالي العام 1259 ميلادية أي بعد الغزو المغولي للعراق مباشرة وهذه إشارة مهمة لسبب كتابة هذا الكتاب والغاية منه. فقد شكل الغزو المغولي للعراق كارثة علمية واجتماعية كبيرة على المنطقة و كان من نتائجها تفرق العوائل الكبيرة وتشتتها. فقد كان الخوف من ضياع نسب هذه العوائل دافعا مهما كما يظهر من تاريخ كتابة هذا الكتاب في توثيقها وحفظها. والملاحظ هنا أن تاريخ كتابة هذا الكتاب كان في زمن وجود أحفاد السيد أحمد الرفاعي وفي زمن أولادهم. فقد توفي السيد أحمد نجم الدين حوالي العام 645 هجرية حوالي 1248 ميلادية والسيد أحمد الرفاعي نفسه في العام 575 هجرية حوالي 1180 ميلادية . أي أن المدة الزمنية الفاصلة بين وفاة أحمد نجم الدين وتاريخ كتابة ابن مهنا العبيدي لكتابه لا تتجاوز الاثني عشر عاما. وهنا يمكن القول أن عملية جمع وتوثيق هذا الأنساب التي ذكرها العبيدي قد تمت طوال

سنوات سبقت كتابة كتابه مما يؤكد نظريا أنه قد أخذها من أحفاد السيد أحمد الرفاعي.

إن النسب الرفاعي و أمر توثيقه هو أمر قديم يرجع إلى عصر السيد أحمد الرفاعي نفسه لكنه قد ذكر و وثق في كتاب بعد وفاته و في حياة أحفاده خشية ضياع هذا النسب نتيجة الاضطرابات السياسية والاجتماعية التي حدثت أواخر العهد العباسي و في أثناء الغزو المغولي. و قد ذكر ابن الطقطقي المتوفى في العام 712 هجرية حوالي 1313 ميلادية النسب الرفاعي في كتابه "الأصيل في أنساب الطالبين" فقال عن نسب السيد الرفاعي "أن نسب أحمد الرفاعي ينتهي إلى الحسين هذا فأعلمه و أنكره البعض". و يشير ابن الطقطقي إلى شيوع هذا النسب و معرفته بينما قال باقتصار إنكاره على البعض. و ابن الطقطقي متوف كما ذكرنا في العام 712 هجرية حوالي 1313 ميلادية أي أنه قد كتب كتابه في عصر كان أحفاد السيد أحمد الرفاعي أحياء أو أن أولادهم كانوا أحياء ايضا. و هنا فقط نشير إلى أن تاريخ وفاة ابن الطقطقي قد تزامنت مع تاريخ ولادة السيد محمد مهدي السبسي الحفيد المباشر للسيد منصور أبي الصفا بن نجم الدين أحمد الحفيد المباشر للسيد أحمد الرفاعي. فالمدة الزمنية بين هؤلاء الأعلام قليلة و بالتالي فان هذ النسب كانوا

يعرفونه و يعرفه الناس المحيطين بهم و هو ما نقله ابن الطقطقي و أقر بمعرفته¹².

إن نسب السيد أحمد الرفاعي و العائلة الرفاعية ليس مثبتا فقط في كتب النسابة كما ذكرناها سابقا بل أيضا هو مثبت في المجتمع الذي ولد و نشأ و ترعرع فيه.

إن والد السيد أحمد الرفاعي هو علي بن أحمد الرفاعي و تزوج من أخت السيد منصور البطائحي. و يمكن أن يدلنا زواج السيد علي بن أحمد الرفاعي من أخت منصور البطائحي عن نسب السيد أحمد الرفاعي و اتصاله بالسيد موسى الكاظم بن جعفر الصادق. فالسيد منصور البطائحي صاحب الأثر الكبير في حياة السيد أحمد الرفاعي و عائلته كلها ينتسب من من ناحية الأم إلى الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري بينما من ناحية الأب يصل نسبه إلى الحسين رضي الله عنه. فكيف يزوج شريف منصور البطائحي علي بن أحمد الرفاعي إن لم يكن يعرف نسبه حكما و نسبه الشريف تحديدا؟ فكلمة أن السيد أحمد الرفاعي من بني رفاعي لا تستقيم. فلم يعرف العرب قبيلة كهذه بل هي عائلة تنسب لجد هو

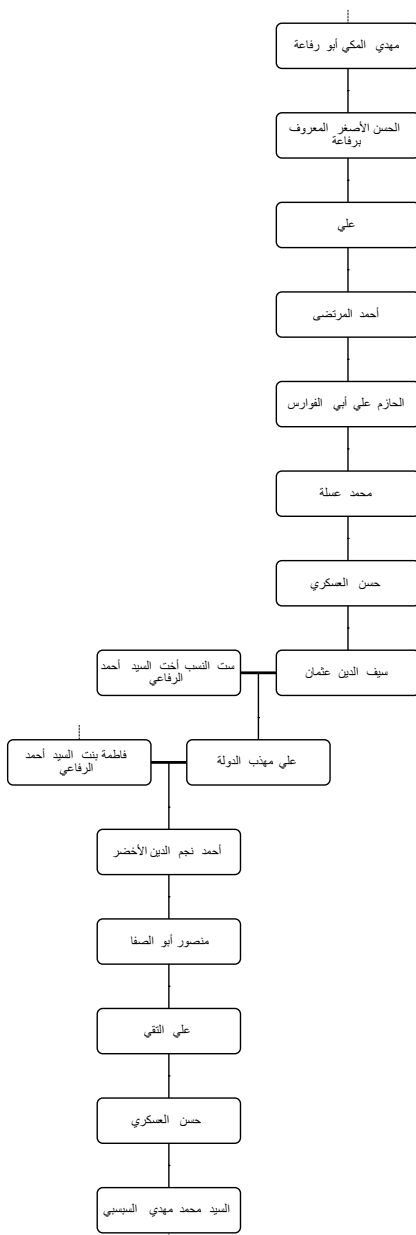
¹² حلبية، سحلول، النسب الرفاعي الشريف في القرنين السابع و الثامن الهجريين. ص31

رفاعة و كان المجتمع و منهم السيد منصور البطاخي الذي زوج والد السيد أحمد الرفاعي علي يعرف هذا النسب و يعرف تفاصيله. إن دليلا تاريخيا آخر يمكن له إثبات أن هذا النسب كان معروفا و متداولاً بين الناس و بين الحكام الذين عاصروا أحفاد السيد أحمد الرفاعي خصوصا السيد سليمان السبسي. فقد تملك السيد سليمان السبسي أقطاعات حوالي حماة جعلها وقفا لأحفاده بعد وفاته. لقد عاش السيد سليمان السبسي في العهد المملوكي و خصل على هذه الإقطاعات من الحكومة المملوكية التي غاش في عهدها. إن سياسة الدولة المملوكية في منح الإقطاعات تستند أساسا على منحها للقادة العسكريين أساسا إلا أنها كانت أيضا تمنح هذه الإقطاعات للأشراف و زعماء القبائل. إن منح السيد سليمان الرفاعي هذه الإقطاعات يدل بشكل واضح إلى أنهم كانوا يعرفون نسبه الشريف فهو لم يكن زعيما قريبا لينحوه هذه الإقطاعات و لم يكن أيضا قائدا عسكريا ليمنحه إياها.

إن كل ما سقناه سابقا يدلنا بشكل واضح لا لبس فيه إلى شيوع معرفة هذا النسب و معرفة المجتمع و الحكام به. بل إن حتى النسابة لم يتمكنوا من القفز عنه و عدم ذكره بل كل ما قام به غلاة الشيعة منهم كابن عنبه كان التشكيك به لا أكثر دون أن يقدم أي دليل على شكه هذا.

إن علينا أن ندرك أن كل ما ألف من كتب طوال التاريخ الاسلامي ألف تحت رعاية الحكام و وزراءهم. فقليلون هم من عملوا دون أن يحظوا بالرعاية من حاكم أو وزير أو تاجر كبير. و كانت كتبهم كلها مهمتها الرئيسية التوافق مع ما يريده الحاكم متجنبه غضبه أو سخطه. فلهذا كانت التراجم التي كانوا يضمنونها هذه الكتب تكتب لذكر رجالات الحكم أو العلماء المقربين منهم أو من يوافقوهم في سياستهم أو من كان لهم حظوة عندهم حتى بعد وفاتهم أو لمشاهير المصنفين الذين كانت كتبهم تشكل جزءا أصيلا مما يتبناه الحاكم من مذهب فقهي أو عقيدة دينية. لم يكن السيد أحمد الرفاعي من أولئك الناس الذين كان لهم الخطوة بل كان عالما يخاطب الناس العاديين محاولا اصلاح النفوس وإعادة احياء أسس الدين الأصلية التي بدأت تتدهور في زمانه وزمن من سبقه فكانت دعوته دعوة شعبية ككل الدعوات الصوفية المشهورة. الصوفية أساسا تدين شعبي تبتعد عن الحكم و دهاليزه و مؤامراته و فتنه، فلذلك نرى في كل ما كتب سواء في عهده أو بعده من قبل اصحاب التراجم لا يوفيه حقه بل كانوا يمرون على ذكره دون الاستفاضة في التعريف به و الترجمة لنسبه. إن هذا يجعلنا نفهم سبب قلة من كتبوا عن نسبه من أولئك الذين كان همهم الترجمة للسلطة و أهلها و علمائها.

ذلك بالتأكيـد لا ينفي نسبا حقيقيا موثقاً معروفاً للسيد أحمد الرفاعي و
لا يشكك فيه.



ولا يصل العبد إلى الله تعالى، حتى يقطع مفاوز الدنيا
وما فيها، من زهراتها ولذاتها، وراحاتها وشهواتها،
ويجاوز أودية الخلق، وما منهم، من جميل معاشرتهم
وثنائهم ومحمدتهم. وإن الله تعالى خلق جميع ذلك ابتلاء
لكل من أراد أن يصير مجرداً، حتى إن التفت إلى شيء
منها صار مفتضحاً في دعواه، وغرق في أودية الحسبان
والخسران فكم مستدرج بالنعيم، محجوب عن الخالق
غافل عن الصدق، جاهل بعرفان النفس يصبح ويمسي
على الحسبان، فيبدو له من ذي العرش ما لم يكن
يحتسب"

الإمام أحمد الرفاعي

السياسة

تفرق أحفاد السيد أحمد الرفاعي من واسط في العراق بعد فترة من وفاته. ولا نملك معطيات عن سبب تفرقهم لكن ما نعرفه أن الغزو المغولي للعراق جعل كثيرا من عائلاته البارزة و علمائه البارزين يخرجون منه و يتوزعون في الشام و مصر و قد ذكر الكثير في كتب التاريخ عن انتقال علماء العراق إلى خارجه نتيجة للغزو المغولي و قد يكون أحفاد السيد أحمد الرفاعي منهم حاملين معهم طريقته الصوفية الرفاعية فنشروها في الشام و مصر مكونين عائلات ما زالت تتوارث الإرث الرفاعي. كان من هؤلاء من عرفوا لاحقا بالسياسة الرفاعيين الحسينيين.

من هم السباسة و لماذا سموا بذلك؟

يعود نسب السباسة إلى السيد محمد مهدي السبسي بن حسن العسكري بن علي التقي بن منصور أبي الصفا بن أحمد نجم الدين الأخضر (ابن فاطمة بنت السيد أحمد الرفاعي) بن علي مذهب الدولة بن سيف الدين عثمان بن حسن العسكري بن محمد عسلة بن علي الحازم أحمد المرتضى بن علي بن الحسن الأصغر المعروف برفاعة بن مهدي المكي أبو رفاة بن أبي القاسم محمد بن الحسن القاسم المكنى بأبي موسى بن الحسين عبد الرحمن لقبه الرضي المحدث بن أحمد الصالح الأكبر بن موسى الثاني بن إبراهيم المرتضى بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين علي الأصغر بن الحسين بن علي بن أبي طالب وأم الحسين فاطمة الزهراء بنت الرسول محمد ﷺ بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان¹³

13 الكيلاني جمال، الصميدعي زياد، الإمام أحمد الرفاعي المصلح
المجدد، ص12.

وقد ذكر الصيادي في كتابه "الروض البسام في أشهر البطون القرشية في الشام" السياسة وقال عنهم¹⁴:

"وأما السيد علي الافضل ويقال له التقي ابن السيد منصور ابي الصفا ابن السيد نجم الدين احمد الذي تقدم ذكره فانه اعقب السيد حسناً ولقبه العسكري تبركا بالامام العسكري وهو اعقب السيد سليمان والسيد محمد المهدي نزيل قرية سبسبة من اعمال الشام السبسي الشهير فالسيد محمد المهدي السبسي أعقب السيد سليمان الكبير المدفون في بقعة الخصينية ويقال الخصيمية من اعمال سلمية والسيد محمد الغزالي السبسي المدفون بحماة الشام بحلة سوق الشجرة والسيد احمد والسيد علي بركة والسيد سليمان والسيد عيسى ولكل منهم ذرية صالحة منهم جماعة بمحس وحماه و بدمشق و حوران و بركاتهم معروفة ولهم اصول في العراق كثيرة ولكلهم ذرية في البطايح وبواسط والبصرة واعمالها اقول ومن هذه العائلة الكريمة آل السبسي المشهورون وهم عائلة مباركة منهم في الديار الحلبية والحوية جماعة معروفون مثل بني العبيسي وبني السبسي فبنو العبيسي هم ايضاً من السبسية الا ان جدهم الشيخ السيد محمد العبيسي صاحب المرقد المنور بحماة الذي جاء في اواخر القرن التاسع لما

¹⁴الصيادي، أبو الهدى.الروض البسام في أنساب أشهر البطون القرشية في الشام .

اشتهر بالولاية والمناقب العظيمة تغلبت شهرته على ذريته فانتسبوا اليه الا وهو السيد محمد العبيسي ابن السيد فضل ابن السيد محمد ابن السيد فضل ابن السيد احمد ابن السيد بدر ابن السيد بدروش ابن السيد يحيى ابن السيد سليمان السبسي ابن السيد حسن ابن السيد علي ابن السيد المهدي ابن السيد حسن العسكري ابن السيد علي التقي ابن السيد منصور ابني الصفا ابن القطب الاعظم السيد نجم الدين احمد الرفاعي" وقد ذكر الصيادي أيضا في كتابه تنوير الأبصار نسب الطريقة السبسية الى الطريقة الرفاعية فقال¹⁵:

"تنتهي الى الطريقة الرفاعية كل فروع السلسلة الصيادية و السبسية و الجندلية و النورية و العجلانية و الكيالية و القطنانية و الجبريتية و الواسطية و العزيزية و العلمية و الزينية"

وينسب السيد محمد مهدي السبسي الى قرية سبسية في حوران التي دفن فيها فغلبت شهرة المكان الذي دفن فيه على نسبه الرفاعي فعرف به. ولد السيد محمد مهدي السبسي حوالي العام 1300-1316 ميلادية أي حوالي العام 699-700 هجرية في العهد المملوكي أي بعد حوالي

¹⁵الصيادي, أبو الهدى.تنوير الأبصار في طبقات الرفاعية الأخيار.

ال45 من الغزو المغولي للعراق. لا نعرف بالضبط مكان ولادته و لا نملك معلومات عن ذلك لكننا نستطيع أن نقول أنه ولد في الشام ونشأ فيها من خلال معرفتنا بتفرق العائلة الرفاعية في الشام ومصر بعد الغزو المغولي للعراق. يشير إلى ذلك ابن بطوطة في كتاب رحلته و قد كان شاهدا على زيارة أحد أحفاد السيد أحمد الرفاعي الشيخ أحمد كوجك لقبره قادما من بلاد العجم مما يدل على هذا التفريق الذي حصل للعائلة الرفاعية خارج العراق قد حدث قبل ولادة السيد محمد مهدي السبسي خصوصا و أن رحلته قد بدأت حوالي العام 1325 و انتهى من كتابتها حوالي العام 1352 ميلادية. يقول ابن بطوطة¹⁶:

"ووصلنا في ظهر اليوم الثاني إلى الرواق وهو رباط عظيم فيه آلاف من الفقراء. وصادفنا به قدوم الشيخ أحمد كوجك حفيد ولي الله أبو العباس الرفاعي الذي قصدنا زيارته وقدم من موضع سكناه من بلاد الروم برسم زيارته قبر جده وإليه انتهت الشياخة بالرواق ولما انقضت صلاة العصر ضربت الطبول والدفوف وأخذ الفقراء في الرقص ثم صلوا المغرب وقدموا السمات وهو خبز الأرز والسمك واللبن والتمر فأكل الناس ثم صلوا العشاء الآخرة وأخذوا في الذكر والشيخ أحمد قاعد على سجادة جده المذكور ثم أخذوا في السماع وقد أعدوا أحمالاً من الحطب

¹⁶ ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار

فأججوها ناراً ودخلوا في وسطها يرقصون ومنهم من يتمرّغ فيها، ومنهم من يأكلها بفمه حتى أطفئوها جميعاً وهذا دأبهم. وهذه الطائفة الأحمدية مخصوصون بهذا، وفيهم من يأخذ الحية العظيمة فيعض بأسنانه على رأسها حتى يقطعه."

و قد نشأ السيد محمد مهدي السبسي في عائلة رفاعية من المرحج أنها لجأت إلى الشام بعد الغزو المغولي للعراق كما أسلفنا مثلها مثل كثير من العوائل البارزة فيه فسكنت الشام و حملت معها الإرث الرفاعي الصوفي ونشرته فيها. لمع نجم السيد محمد مهدي السبسي كشيخ صوفي حاملا إرث جده السيد أحمد الرفاعي فأصبح يشار إليه بالبنان كحامل للطريقة الصوفية الرفاعية وأصبح مقصدا للعلم و علما يشار إليه.

لقد كان قدوم العائلة الرفاعية الى الشام جزءا من النزوح الذي تم لعلماء العراق و بغداد بعد الغزو المغولي للعراق. فقد أثر هذا الغزو على الحركة العلمية والصوفية في العراق و قد أدى ذلك الى نزوح عدد كبير من العائلات العلمية الى الشام و مصر و غيرها. لقد اشتهر العراق و بغداد بالمدارس و المكتبات قبل الغزو المغولي فقد كانت غنية بعلمائها وأدبائها وفلاسفتها وشعرائها وعندما احتل المغول بقيادة هولاكو بغداد سنة 656 هجرية حوالي العام 1258 ميلادية؛ قاموا بقتل الناس وأسرهم ونهبهم وتعذيبهم بأنواع العذاب واستخراج الأموال منهم مدة أربعين

يوماً كما ذكر ابن الفوطي في الحوادث الجامعة. ولم يسلم من أهل بغداد إلا من اختفى في بئر، أو قنّاة. وقد خرب المغول الجوامع والمساجد والمشاهد ببغداد وقتل الخطباء والأئمة وتعطلت المساجد والمدارس وخربت معاهد العلم الأخرى كالزوايا مما يدل على أن الحياة العلمية توقفت تماماً ببغداد. لم ينحصر أثر احتلال بغداد في خسارة العدد الكبير من الكتب؛ ولكنها امتدت إلى البشر فأهلكت من رجال العلم عدداً كبيراً، يقدر بالآلاف وقد وقع عدد من أهل بغداد أسرى بيد المغول، وكان من بينهم العلماء، فقد ذكر ابن الفوطي: "أن المغول استباحوا بغداد أربعين يوماً قتلاً واسبساً" وتبدوا لنا كثرة عددهم من تعيين موظف خاص لهم يتولى شؤونهم وينظر في أمورهم ومن نجا منهم قرر الهجرة فراراً من المغول، للحفاظ على حياته فبحجّوا إلى مصر والشام وغيرهما من البقاع وربما كان منهم علماء الطريقة الصوفية الرفاعية والذين أحرقت زواياهم ومكتباتهم ومدارسهم.

توفي السيد محمد مهدي السبسي في سبسة من حوران حوالي العام 1350-1360 ميلادية في سبسة من أعمال حوران ودفن فيها و لقب بـدفين سبسة وقد اتخذ مكان دفنه نسباً له ولعائلة كبيرة عرفت من بعده بالعائلة السبسية الرفاعية التي انتشرت في بلاد الشام وجنوب تركيا. لقد كانت وفاة السيد محمد مهدي السبسي في فترة الطاعون الكبير

الذي انتشر في مصر و الشام و امتد لأوروبا و خلف وراءه ملايين القتلى. لقد بدأ هذا الطاعون بالانتشار بداية من العام 1348 ميلادية¹⁷ و لا نعرف تحديدا سبب وفاته في هذا السن الصغير نسبيا لكن تبقى عملية الإشارة إلى تزامن وفاته مع فترة انتشار الطاعون شيئا يمكن أن يجعلنا نفهم الأوضاع التي كانت قائمة في ذلك العصر و مدى تأثيرها على الناس. امتدت فترة الطاعون فترة طويلة جدا استمرت منذ منتصف القرن الرابع عشر حتى نهاية القرن الخامس عشر تقريبا حتى أن الدولة المملوكية كانت تعتبر خزانة للطاعون الذي كان يضربها كل عشر سنوات تقريبا¹⁸.

الإنتقال إلى حماة

لم يلبع نجم العائلة السبسية كما لمع عندما اتجهت الى حماة و جوارها و اتخذتها موطنًا و مسكنا و مستقرا. و يمكن من تتبع المصادر التاريخية

¹⁷ بلقاسم الطباي، الموت بمصر و الشام في العهد المملوكي، رسالة دكتوراه، جامعة تونس الأولى 1996م

¹⁸ بلقاسم الطباي، الموت بمصر و الشام في العهد المملوكي، رسالة دكتوراه، جامعة تونس الأولى 1996م

أن عائلة السيد محمد مهدي السبسي قد اتجهت بعد وفاته الى حماة و اطرافها حيث سكنت و لمع نجمها وأصبحت ذات شأن كبير. ويروي أبو الهدى الصيادي¹⁹ في كتابه الروض البسام في أشهر البطون القرشية في الشام أن محمد مهدي السبسي قد أعقب السيد سليمان الكبير المدفون في بقعة الخصينية ويقال الخصيمية من أعمال حماة والسيد محمد الغزالي السبسي المدفون بحماة الشام بمحلة سوق الشجرة والسيد احمد والسيد علي بركة والسيد سليمان والسيد عيسى . لكن المشجرات السبسية التاريخية²⁰ التي يحتفظ بها السياسة تقول بأن السيد محمد المهدي السبسي الرفاعي قد أعقب السيد محمد الغزالي والسيد سليمان الكبير دفين الخصيمية قرب بلدة السلمية من أعمال حماة. و تضيف المشجرات السبسية بأن السيد سليمان الكبير قد أعقب السيد محمد الغزالي السبسي دفين سوق الشجرة في حماة والسيد عيسى الذاكر والسيد سلمان والسيد سليمان أبوشلحة دفين الدجاجية قرب حماة والسيد أحمد والسيد علي بركة وهذا ما تعتمده شجرتنا العائلية التي تحتفظ بها.

19 الصيادي, أبو الهدى.الروض البسام في أنساب أشهر البطون القرشية

في الشام

20 الحلاق آل خزام الصيادي، حكم الدين، القلادة العسجدية في نسب

السادة الحسينية

وقد سكن السيد سليمان السبسي حوالي حماة حيث كان له من الأملاك والاقطاعات الكثير ودفن بعد وفاته في الخصيمية ولقب بـدفن الخصيمية. و الخصيمية هذه هي مرج مشهور تاريخيا في بادية الشام بمنطقة السلمية من محافظة حماة كان منزلا للبدو والجيوش المتجهة من وإلى حماة. شهدت هذه المنطقة معارك عدة ففي عام 344 هجرية حارب سيف الدولة الحمداني سكان المنطقة لعصيانهم وأمره. وفي عام 621 هجرية نزل بها الملك الأيوبي المعظم عيسى بن الملك العادل في طريقه إلى حماة لمحاصرة ابن أخيه الملك الناصر. وفي عام 626 هجرية نزلها الملك الكامل الأيوبي ملك مصر قاصدا حماة لمحاربة الملك الناصر قليج أرسلان . وفي عام 803 هجرية نزلها تيمورلنك قادما من حلب ومنها إلى حماة.

و قد اتخذ السباسبية كما أسلفنا حماة و محيطها موطناً لهم ابتداء من منتصف القرن الرابع عشر تقريبا و ظل نسلهم في هذه المنطقة طوال قرون مع تغيرات حصلت نتيجة تغير الأوضاع السياسية و الاقتصادية والعسكرية دفعت بعضهم الى الهجرة والمغادرة.

لقد توفي السيد محمد مهدي السبسي حوالي العام 1350-1360 و هي فترة الطاعون الكبير التي ضرب العالم كله في ذلك الوقت. وقد انتقل السيد سليمان السبسي بعد وفاته الى حماة لكن سبب هذا الانتقال

يبقى مجهولاً. إن تتبع الأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية قد تساعدنا في فهم سبب قرار الذهاب إلى حماة. لقد كان السيد سليمان السبسي من فئة الاشراف المعممين الذين تنطبق عليهم شروط منح الإقطاع كاستثناء من القاعدة الرئيسية التي كانت تحصر الإقطاع المملوكي في القادة العسكريين. لقد قامت السلطات المملوكية بمنح السيد سليمان السبسي إقطاعاً في حماة فانتقل مع عائلته السبسية إليها وتملك إقطاعاً ظل في حوزتهم لقرون رغم كل الاضطرابات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي حصلت.

كان وجود السياسة في حماة و جوارها نقطة تغير في مسيرتهم كلها. فقد تملك السياسة حوالي حماة أراضي و ممتلكات كثيرة ظلت تورث فيما بينهم و ما زال بعض أملاكهم قائماً حتى يومنا هذا في تلك المنطقة. فما زال آل البركاوي يملكون في حماة ومحيطها جزء من تلك الممتلكات لكننا لا نعرف إن كانت هي نفسها التي تم تملكها من السيد سليمان السبسي أم أنها بحكم الزمن قد تم تملكها بعد ذلك.

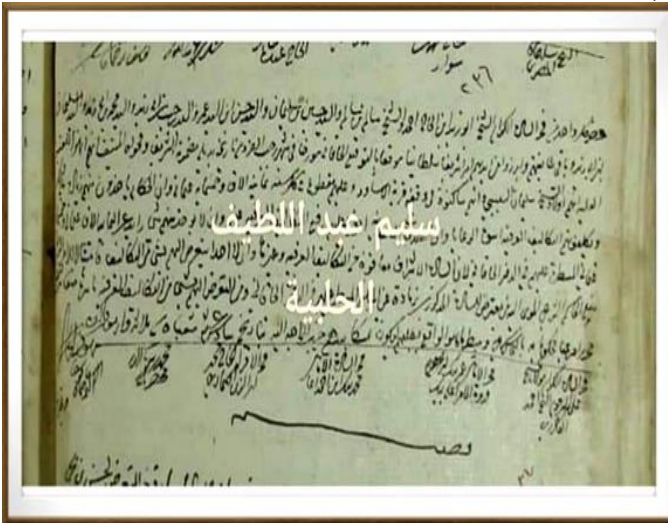
توفي السيد سليمان السبسي قرابة العام 1392 ميلادية ودفن في الخصيمية كما ذكرنا حوالي حماة حيث أملاكه و أولاده و أحفاده و ورث الطريقة الرفاعية السبسية الى أولاده التي أضحت تتناقل بين الأبناء و الأحفاد حتى يومنا هذا.

الوقف السبسي

أصبح السباسبة أحفاد السيد محمد مهدي السبسي و السيد سليمان السبسي أعلاما في منطقة حماة و جوارها و تملكوا الضيع و الأراضي الزراعية و تشير المصادر التاريخية الى غناهم و تملكهم لمساحات كبيرة من الأراضي. و تشير وثيقة عثمانية تعود الى العام 1043 هجرية حوالي 1633 ميلادية²¹ تبين قيام أحفاد السيد سليمان السبسي بالاحتجاج على رفع الرسوم العرفية على وقف جدهم سليمان السبسي و تؤكد الوثيقة "قيام عدد من نحر السادة الكرام -هكذا خاطبتهم الوثيقة- أحفاد السيد سليمان السبسي الكبير القاطنين في قرية الأساور التي كانت ملكا خاصا له وهي "مكان دفن جدنا السيد سليمان السبسي الكبير سنة 792 هجرية حوالي 1390 ميلادية والتي أوقفها بعد وفاته على أعقابها وفقا ذريا خاصا بتظلم لدى المحكمة في حماة من زيادة الرسوم العرفية عليهم من قبل الولاة و أبرزوا من يدهم أمرا شريفا سلطانيا مذيلا بالتوقيع الخاقاني بأنهم من ذرية السيد سليمان السبسي

²¹ حلبية. (18 March, 2022). وثنائق السادة السبسية الرفاعية
الإشراف عام 959. موقع حلبية. <https://halabieh.com/>السادة-
السبسية-الرفاعية-الإشراف/

وأنهم يسكنون في وقفه وهي قرية الأساور وأنهم معفيون من تلك الرسوم بأمر من الصدقات السلطانية التي أنعمت عليهم برفع التكاليف العرفية عنهم لأن السادة الأشراف معافون من تلك التكاليف والرسوم وامتثالا للأوامر السلطانية فإن الحاكم الشرعي منع أن يتعرض لهم أحد بشيء من التكاليف العرفية... وذلك بتاريخ سنة 1043 هجري²².



وثيقة 1 وثيقة أملاك السيد سليمان السبسي. الوثيقة الثانية من السجل 37،

الصفحة رقم 126 القضية رقم 236

²² حلبية (18 March, 2022). وثائق السادة السبسية الرفاعية
الإشراف عام 959. موقع حلبية. <https://halabieh.com/> السادة-
السبسية-الرفاعية-الإشراف/

وتشير وثيقة عثمانية أخرى²³ مؤرخة في العام 959 هجرية حوالي العام 1552 أي قبل 482 سنة "يثبت من مضمونها أن جدنا السيد سليمان السبسي الكبير ابن محمد مهدي السبسي كانت له أملاك واسعة في منطقة سلمية التابعة لحماة وأن متولي الوقف آنذاك قام بتأجير ثلاثة بساتين من وقف السيد الشيخ سليمان السبسي الكبير لشخص اسمه إبراهيم بن محمد الرئيس"



وثيقة 2 وثيقة أوقاف السيد سليمان السبسي. السجل السابع، الصفحة 374
القضية رقم 1292

²³ حلبي. (18 March, 2022). وثائق السادة السبسية الرفاعية
الإشراف عام 959. موقع حلبي. <https://halabieh.com/> السادة-
السبسية-الرفاعية-الإشراف/

إن كلا الوثيقتين المشار إليهما أعلاه تثبت ما ذهبنا إليه مقدما عن الأملاك الواسعة التي كانت للسيد سليمان السبسي الكبير والتي أورثها إلى أولاده وأحفاده من بعده وقف ذري فيهم وفي أعقابهم وتوضح هذه الوثائق طبيعة حياتهم وتفاعلهم مع السلطات المحلية لتحصيل حقوقهم. فقد كان السياسة جزءا من مجتمعهم متفاعلين معه و مستخدمين أدوات عصرهم (المحكمة) للوصول إلى حقهم.

إن قصة الأملاك التي تركها السيد سليمان السبسي بعد وفاته تحكي قصة الإقطاع في العصر المملوكي بشكل واضح. كان الإقطاع في العصر المملوكي يختلف عن الإقطاع المألوف في العصور التي سبقتها وحتى في العصور التي تلتها. فالإقطاع في العصر المملوكي كان أساسا إقطاعا عسكريا يعطي للأمراء والقواد بمختلف رتبهم ويتفاوت حجمه بتفاوت رتب المقطع. لقد كان المماليك يعتبرون رجال القبائل من العرب و الأكراد و التركان الداخلين في خدمة الدولة و طاعتها قادة عسكريين تمنح لهم الإقطاعات مثلهم مثل الأمراء و القادة العسكريين الآخرين. فقد كان هؤلاء يقومون بحراسة ثغور الدولة و يطلق عليهم أرباب الإدراك أو المسافرين. لقد كانت مهمة هؤلاء الرئيسية حماية الثغور و طرق الحج والتجارة.

كان هناك فئة أخرى كان المماليك يقطعونها أيضا و هم العلماء المعممين من الأشراف و النقباء و السادة و كان يطلق عليهم أرباب القلم. و يبدو هنا أن السيد سليمان السبسي قد منح هذه الأملاك تبعا للتصنيف الثالث و هو تصنيف أرباب القلم الذي يضم الأشراف. و يمكننا هنا أن نتساءل: هل انتقل السيد سليمان السبسي مع العائلة السبسية بعد وفاة السيد محمد مهدي السبسي و دفنه في سبسية إلى حوالي حماة بسبب منحه هذا الإقطاع؟ إننا بشكل عام لا نعرف إن كان هذا السبب الوحيد و الرئيسي الذي دفعه للانتقال لكننا يمكن أن نخمن أنه كان سببا قويا لانتقاله خصوصا و أن العائلة السبسية كانت جديدة على الشام و لم تكن قد وطدت جذورها فيها و كان من السهل عليها الانتقال إلى مكان جديد تحصل فيه على إقطاع و تبدأ ببناء جذورها في الشام.

إن إنتقال السيد سليمان السبسي إلى حوالي حماة جاء في فترة شديدة الاضطراب في التاريخ المملوكي. لقد شهد القرن الرابع عشر وتحديدًا منتصفه انتشار الطاعون في الشام و مصر و العالم كله و أدى عمليا إلى موت عشرات الآلاف من السكان و حدوث تدهور ديمغرافي كبير في بلاد الشام و مصر ساهم لاحقا في حدوث تدهور اقتصادي شكل سببا رئيسيا في سقوط الدولة المملوكية لاحقا.

لكن المشكلة التي كانت تواجه السيد سليمان السبسي هو طبيعة الإقطاع الذي كانت تمنحه الدولة المملوكية. فالإقطاع المملوكي لم يكن إقطاعاً وراثياً. لقد كان الإقطاع المملوكي إقطاعاً مرتبطاً بالوظيفة و متى ما زال صاحب الوظيفة رجع الإقطاع الى الدولة التي كانت تعطيه لموظف آخر. هذا النوع من الإقطاع لم يكن من قبل معروفاً ولم يكن يشبه نظام الإقطاع الذي سبقه. فقد كانت القاعدة قبل المماليك أن الإقطاع يبقى مع عائلة الشخص بعد وفاته و يورث بينهم جيلاً بعد جيل، لكن المماليك جعلوا من الإقطاع عموماً ملكاً للدولة يعود إليها متى ما زالت وظيفة الشخص أو مات. كان هناك بالطبع استثناءات لكن هذه الاستثناءات لم تكن تخل بالقاعدة. فحتى إذا ورث الإقطاع لورثة المتوفى من المقطعين فقد كان يتم ذلك بإذن السلطان و موافقته و ليس بقانون الإقطاع العام الذي كان ينظم الإقطاع و يحدد قواعده. ورغم ذلك فقد كان هناك طرق للالتفاف على قانون الإقطاع المملوكي و قواعده بدأت تظهر في العصور المملوكية المتأخرة تحديداً. لقد لجأ المقطعون الى جعل إقطاعيتهم وفقاً لأهلها أو خيرياً أو ذرياً (لم يتم التفريق بين هذه المصطلحات الثلاثة في ذلك العصر) بحيث يقوم المقطع بجعل الإقطاع وفقاً و يعين عليه ورثته فيستفيدون منه و يقومون بصيانتهم و ينتقل بينهم جيلاً بعد الآخر.

لقد شكلت الأوقاف عماد النظام الاقتصادي في العصر المملوكي حتى أن الإنتاج الاقتصادي الواسع الذي كان آنذاك كان يعتمد أساسا على الأوقاف بشكل رئيسي. فقد لجأ كبار الأغنياء في العهد المملوكي إلى إيقاف ممتلكاتهم الضخمة على مختلف وجوه البر والخير حماية لها أساسا من المصادرة. لقد كان السبب الأساسي لاندفاع الأثرياء لوقف ممتلكاتهم هو الحماية من مصادرتها. فلقد كان الأثرياء أساسا يعتمدون في ثرواتهم على ما تمنحه السلطة المملوكية لهم من إقطاعات لكن هذه الإقطاعات لم تكن تتحول إلى أملاك خاصة بل تنتقل إلى ملكية الدولة بمجرد موت المقطع. لقد كان إيقاف هذه الأملاك من قبل الأثرياء حماية لها من عودتها إلى أملاك الدولة بعد وفاة المقطع. فقد كان المقطع يضمن بذلك أن تدر له هذه الأوقاف دخلا له ولذريته. لقد كان الثري يقوم بوقف ما يمتلكه ويعين على هذا الوقف هو و ذريته من بعده كمسؤولين عن هذا الوقف و كمسؤولين على إنفاق عائداته في وجوه الخير المختلفة²⁴. لقد كان ذلك نوعا من صيانة الأملاك و منعها من

²⁴بولياك، الاقطاعية في مصر و سورية و فلسطين و لبنان، دار المكشوف، الطبعة الأولى 1948

²⁵ بروكلمان، كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة 1968

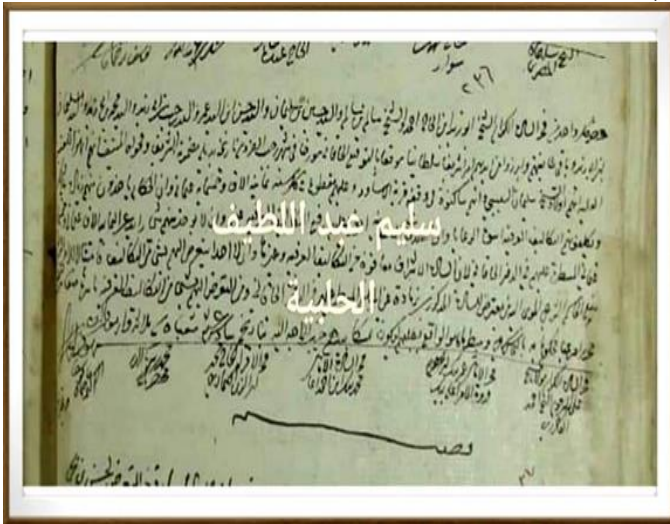
مصادرتها و ضمانة لاستمرار استفادة ذريتهم منها بعد وفاته. ويبدو أن تلك العملية كانت أسلوبا شائعا في ذلك الوقت.

إننا نستطيع من خلال فهمنا لطبيعة الإقطاع المملوكي فهم نشأة الإقطاع السبسي و تلك الأملاك الواسعة التي حصل عليها السيد سليمان السبسي حوالي حماة و لاحقا الوقف السبسي. إن الواضح أن السيد سليمان السبسي قد منح إقطاعا حوالي حماة من قبل السلطات المملوكية و قد كان ذلك سببا في انتقاله من سبسة الى حماة. لقد أقطع السيد سليمان السبسي الضياع و الأراضي في تلك المنطقة كونه من المعممين الأشراف و هي إحدى الرتب التي بسببها يستثنى المقطع من كونه عسكريا لينال الإقطاعات. لكن العقبة التي كانت تواجهه هي في مصير هذا الإقطاع بعد وفاته. لقد كان الحل الوحيد الذي كان متاحا لحماية الأملاك من المصادرة بعد وفاة السيد سليمان السبسي هو في جعل ممتلكاته وقفا في ذريته جيلا بعد آخر. وثبتت الوثائق السبسية أن السيد سليمان السبسي قيام السيد سليمان السبسي بإيقاف ممتلكاته وقفا خيريا لتوارثه ذريته جيلا بعد آخر و تنفيذ منها. و نستدل على ذلك من الوثيقتين اللتين أوردناهما سابقا و الأولى تتعلق باحتجاج على فرض الرسوم العرفية على الوقف السبسي المعفى أساسا من هذه الرسوم بموجب أمر سلطاني بينما تشير الوثيقة الثانية إلى أن متولي الوقف قد

أجر ثلاثة بساتين الى شخص. ولا بأس هنا من إعادة ذكر الوثائق ومضمونها. فتشير الوثيقة الأولى التي تعود إلى العام 1043 هجرية حوالي 1633 ميلادية²⁶ تبين قيام أحفاد السيد سليمان السبسي بالاحتجاج على رفع الرسوم العرفية على وقف جدهم سليمان السبسي و تؤكد الوثيقة "قيام عدد من نفر السادة الكرام -هكذا خاطبتهم الوثيقة- أحفاد السيد سليمان السبسي الكبير القاطنين في قرية الأساور التي كانت ملكا خاصا له وهي "مكان دفن جدنا السيد سليمان السبسي الكبير سنة 792 هجرية حوالي 1390 ميلادية والتي أوقفها بعد وفاته على أعقابها وفقا ذريا خاصا بتظلم لدى المحكمة في حماة من زيادة الرسوم العرفية عليهم من قبل الولاة و أبرزوا من يدهم أمرا شريفا سلطانيا مذيلا بالتوقيع الخاقاني بأنهم من ذرية السيد سليمان السبسي وأنهم يسكنون في وقفه وهي قرية الأساور وأنهم معفيون من تلك الرسوم بأمر من الصدقات السلطانية التي أنعمت عليهم برفع التكاليف العرفية عنهم لأن السادة الأشراف معافون من تلك التكاليف والرسوم

²⁶ حلبية. (18 March, 2022). وثائق السادة السبسية الرفاعية
الإشراف عام 959. موقع حلبية. <https://halabieh.com/السادة-السبسية-الرفاعية-الإشراف/>

و امثالاً للأوامر السلطانية فإن الحاكم الشرعي منع أن يتعرض لهم أحد بشيء من التكاليف العرفية... وذلك بتاريخ سنة 1043 هجري²⁷.



وثيقة 1 وثيقة أملاك السيد سليمان السبسي. الوثيقة الثانية من السجل 37،
الصفحة رقم 126 القضية رقم 236

وتشير وثيقة عثمانية أخرى²⁸ مؤرخة في العام 959 هجرية حوالي العام 1552 أي قبل 482 سنة "يثبت من مضمونها أن جدنا السيد سليمان السبسي الكبير ابن محمد مهدي السبسي كانت له أملاك واسعة في

²⁷ حلبية. (18 March, 2022). وثائق السادة السبسية الرفاعية
الإشراف عام 959. موقع حلبية. <https://halabieh.com>/السادة-
السبسية-الرفاعية-الإشراف/
²⁸ حلبية. (18 March, 2022). وثائق السادة السبسية الرفاعية
الإشراف عام 959. موقع حلبية. <https://halabieh.com>/السادة-
السبسية-الرفاعية-الإشراف/

منطقة سلمية التابعة لحماة وان متولي الوقف آنذاك قام بتأجير ثلاثة بساتين من وقف السيد الشيخ سليمان السبسي الكبير لشخص اسمه إبراهيم بن محمد الرئيس"

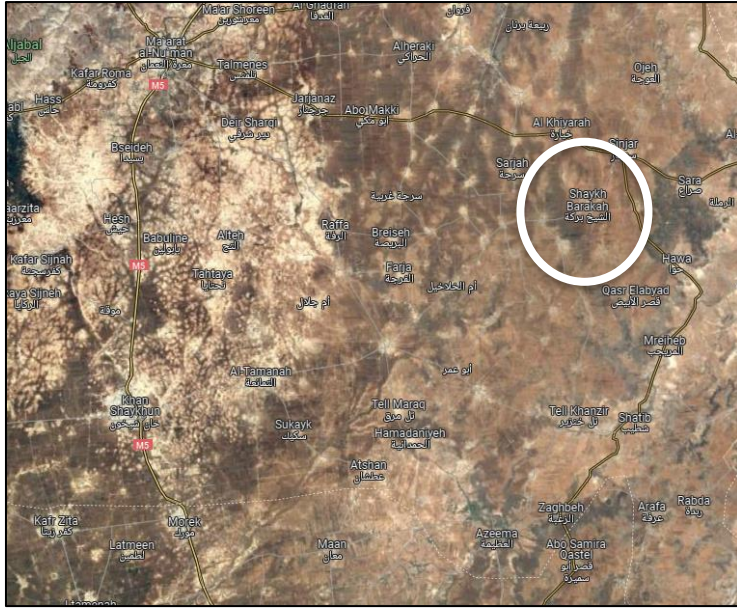
إن كلا الوثيقتين المشار إليهما أعلاه ثبت حصول السيد سليمان السبسي على اقطاعات واسعة في منطقة حماة. كما ثبت الوثيقتين قيام السيد سليمان السبسي بإيقاف هذه الممتلكات وقفا خيريا في ذريته بعد وفاته لكنها لا تذكر السبب. لكن السبب الذي يمكن الجزم به هو حماية هذه الإقطاعات من المصادرة بعد وفاته فلجأ إلى الممارسة المتعارف عليها في ذلك الوقت وهي إيقاف ممتلكاته في ذريته من بعده وهو ما هو واضح في الوثيقتين. ويمكننا أن نستخلص من الوثيقتين المعروضتين عدة حقائق تاريخية تسهل فهمنا لما حدث في تلك العصور. فالوثيقتين تشيران الى أوقاف للعباسية ورثوها عن جدهم سليمان السبسي كما تشير الوثيقتين إلى مكان دفن السيد سليمان السبسي و تحدده في قرية الأساور في حماة. كما توضح الوثيقتين أن السادة الأشراف معفيون من الضرائب على ممتلكاتهم وهو أمر استمر في العهد العثماني، فكانت أملاك الأشراف تعفى من الضرائب كما تعفى أملاكهم أيضا من المصادرة والإستقطاع. فلذلك قد نرى ضياعا كثيرة في يد إقطاعي واحد ونرى قرية تتوسط هذه الاقطاعات ويمتلكها الأشراف، وتكون

خارج سلطة الإقطاع مستقلة بملكيتها لهم. وربما هذا ما كان في دير جمال في حلب. فكل الضياع التي تحيط بها يمتلكها اقطاعيون إلا دير جمال يمتلكها سكانها المنحدرين من سلالة الدمانحة السياسية الأشراف. كما تشير الوثيقتين الى حقيقة تاريخية لا يمكن دحضها وهي أن السيد سليمان السبسي قد أوقف إقطاعه كوقف خيرى ذري تستفيد منه ذريته من بعده و هذا طبعا كان نتيجة رغبته في تجنب ممتلكاته المصادرة بعد وفاته. عموما فإن كل حقيقة من هذه الحقائق التي أشرنا إليها تصلح موضوع بحث قائم بذاته لكن السياق العام يبقى مفهوما و معروفا وواضحا و أي تفصيل فيه هو من قبيل الاستزادة.

السيد علي بركة السبسي

ينسب السيد علي بركة إلى السيد سليمان السبسي الكبير الذي دفن في الخصيمية قرب حماة. ولا نعرف كثيرا عن السيد علي بركة لكننا نعرف تقديريا أنه قد ولد حوالي العام 1360 ميلادية و توفي حوالي العام 1405 ميلادية و دفن في قرية الشيخ بركة شرقي سنجار (شرق معرة النعمان) و على اسمه سميت تلك القرية. و قد كان السيد علي بركة وريثا للطريقة السبسية الرفاعية التي أسسها السيد محمد مهدي السبسي

و من بعده السيد سليمان السبسي. و تتناقل عائلتنا سيرة السيد علي بركة كأحد الأولياء الصالحين الذين تركوا أثرا كبيرا في حياة هذه العائلة. و كما أسلفنا فإن العائلة السبسية قد أقطعت مساحات كبيرة حوالي حماة و عاشت فيها. كان السيد علي بركة ضمن هذه العائلة السبسية التي سكنت في هذا الإقطاع الكبير الذي منح لهم و قد دفن في قرية سميت على اسمه من ضمن ممتلكاتهم وهي القرية المعروفة اليوم بقرية الشيخ بركة شرقي معرة النعمان و قد كانت سابقا تتبع حماة. و ينسب الدمالحة للسيد علي بركة كما ينسب إليه البركاوية (و هو اسم للنسب إلى السيد علي بركة) الموجودين في حماة حتى يومنا هذا و المعروفين بغناهم ومكاتهم. منذ الطفولة كانت تروى على مسامعنا قصص مليئة بالتفاصيل التي تحكي عن عائلتنا و رجالها و أصولها. كانت جدتي أمون أم أبي بارعة في سرد قصص لم تكن تعرف تاريخها وأصلها لكنها كانت تقول لنا بأنها متناقلة من جيل إلى آخر، تعطي تفاصيل عن عائلتنا و أصولها ربما لم تكن جدتي نفسها تدركها.



خريطة 2 القرية التي دفن فيها السيد علي بركة شرقي معرة النعمان عند سنجار و
تعرف بقرية الشيخ بركة

لقد تعرفت على السيد علي بركة من خلال قصة رواها لي أبي عن
استنجد جدي بجدها الشيخ بركة كلما كانت تمر بضائقة. وقد روى لي
أنها كانت كلما ضاق بها الحال تستنجد بجدها الشيخ بركة قائلة: يا جدي
يا شيخ بركة.



الصورة 2 مرقد الشيخ علي بركة في قرية الشيخ بركة شرقي معرة النعمان. الصورة
من العام 2018

لم تكن جدتي تعرف عن الشيخ بركة أكثر من كونه أحد أجدادها و لم تكن قد اطلعت على شجرة العائلة من قبل. كانت الروايات الشفهية المتواترة هي التي أوصلت هذا الاسم لها و هي من جعلتها تقرن الاسم بالقدرة على المدد في وقت الحاجة و هو إرث صوفي لم تكن تعرف عنه أي شيء. فلم تكن جدتي تعرف كثيرا عن الطريقة الرفاعية التي كانت

نتوارثها العائلة أبا عن جد. كانت تعرف فقط عن بركات الزاوية و الولي المدفون مقابل بيت أهلها و الذكر الذي يقام في الأعياد والموالد. كانت تعرف فقط القشرة الظاهرة دون الجوهر و المعنى و الخلفية التي تقف وراء الزاوية و الذكر فيها و في الجامع و غيرها من طقوس الصوفية التي كانت تراها.

في التدقيق في شجرة العائلة نجد الشيخ علي بركة علامة بارزة فيها، فهو جد الدمانحة الكبير و وريث والده الشيخ الصوفي سليمان السبسي الكبير. و للمفارقة هنا و لا أعرف إن كان الأمر مقصودا أم صدفة، سمي أبي سليمان على إسم جدنا الكبير سليمان السبسي.

كان أبي رحمه الله يستعين بمدد جده الشيخ بركة كما كانت تفعل جدتي تماما. كان أبي يذكره كثيرا و يدلل على بركاته و وعونه له شخصيا بحوادث كثيرة. حكى لي مرة أنه كان في سفر مع صديقه و قطع بهم الطريق بين جبلة و بانياس. كان رفيق سفره متدينا و صوفيا. طلب أبي من صديقه أن يستعين بأحد أجداده ليعينه فلم يجد صديقه من يستعين به منهم دلالة على عدم وجود شيخ صوفي معتبر بينهم. فقال له أبي بأنه سيستعين بجده الشيخ بركة و فعلا فعل.

كانت الدنيا ليلا و المطر ينهمر بغزارة غير مألوفة. فجأة ظهرت لهم سيارة و توقفت لتقلهم. كان السائق ضابطا برتبة عقيد مع زوجته

فساعدتهم و نقلهم إلى بانياس. كان أبي كلها التقى بصديقه هذا يذكره بالقصة ويفتخر أمامه بجده الذي أنقذه.

الشيخ بركة أورثنا الطريقة الرفاعية

توارث أفراد العائلة الطريقة الصوفية الرفاعية عن جدهم المباشر السيد علي بركة بن سليمان السبسي الكبير أبا عن جد. لقد عرفت العائلة بنسبها السبسي أينما ذهبت و أينما حلت. و بعد قدوم العائلة، بغناها و جاهها إلى دير جمال، أنشؤوا زاوية صوفية لتحافظ على الطريقة قائمة و متوارثة من جيل إلى آخر، فكانت لهم زاوية (تهدمت الآن) في دير جمال. و قد قام أحد فروع عائلتنا بتوارثها و توارث المشيخة أبا عن جد. كانت المرة الأولى التي رأيت فيها مشهدا حيا لها كان في استقبال خال أبي القادم من الحج. يومها خرجت "النوبة" بكامل أناقتها و أعلامها الخضراء لاستقباله و على رأسها الشيخ عتمان و هو الوارث لمشيخة الطريقة عن أبيه و جده (لم يورث الشيخ عتمان أولاده المشيخة و تهدمت الزاوية بعد وفاته بقليل). يومها لم أفهم ما يدور لكن المشهد ظل لا يفارقني حتى بدأت أقرأ و أفهم عن التراث الرفاعي المتوارث في العائلة.

أحدهم أخبرني بولي مدفون مقابل بيت جد أبي حج بكري حميدو كان يسهر خادم على خدمة قبره و ما زال القبر موجودا حتى اليوم و تضرر أخيرا بعد زلزال شباط فبراير 2023. صحيح أنني لم أعرف هويته لكن الأكيد أنه أحد شيوخ الطريقة و أحد أجدادنا الذين طوى الجهل و قلة التدوين ذكرهم و بقي أثر قبرهم دالا عليهم (وصلت إلى استنتاج أن هذا الشيخ اسمه الشيخ عبدالله و هو أخ حميدو و الواضح أنه كان وارث المشيخة و يبدو أنه قد توفي دون أن يتزوج و يعقب أولادا و تعرف المنطقة بالشيخ عبدالله فعندما يقول الناس عن مكان ما قربه يقولون إنه بعد عوجة الشيخ عبدالله فالمكان معروف بالشيخ عبدالله و واقع على تقاطع طريقين).

علي بركة و سليمان السبسي

ذكر الصيادي في كتابه الروض البسام في أشهر البطون القرشية في الشام²⁹ أن السيد محمد مهدي السبسي قد أعقب السيد سليمان الكبير المدفون في بقعة الخصينية ويقال الخصيمية من أعمال حماة والسيد محمد الغزالي السبسي المدفون بحماة الشام بحلة سوق الشجرة والسيد احمد

²⁹ الصيادي, أبو الهدى.الروض البسام في أنساب أشهر البطون القرشية في الشام

والسيد علي بركة و السيد سليمان و السيد عيسى و في هذا اشارة إلى أن السيد علي بركة هو ابن مباشر للسيد محمد مهدي السبسي. إلا أن المشجرات السبسية التاريخية³⁰ و حتى ما نمتلكه من شجرة قديمة تؤكد على أن السيد علي بركة هو ابن للسيد سليمان السبسي و حفيد السيد محمد مهدي السبسي. و تفصل هذه المشجرات بأن السيد محمد المهدي السبسي الرفاعي قد أعقب السيد محمد الغزالي و السيد سليمان الكبير دفين الخصيمية قرب بلدة السلمية من أعمال حماة و تضيف بأن السيد سليمان الكبير قد أعقب السيد محمد الغزالي السبسي دفين سوق الشجرة في حماة و السيد عيسى الذاكر و السيد سلمان و السيد سليمان أبو شلحة دفين الدجاجة قرب حماة و السيد أحمد و السيد علي بركة. إن المشجرات السبسية تؤكد أن السيد علي بركة هو ابن مباشر للسيد سليمان السبسي خلافا لما ذكره الصيادي في كتابه الروض البسام و بالطبع فإن المشجرات التاريخية التي يمتلكها السباسة هي المرجع الأكثر دقة في الفصل في هذا الاختلاف بين رواية الصيادي و الرواية السبسية. و هنا لا بد أن نشير إلى أن كل المصادر التي نقلت تاريخ السباسة و قصصهم و حكاياهم كانت إما من مشجراتهم التاريخية التي نقلت

30 الحلاق آل خزام الصيادي، حكم الدين، القلادة العسجدية في نسب السادة الحسينية

أصولهم و تاريخهم أو من الوثائق الحكومية التي حفظت و وصلتنا و هي في جلها وثائق عثمانية وثقت وجودهم و نفوذهم خصوصا تلك التي أوردناها سابقا عما كان لهم من إقطاعات حوالي حماة. و بالتالي تصبح رواية السياسة عن كون السيد علي بركة ابن للسيد سليمان السبسي هي الرواية الأكثر دقة كونها أتت مباشرة من المصادر السبسية الأصلية و هي مشجراتهم العائلية التاريخية القديمة التي ما زال بعضهم يحتفظون بها حتى يومنا هذا.

بعد معركة اللاوند

سكن السياسة حماة و محيطها منذ منتصف القرن الرابع عشر تقريبا. فقد اتجهوا بعد وفاة السيد محمد مهدي السبسي إلى حماة و محيطها و اتخذوها موطناً لهم حتى أنهم تملكوا الضياع و الأراضي الزراعية فيها. لقد أوقف السيد سليمان السبسي الأملاك التي كانت له في حماة و قفا ذريا لأبنائه و أحفاده من بعده كي يستفيدوا منها بعد وفاته. لقد أثبتت الوثائق العثمانية ذلك كما أوردنا ذلك سالفاً. و الوقف الذري هو حبس الأصل و تسبيل المنفعة، على ذرية الواقف و نسله و أولادهم، أو على شخص معين، أو ذريته، أو عليهما معاً، أو على أشخاص معينين في بداية الأمر، ثم على جهة بر لا تنقطع.

لقد ساعد الوقف الذي حبسه السيد سليمان السبسي عليه و على ذريته من بعده على استقرار السباسة في موطنهم حوالي حماة لفترة طويلة ابتداء من منتصف القرن الرابع عشر حتى جاءت نهاية القرن السادس. لقد كانت نهاية القرن السادس عشر الميلادية محطة مهمة في تاريخ السباسة نتج عنها تغيرات كثيرة حدثت معهم جعلت جزءا منهم يغادر حماة و محيطها و ينزح شمالا.

يتداول السباسة و الدمانحة خصوصا و هم فرع من السباسة عرفوا بهذا الاسم في نهاية القرن السادس عشر قصة معركة حدثت معهم أدت إلى نزوح الدمانحة شمالا مغادرين أرض أجدادهم بعد استقرارهم فيها قرابة القرنين ونصف. لقد وقعت في نهاية القرن السادس عشر تقريبا معركة بين السباسة و من حالفهم من أولاد عمومهم الذين كانوا يعيشون بالقرب منهم و بين عسكر عثماني أو الوالي العثماني في حماة عرفت بمعركة اللواند أو كما تعرف في سيرة الدمانحة الشعبية بالبلشة. نزح نتيجة هذه المعركة جزء منهم عرف بالدمانحة شمالا هربا من بطش السلطة المحلية التي كانت قائمة آنذاك و في هذا تفصيل مذكور في فصل الدمانحة.

بقي جزء من السباسة في حماة و محيطها بعد معركة اللاوند و قد استعادوا بمرور الزمن و تغير الظروف السياسية جزءا من أملاكهم كما

في الوثائق التي أوردناها سابقا وما زال جزء كبير منهم يعيشون في حماة و محيطها حتى اليوم.

إن الأمر المثير للدهشة هو تقارب مواطن الرفاعية في حماة و حوالها. فكما أوردنا بأن السياسة كان يقطنون في حماة و حوالها و عندما نتبع الأفرع الرفاعية التي ذكرها الصيادي نرى أن الكيالية كانوا يتخذون من ترنة القرية من حماة موطننا لهم كما أن الجندلية كانوا يتخذون من حمص و حوالها موطننا لهم و هي القرية من حماة. كما أن الصيادية أيضا كانوا يعيشون قربهم بين معرة النعمان و جسر الشغور حتى أن قرية قرية من مكان دفن السيد علي بركة في قرية الشيخ بركة شرقي المعرة تعرف بقرية الصيادي.

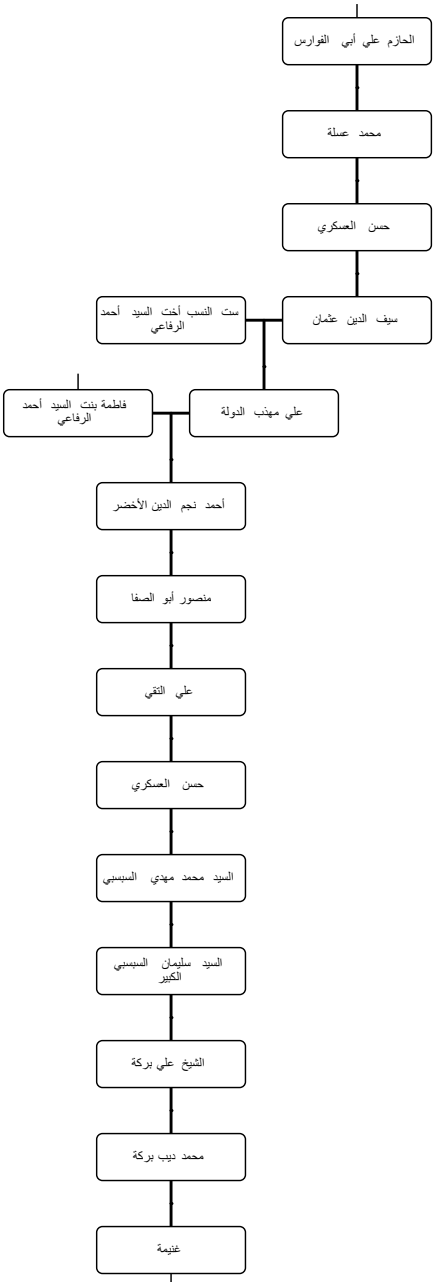
إن تقارب مواطنهم يشير إلى حرصهم في العيش قريبين من بعضهم البعض ربما رغبة في الشعور بالأمان و تكوين عشيرة كبيرة تقيمهم من أطماع القبائل التي كانت تقطن في بادية حماة و حمص القريتين من مناطق سكنهم. لم أصل بالضبط إلى سبب لذلك غير ما ذكرت لكن تبقى حقيقة عيشهم قرب بعضهم أمرا لافتا و مثيرا يحتاج إلى بحث و تحييص.

الطريقة السبسية

رغم نزوح جزء من السبسية الذين عرفوا بالدمالحة بعيدا عن موطنهم إلا أنهم حملوا معهم طريقتهم الصوفية السبسية الرفاعية. لقد أصبحت السبسية طريقة صوفية تفرع من الطريقة الرفاعية وأضحى لها تكايا وزوايا خاصة بها تنتسب الى السيد سليمان السبسي الرفاعي الحسيني. و هنا نرى صورة للتكية السبسية في حلب في محلة باب قنسرين حارة راغب باشا.



الصورة 3 التكية السبسية الرفاعية في حلب



"وعندي أن المعرفة كشجرة يغرستها ملك في بستانه،
ثمينة جواهرها، مثمرة أغصانها، حلوة ثمارها طريفة
أوراقها رفيعة فروعها نقية أرضها، عذب ماؤها، طيب
ريحها صاحبها مشفق عليها لعزتها مسرور بحسن زهرتها،
يدفع عنها الآفات، ويمنع عنها البليات
وكذلك شجرة المعرفة التي يغرستها الله تعالى في بستان
قلب عبده المؤمن فإنه يتعهد بها بكرمه، ويرسل إليها كل
ساعة سمائب الجنة من خزائن الرحمة، فيمطر عليها
قطرات الكرامة، برعد القدرة وبرق المشيئة، ليظهرها
من غبار رؤية العبودية ثم يرسل عليها نسيم لطائف
الرأفة من حجب العناية ل يتم لها شرف الولاية بالصيانة
والوقاية "

الإمام أحمد الرفاعي

5

الدمالحة

ظلت كلمة "الدمالحة" ترن في أذني منذ أن كنت صغيرا. إنها الكلمة التي كان يقول كبارنا لنا بأننا منهم. إنه التعريف الأول لأصلنا. إذا فنحن دمالحة ولكن ما معناها؟

عادة لا يكتفي العربي عند تعريف نفسه بلقبه او باسم عائلته. فغالبا ألقاب العوائل الملحقه بالأسماء لا تتجاوز الجد الخامس أو السادس و عادة إذا تجاوز اللقب الجد الخامس نرى تفرعات من هذه العائلة بألقاب جديدة تعرف عن نفسها ككيان مستقل ينسب إلى الجد الأصلي. فالعربي عادة عندما يعرف نفسه يذكر لقبه العائلي ثم يسهب في ذكر أصوله و أجداده تأكيداً لحسبه ونسبه وعادة يلجأ أولئك الذين لا يعرفون أصولهم إلى البحث عنها أو حتى في اختراع نسب و حسب لهم. كان تفسير كلمة او لقب الدمالحة أمرا هاما بالنسبة لي خصوصا كلما كنت أتقدم في العمر و يزداد اطلاعي على التاريخ وتفاصيله. كنت أعجب كثيرا بأولئك الذين كانوا يوثقون أنسابهم وأصولهم و يذكرون

تواريخ و حوادث ارتبطت بعائلاتهم. كان إعجابي هذا محفزا لي للبحث و كان السؤال دوما من أين أبدأ؟

عمليا تكاد تكون المصادر المدونة عن الدمانحة معدومة. و للأمانة فإن التدوينات عن الأصول و البحث فيها خصوصا للعائلات و القبائل الحديثة قليلة بشكل عام و لم تزدهر بشكل عام إلا في القرن العشرين. فقبلها كانت الأخبار و الأصول تنقل شفويا تواترا كعادة العرب في نقل أخبارهم قبل أن يأتي أحد ما لتدوين أخبارهم و أصولهم.

كان التاريخ المنقول لنا عن الدمانحة مبهما نوعا ما و عاما في كثير من تفاصيله. كانت القصص تروى بشكل غير متكامل على هيئة اخبار متناثرة كانت تقال من قبل الكبار كلما زاد التساؤل و كأن التساؤل كان عملية تحريض للذاكرة لنبش مخزونها وإخراج أخبارها.

القصة الأولى التي كان يجزم بها هي أننا دمانحة وهو أمر يعرفه الجميع و تكاد يكون الحقيقة الأولى التي كانت تروى لنا. و القصة الثانية هي أنهم قد بلشوا فهربوا و تفرقوا و هي قصة تحمل اختصارا لحادثة مهمة لكنها دون تفاصيل و دون تواريخ و دون معالم و من هنا تبدو الصعوبة. و القصة الثالثة هي أن عندنا جد اسمه الشيخ بركة يتغنى به الجميع و يذكرونه عندما تشتد عليهم الدنيا و تنوء بهم الأحمال. تشكل هذه

القصص منطلقا لمعرفة قصتنا قصة العائلة الكبيرة و قصة عائلتنا الصغيرة.

من هم الدمالحة؟

يرجع نسب الدمالحة إلى العائلة السبسية الكبيرة نسبة إلى القطب الصوفي دفيت سبسية مهدي السبسي وابنه سليمان السبسي دفين الخصيمية شرقي حماة و هم شيوخ وأقطاب الطريقة الصوفية الرفاعية و ينتهي نسبهم إلى جدهم الشيخ السيد أحمد الرفاعي الحسيني المتصل بنسبه إلى سيدنا الحسين بن علي رضوان الله عليهم. ويعتبر السيد ابراهيم السبسي بن أحمد ابن مصطفى ابن احمد ابن يونس ابن أحمد أسد الدين ابن الشيخ علي بركة بن السيد سليمان السبسي الكبير أول من عرف بلقب الدملخي في حوالي منتصف القرن العاشر الهجري.

فالدمالحة هم عائلة سبسية (نسبة الى سليمان و محمد مهدي السبسي القطبين الصوفيين الرفاعيين). وقد بدأت هذه العائلة تعرف بالدمالحة في نهاية القرن السادس عشر ميلادية حسب أغلب الروايات المتوفرة. يعود نسب الدمالحة الى الشيخ علي بركة السبسي بن سليمان السبسي فالمتفق عليه أن نسب الدمالحة يعود الى الشيخ علي بركة المدفون في قرية

الشيخ بركة شرقي جبل سنجار شرق معرة النعمان. وتجمع الروايات أن أول من عرف بالدملخي هو إبراهيم بن أحمد بن مصطفى بن أحمد بن يونس بن أحمد بن أسد الدين بن علي بركة بن سليمان السبسي بن محمد مهدي السبسي.

والمعروف أن السيد علي بركة قد توفي قرابة العام 1405 ميلادية و بينه وبين حفيده ابراهيم الذي كان أول من لقب بالدملخي قرابة السبعة أحفاد و من ذلك الرقم نستطيع أن نصل إلى تاريخ تقريبي للفترة التي ظهر فيها مصطلح الدملخي. فإذا اعتبرنا أن كل حفيد يمثل جيلا و الجيل عدد سنينه 33 سنة فعندها يصبح الوقت التقريبي لظهور مصطلح الدمالخة هي قرابة منتصف القرن السابع عشر الميلادي. حيث كان الدمالخة حتى منتصف القرن السابع عشر يعرفون بالسباسة نسبة إلى جدهم سليمان السبسي و محمد مهدي السبسي.

جد الدمالخة

يعتبر الشيخ علي بركة السبسي (المتوفى في العام 1405 تقريبا) بن سليمان السبسي (دفن الخصيمية شرقي حماة) جد الدمالخة المباشر و هو وريث طبيعي للطريقة الرفاعية التي ورثها من أجداده وصولا لجده

الكبير الشيخ أحمد الرفاعي الحسيني. ويعتقد أن الشيخ علي بركة مدفون في قرية الشيخ بركة شرقي سنجار (شرق معرة النعمان) و على اسمه سميت تلك القرية. و للمفارقة فإن أول مرة كنت أتعرف فيها على الشيخ علي بركة كانت من أبي عندما عرفني عليه شفاهة دون أن يقصد أو أن يعرف بتفاصيل تاريخية عنه أو أين دفن أو من يكون أصلا. فالزمن عندما يمر يطوي شخصيات عديدة و المشهور منها يظل اسما متداولاً و القليلون فقط هم من يعرفون تفاصيل من يكون و من هو و أين دفن و غيرها. و عادة في الأنساب يطوى أسماء الأجداد غير المعروفين و يلحق النسب بالجد المعروف و يصبح غير المشهورين كأنهم لم يكونوا فيذكر اسم المرء عادة حتى الجد الخامس أو السادس ثم يقفز مباشرة الى الجد المشهور الذي قد يكون العاشر أو الثاني عشر متجاوزين خمسة أو ست أجداد لم يكونوا مشهورين ومعروفين. على العموم يعد الشيخ علي بركة السبسي جد الدمالحة وإليه ينتسبون و به أيضا في ظروفهم السيئة يستجدون على عادة الصوفية.

أصل لقب الدماخلة؟

عرف الدماخلة بهذا الاسم لأول مرة في العهد العثماني في القرن السادس عشر تحديدا. لقب الدماخلة وحده قد يثبت المحن التي تعرضت لها هذه العائلة طوال تاريخها وجعلها مع تنقلاتها تنضوي تحت أحلاف عشائرية لتحافظ على نفسها من سطوة الزمن و سطوة السلطة. فلهذا اللقب قصص عديدة تناقلها الدماخلة كلهم عبر الزمن كلها تدور حول معنى الفداء و البذل و التعاضد. فاللقب وحده يفسر التنقل المستمر لهذه العائلة السبسية بين مناطق عديدة و تفرقها في هذه المناطق و انضوائها في أحلاف قبلية كادت أن تضيع هويتها كالقول أنها من بني سعيد مثلا دون توضيح بأن بني سعيد هو حلف قبلي يضم قبائل مختلفة الأصول والمنابت.

منذ أن كنا صغار كان يقال لنا أنهم قد بلشوا فهربوا. و معنى مفردة بلشوا أي أنهم قد قتلوا قتيلا و صار هناك من يطاردهم للأخذ بالثأر فهربوا و تفرقوا خوفا. ظلت تلك الرواية تذكر أمامنا عندما يتعلق الأمر بالدماخلة و بنسبنا دون إضافات تفسر القصة وقصة "البلش". ظلمت منذ أن كنت صغيرا أتساءل عن تلك القصة و عن معناها وعن تفاصيلها المتعلقة بالزمان و المكان. فعادة تكون القصص الشعبية أو

الروايات الشفهية خالية من عنصري الزمان و المكان اللذين بهما تصبح أي قصة شفهية تاريخاً محكماً و مفصلاً أو رواية تاريخية تستحق التمثيل و البحث. تورد الروايات العديدة التي يتناولها اليوم الدمالحة قصة البلش هذه و تدور أغلبها حول ثلاث تقريبا تقريبا يتفقون في المضمون و يختلفون في التفاصيل.

الروايات المؤسسة

تقول الرواية الاولى أن معركة نشبت بين أخوة و فصيل عسكري عثماني و في بعض الروايات مملوكي فنتج عنها قيام معركة كبيرة بين هؤلاء الإخوة و هذا الفصيل مما أدى الى هروب هؤلاء الاخوة مع عائلاتهم شمالا وصولا الى الرها و أورفا داخل تركيا اليوم. هذه الرواية الأولى لا تذكر تفاصيل كثيرة لكنها تكتفي بالحديث عن الإطار العام كعادة أغلب الروايات الشفهية أو لنقل الشعبية التي لا تولي كثيرا الإهتمام بالزمان و المكان بل تكتفي بذكر الحدث مجردا و تتحدث عن مصير البشر عادة و الحوادث التي وقعت لهم. وتضيف الرواية أن اسم الدمالحة اشتق من كثرة سيل الدماء الناتج عن هذه المعركة و أنه كان تحريفا لكلمتي "دم ملخ" و معنى ملخ الشيء: انتزعه، جذبه بشدة (ملخ

ضَرْسَه/وتدّا/كتفه/ذراعه).. امتلخ اللحم عن العظم: استلّه واقتلعه وانتزعه (امتلخ ضرسَه/عينَه/ذراعه- امتلخ الغصن اليابس من الشجرة) (*) امتلخ عقله: ذهب وفقد. والمعنى هو أن الدم قد سال نتيجة انتزاعه بعنف و هي دلالة بينة على المعاناة و سيلان الدم الكثيف. و يقال أيضا أن أصل كلمة دملخي هو تحريف لكلمتي "دمي لأخي" وهو معنى يدل على معنى الفداء و التضحية و الإيثار الذي شهدته تلك المعركة. على العموم فإن أصل الكلمة يدل على حدوث معركة كبيرة و سيلان دم كثير في لحظة تاريخية معينة و في زمن معين لا تشير إليه الرواية الأولى.

و تبدو الرواية الثانية أكثر تفصيلا في الزمان و المكان و حتى في الأبطال الذين كانوا في تلك الحادثة. الرواية الثانية تبدو متسقة مع الرواية الأولى من ناحية حدوث معركة و هروب العائلة و تفرقها فالإطار العام واحد والحدث واحد و هو ما يتناقله الدمانخة من جيل إلى آخر و هو حدث حاسم في تاريخهم العريق.

تقول الرواية الثانية أن أول من عرف بإسم الدملخي هو السيد ابراهيم السبسي بن احمد بن مصطفى بن أحمد بن يونس بن أحمد أسد الدين بن

الشيخ علي بركة بن السيد سليمان السبسي الكبير بن محمد مهدي السبسي.

وتضيف الرواية أن هذا اللقب أول ما عرف كان في العهد العثماني في بلاد الشام في القرن العاشر الهجري حوالي منتصف القرن السابع عشر الميلادي حيث جرت معركة كبيرة كانت سببا في إطلاق هذا الاسم على عائلة كاملة. وتفصل الرواية أن الواقعة جرت بين فصيل من الجيش العثماني في وقتها وبين ثلاثة إخوة دافعوا فيها عن أخت لهم حاول أحد الجنود الاعتداء عليها فقتلوه فتقدم آخرون من رفاقه لنجدته فتصدى لهم الإخوة الثلاثة ببسالة وأوقعوا بهم ومن ثم تقدم أيضا أبناء عم الأخوة هؤلاء لنجدتهم أيضا. وهنا حدثت معركة كبيرة كانت سببا لقدم قوات أكبر أدت فيما بعد لتشتت الدمالحة في أنحاء كثيرة هربا من بطش الحكام في ذلك الوقت. وتفسر القصة سبب تسمية الدمالحة بهذا الاسم بأنه تحوير لكلمتي دمي لأخي أو دم ملخ كما جاء الرواية الأولى.

وتشير الرواية إلى تفاصيل زمانية ومكانية فتقول أن المعركة التي نشبت تعرف باسم اللاوند نسبة إلى ابنة أحمد شامل حفيد السيد إبراهيم الدملخي الذي كان أول من عرف بالدملخي. وتضيف الرواية أن والي حماة المملوكي قد أراد الزواج من اللاوند عنوة فرفض أهلها ذلك

فدارت معركة كبيرة عرفت بمعركة اللاوند في منطقة مرج الخصيمية (حيث قرابة العام 892 هجرية حوالي العام 1492 ميلادية)، فانضم الى من عرفوا لاحقا الدمالحة كل ابناء عمومتهم الحوازم الرفاعية الذين كانوا يسكنون في نفس المنطقة المعروفة بالخصيمية والتي تضم مدفن السيد سليمان السبسي وأضرحة السباسة. انتهت المعركة بنهر كبير من الدماء جعل الدمالحة يتركون أرضهم ويغادرون.

وتبدو الرواية الثالثة مفصلة أكثر إلا أنها لا تجزم بزمان وقوع الحدث بشكل دقيق. تقول الرواية السيد ابراهيم السبسي كان يقطن في ديار أجداده السباسة في حوالي حماة في منطقة الخصيمية و أنه كان له حفيدة سماها لاوند وهي بنت السيد أحمد شامي وأنها كانت جميلة جدا حتى أن الحاكم العثماني لحماة قد رغب في الزواج منها لكن جدها السيد ابراهيم السبسي رفض فجرد حاكم حماة العثماني عليهم حملة عسكرية انتقاما منه. دارت معركة كبيرة يعرفها الدمالحة بمعركة اللاوند انتقاما من السيد ابراهيم الذي كان أول من عرف بالدملخي نتيجة غزارة الدم الذي سال في يوم اللاوند ذاك. عرفت تلك المعركة باسم المذبحة لهول ما حدث فيها و لكثرة الدم الغزير الذي سال يومها. وتشير الروايات الشفهية المتناقلة أنه قد شارك في المعركة إلى جانب السباسة أقربائهم الذين كانوا يسمون بالحوازم نسبة إلى جدهم علي الحازم أبو

الفوارس و الذين كانوا يقطنون إلى جانب أقربائهم في الخصيمية شرقي حماة.

و قد تعددت أسماء المعركة و هذا أمر شائع و طبيعي. فقد سماها البركاوية³¹ بمذبحة العسكر و أطلق عليها النعيم اسم مذبحة أم الخلاخل و سماها أهل حماة بفتنة العشائر أو بمذبحة العشائر.

و تقول الرواية أن المذبحة قد حصلت في منطقة الخصيمية شرقي حماة في منطقة السلمية وهو مرج تاريخي مشهور دفن فيه جد السبسية السيد سليمان السبسي و فيها مراقد كثيرة للسباسة. يعد مرج الخصيمية مكانا مشهورا تاريخيا شرقي حماة فقد كان منزلا للبدو و الجيوش الذاهبة و الآتية من حماة. و تروي كتب التاريخ عدة حوادث حصلت في هذا المرج، فقد كان ممرا للعسكر و الجيوش في انتقالها. ففيه نزل الملك الأيوبي المعظم عيسى بن الملك العادل في طريقه إلى حماة لحصار ابن أخيه الملك الناصر عام 621 هجرية و نزله أيضا الملك الكامل الأيوبي ملك مصر عندما اتجه إلى حماة لمحاربة الملك الناصر قلعج أرسلان عام 626 هجرية. و قد مر فيه تيمورلنك آتيا من حلب متجها إلى حماة عام

³¹ فرع من السباسبية ينتسبون الى نفس جد الدمالخة السيد علي بركة و كانوا بالبركاوية نسبة له.

803 هجرية. و يذكر التاريخ أن سيف الدولة الحمداني قد حارب سكان مرج الخصيمية عام 344 هجرية بعد أن عصوا أوامره و تمردوا عليه. انتهت معركة اللاوند بمذبحة تفرق بعدها الدمانحة في الأرجاء، فانتقلوا شمالا تاركين ديارهم وراءهم و استقروا في الرها (جنوب تركيا) حيث توفي فيها السيد ابراهيم السبسي كما تقول الروايات ثم أخذوا ينتقلون جنوب تركيا و شمال سورية بحثا عن حياة مستقرة عزيزة.

الاختلاف في الروايات

الاختلاف في كل القصص التي تروى ليس في حقيقة وقوع معركة بين حاكم و عائلة و لا في مكان وقوع المعركة بل يكمن الخلاف في زمنها. فمنهم من يقول أن معركة اللاوند قد وقعت في العهد العثماني و آخرون يقولون أنها قد وقعت في العهد المملوكي. فمنهم من يقول أنها قد وقعت في نهاية القرن التاسع الهجري و تحديدا في العام 898 هجرية (1492م) دون أن يقدم دليلا تاريخيا يعيد الواقعة إلى ذلك التاريخ بل إن ذلك التاريخ يناقض تماما تواريخ مثبتة عن وفاة علمين سبسيين كبيرين هما السيدين سليمان السبسي المتوفي في العام 1390 ميلادية و السيد علي بركة في العام 1405 ميلادية.

الأمر الأسهل لمعرفة زمان وقوع المعركة هو بالتقدير استنادا إلى تاريخ معروف و تتبع حياة الأفراد و تواجدهم فيه حتى الوصول إلى حياة الأفراد الذين عايشوا المعركة. من المعروف و المتداول أن السيد علي بركة الذي إليه ينسب الدمالحة قد توفي في العام 1405 تقريبا أي في العهد المملوكي و من المعلوم أن أول من أطلق عليه اسم الدملخي هو السيد ابراهيم السبسي حفيده السابع أي أن عدد الأحفاد بين السيد علي بركة و السيد ابراهيم السبسي هم 6 أحفاد أي أجيال³² و بحسبة بسيطة تتخذ من قاعدة الجيل الذي يساوي 33 سنة نستطيع تقدير أن معركة اللاوند قد حدثت بعد 198 سنة من وفاة السيد علي بركة أي تقريبا في بدايات القرن السابع عشر تقريبا. و يبدو هذا التاريخ منطقيا خصوصا إذا علمنا أن العثمانيين لم ينجحوا بشكل كامل في تثبيت سلطتهم في بلاد الشام بداية من نهاية القرن السادس عشر بل إنهم قد أعطوها لحكام محليين طالبين منهم فقط جي الضرائب.

³² قمنا بحسب عدد الأجيال بين علي بركة و ابراهيم الدملخي الذي أطلق عليه كما يقال هذا اللقب و منه استمدت بقية العائلة هذا اللقب.. فكان عدد الأفراد بين علي بركة و ابراهيم سبعة أفراد من ضمنهم ابراهيم و السيد علي بركة.. و عليه تصبح يصبح عدد الأجيال بين الإثنين 6 أجيالو بتطبيق القاعدة الخلدونية التي تقول أنه في القرن الواحد ثلاثة أجيال فإننا نقدر تاريخ وفاة ابراهيم في قرابة العام 1603 ميلادية مستندة على أن وفاة السيد علي بركة كانت في العام 1405 و عدد الأجيال ستة فيكون وفاة ابراهيم تقريبا بعد 198 منم وفاة السيد علي بركة أي في العام 1603.

تعتبر معركة "اللاوند" حادثة تاريخية بارزة في تاريخ السباسبية عموماً و الدمانخة خصوصاً. فقد شكلت هذه المعركة حدثاً ضخماً في تاريخهم حتى أنها أصبحت نقطة فاصلة بين عصرين : عصر الاستقرار في ديار أجدادهم و عصر الترحال بين المناطق و الأرجاء و الأنحاء باحثين عن أحلاف قبلية تحميهم بعد ما فعل بهم يوم اللاوند.

لكن تبقى قصة الزمن الذي حدث فيه هذه المعركة هو الأمر غير الواضح. ويمكن لنا ابداء الرأي قياساً بما ذكره مؤرخو و كتاب يوميات تلك الفترة. تميزت الفترة التقريبية التي حدثت فيها معركة اللاوند و أشرنا إليها سابقاً بالفوضى في الأراضي العثمانية. تلك الفوضى كانت أكثر وضوحاً في بلاد الشام حيث انتشرت فيها قوات غير نظامية تابعة للسلطة المحلية العثمانية كانوا يستخدمونها لفرض سلطتهم و تثبيت أركان الدولة في بلاد الشام. فتعددت تسميات تلك القوات من القيقول و اللاوند و غيرها. و هنا نستطيع أن نشير إلى أن اسم اللاوند الذي عرفت فيها المعركة قد لا يكون لحفيدة السيد ابراهيم السبسي بل قد يشير إلى اسم الفرقة العسكرية التي قامت بالمذبحة دون أن ننفي أبداً أن الهدف كان فتاة جميلة هي حفيدته و هو أمر تجمع عليه كل الروايات التاريخية بأن سبب المذبحة كانت فتاة جميلة حاول جنود الاعتداء عليها أو إجبار أهلها على القبول بزواجها من حاكم. و هنا لا بد لنا من وضع تصور

جديد بأن سبب المعركة قد لا يكون الفتاة بحد ذاتها بل يكون صراعا لسبب أكبر لم يدون ولم يصلنا و كانت قصة الاعتداء او طلب الزواج من الفتاة ورفض ذلك من قبل السباسبه هي القشة التي قسمت ظهر البعير وأدت إلى مذبحة اللاوند.

الصراع بين الأشراف و العسكر العثماني

تعتبر قصة صراع الدمالحة مع العسكر العثماني و تلك المعركة التي نشبت بينهم و التي كانت سببا في تسميتهم بالدمالحة أمرا شائعا في الحقبة العثمانية. فقد كان الصراع بين الأشراف و العسكر العثماني أمرا مألوفا جدا. كان للأشراف (أو السادة) اعتبار كبير في البلاد الإسلامية وكانوا يتمتعون في الدولة العثمانية بإمتميازات كثيرة ، حتى إن نقيب الأشراف في الآستانة لا يتقدمه إلا شيخ الإسلام .

وقد زخر تاريخ دمشق وحلب في العصر العثماني بأبناء النزاع بين الأشراف والجند، فقد كان الأشراف يعتزون بنسبهم الشريف و يكونون طبقة لها احترامها، أما الجند فقد دأبوا على الفتنة وكانوا يستهزئون بالأشراف حتى أنهم في حلب كانوا يدخلون رأس الكلب في بطيخة خضراء فارغة ويرسلونه في الأسواق والشوارع ووراء واحد منهم

ينادى بقوله : تنخوا عن طريق السيد لأن السادة كان يلبسون عمام خضراء وصارت القبيقول تقول : إن قتلة الشريف قيمتها أحشاية) أقية³³.

وتدل القصة التي رواها البديري الحلاق و القصص الكثيرة الأخرى عن الصراع بين الأشراف و العسكر العثماني على أن الرواية الشفهية التي يتناقلها الدمالحة عن معركتهم مع العسكر هي قصة حقيقية. فالملاحظ أن قصصا كثيرة مشابهة كانت تحدث مع الأشراف في دمشق و حلب و لم يكن فقط الأمر مقتصرا على الدمالحة السبسيين. ولكن ربما كان عنف المعركة و مشاركة فرق عدة من الأشراف فيها كالحوازم (أولاد عمومة للسباسبية) كما هو معروف جعل هذا المعركة تخذل في الروايات الشعبية و حتى في تاريخ الشام.

و يروي البديري الحلاق في تاريخه قصة من قصص خصومات الأشراف مع العسكر العثماني.. يقول البديري³⁴:

" وفي نهار الثلاثاء آخر جمادي الثانية من هذه السنة (1748) وقعت فتنة بين الأشراف والقبيقول". وسبب ذلك أن رجلا شريفا اشترى من

33 البديري الحلاق، تحقيق أحمد عزت عبد الكريم، حوادث دمشق اليومية، طبعة 1959

34 البديري الحلاق، تحقيق أحمد عزت عبد الكريم، حوادث دمشق اليومية، طبعة 1959

رجل شريف طبنجة وأراد أن يجربها، فأتى إلى الخندق لي تجربها ، فلما ضربها سمع صوتها آغة القبقول ، وكان نائماً ، فاستيقظ مرعوباً ، وقال انتونى بمن يضرب بهذه البارودة ، جاءت أعوانه وقبضت عليه وعلى جماعة كانوا معه ، وأخذوهم إلى آغاتهم ، فأمر أن يضرب كل واحد منهم ثلاثمائة سوط ، فضربوا ضرباً وجيعاً وتركوا كالأموات ، ثم وضعوا شاشاتهم في لباسهم فبلغ نقيب الأشراف ما فعل بهم ؛ فأرسل وأتى بهم إلى داره ، وفى اليوم الثانى قامت الأشراف على قدم وساق ، وهجمت على القبقول وتقاتلوا ، فقتل من الأشراف ثلاثة) وجرح كثيرون وسكرت البلد كلها . وفى اليوم الثالث صار ديوان عند أسعد باشا حاكم الشام ، واجتمعت فيه الأعيان كالمفتى والنقيب والعلماء ، ثم انقضى الديوان ، وحكموا على القبقول بأن يعطوا دية الشهداء الأشراف لورثتهم . ثم أمر الباشا بأن تفتح الأسواق ويقصد الرزاق . وكان يوم الواقعة اثنان من الأشراف الأول يقال له السيد شباب باب المصلى، والثانى السيد محمد بن الدهان من السنانية كان قد كرا بعضاها وهجها على القبقول ، ورد وهم إلى القامة خاستين . و بعد يومين وهو نهرا بت بعد العصر بينما كان السيد محمد بن الدهان ماراً في القنوات ، وإذا بشخص من جماعة القبقول ضربه طبنجة ، فجاءت في بطنه ، فقامت الأشراف وأهل البلد ، وهجمت على أسعد باشا وأخبرته بالخبر

، فقال لهم : إن مات قتلت غريمه ، و غريمه ، وإلا فأنا أدبره . فات المضروب بعد الظهر ، فذهبت الأشراف إلى الباشا ، فأمر بإحضار الشهود لأجل الحكم على القاتل ، فذهبوا للشهود ، فلم يرض أن يشهد أحد على القاتل ، وقالوا من يشهد ليقتل ، ويكون خصمه نحواً من خمسة آلاف بطل شقى ، وحاصله ما أثبتوا الدعوى ، وتركوا الأشراف يروح هدرا . والأمر الله العلى الكبير

وهؤلاء القبقول قد جاء فيهم أمر سلطاني وخط شريف بإبطلهم من الشام ، وأن من استخدمهم أو ردتهم ملعون بن ملعون) . فالحاكم وقتئذ تيقن أن البلد لا تصلح إلا بهم ، فأقرهم وأبقاهم . وبعدها صارت تقول القبقول : إن قتلة الشريف قيمتها أخشاية فضة) . والحكم الله والغيرة الله ولرسوله . وفي (ثاني) يوم الجمعة عمل أسعد باشا ديواناً ، وجمع فيه علماء الشام وأعيانها ، وقال لهم : أنا الليلة مسافر على الدورة ، فتسلخوا البلد ولا تتركوا أحداً يتعدى على أحد . فقالوا يا أفندينا نحن أناس منا علماء ومنا فقراء ، ومنا ما يسمون ، وصنعنا مطالعة الكتب وقراءتها . فقال لهم : هذا إقراركم ، وكيف وأنتم الأعيان ، فقالوا : حاشا لله إنما أعيان الشام القبقول) . فقال لهم : هذا إقراركم ، وقد تحققتم بأن أعيانها والمحافظون لها القبقول . ذلك أرسل خلف رؤساء القبقول وسلم البلد لهم . وكان ذلك . ثم سافر وترك الناس يتقلب في

فرش القهر والكدر . وقد كان رجل من الأشراف من جملة من كان أيام فتنهم قد فتح دكانه بعد أن هدأت الأمور ، فبينما هو يفتح دكانه إذ قبضت عليه جماعة من القبحول ورفعوه إلى القلعة : بعد ان شد را وثانه وثقلوه بالقيود ، حتى كأنه من اليهود أو من قوم عادو ثمود ، ثم فتشوا ال غيره ليقرونه ، فهربت غالب الأشراف . فانظروا يامسلمين هذا الإنصاف ، وقولوا ياخذ الألفاف بجنا ما نخاف"

و القبيقول هم حرس للحاكم أو السلطان و هي تحريف لكلمة قبوقولي ومعناها عبيد الباب أي جند السلطان و حرسه و كثرت الأخبار عنهم و عن صداماتهم المتكررة مع الإنكشارية العثمانية حتى أنهم قد أصبحوا قوة عدم استقرار داخل المدن التي كانوا يتواجدون بها حتى أن السلطان العثماني أرسل أوامر بنفيهم و حل تنظيمهم لكن الحكام المحليين كانوا يحتفظون بهم لفعالياتهم في تثبيت سلطتهم فقد كانوا يشكلون قوة مهمة لبسط السلطة و محاربة أعدائهم.

و تبرز قصة أخرى عن صراع الاشراف مع السلطة الحاكمة. ففي حوالي العام 1769 ميلادية استطاع الاشراف في حلب السيطرة على المدينة و طرد السلطة العثمانية منها مستغلين غياب الوالي العثماني عن المدينة. فقد غادرها مع جييشه للانضمام الى الجيش العثماني أثناء الحرب

الروسية العثمانية التي بدأت في العام 1768 ميلادية. و لهذه القصة تفاصيل ستذكر في فصل مستقل.

إعادة تشكيل الرواية

لا شك أن يوم اللاوند هو يوم حقيقي حدث قرابة بداية القرن السابع عشر أو قبلها بقليل. كان السباسبية قد استوطنوا منطقة الخصيمية شرقي حماة وصولاً إلى شرق معرة النعمان منذ نهاية القرن الرابع عشر الميلادي تقريباً في العهد المملوكي. كانت هذه المنطقة الواسعة كلها تابعة لحماة في العهد العثماني وقد أعطوا أراضٍ واقطاعات في تلك المنطقة كما تدل الوثائق والأخبار المتناقلة.

متى حصلت المعركة؟

لا شك أن قصة المعركة التي حصلت وأدت إلى تكون الفرع الدملي من السباسبية هو أمر حقيقي. فكل العائلات الدمليّة تحمل في إرثها هذه القصة و تناقلها جيلاً بعد جيل تارة باسم البلشة و تارة باسم اللاوند و تارة أخرى بأسماء متعددة أخرى. كانت نانتي رحمها الله

تسمي المعركة باسم يوم البلشة أي يوم أن قتلوا قتيلا فطولبوا بالثار فهربوا.

تبدو القصة في تفاصيلها مبهمة لكن تقاطع الروايات و اسقاطها على الأحداث التاريخية التي كانت في تلك الفترة يجعل من إمكانية بناء القصة ممكنا. استقر السباسبه حوالي حماة قرابة منتصف القرن الرابع عشر الميلادي في العهد المملوكي. و قد شاع صيتهم كورثة للطريقة الرفاعية الصوفية و برز منهم السيد سليمان السبسي الكبير المتوفى في العام 792 هجرية حوالي 1392 ميلادية دفن في قرية الاساور في شرقي حماة و السيد علي بركة المتوفى عام 1405 ميلادية دفن في قرية الشيخ بركة شرقي معرة النعمان.

لقد تناقلت المرويات الشفهية عند الدمالحة عن "الحكم الكريدي" الذي اشتهر بالظلم و القسوة و يمكننا فهم هذا المصطلح من فهمنا للأحداث التي حصلت في بلاد الشام في نهاية القرن السادس عشر الميلادي. فقد شهد نهاية القرن التاسع السادس عشر الميلادي تمرد والي حلب علي باشا جنبلات الكردي على السلطة العثمانية فأنشأ تحالفا مع نخر الدين المعني حاكم جبل لبنان و قاموا بحكم بلاد الشام كلها بشكل مستقل عن الدولة العثمانية لسنوات عديدة.

أسباب المعركة

كان السباسبية يقطنون في منطقة حوالي حماة بداية منذ منتصف القرن الرابع عشر الميلادي تقريبا. وقد كان لهم إقطاعات كبيرة في تلك المنطقة توارثوها على مر الزمن كوقف ذري يتوارث من جيل إلى آخر. لم تكن السيطرة العثمانية على منطقة على بلاد الشام سيطرة كاملة بل كان كثير من الشؤون المحلية تترك للحكام المحليين وللتشكيلات العسكرية التي كانوا يستعينون بها لفرض نفوذهم وسلطتهم. برز خلال التاريخ العثماني أسماء لتشكيلات عسكرية محلية هي أقرب للميليشيات كان الحكام المحليين يستعينون بها و حتى أنهم كانوا يشكلونها و يدعمونها. كانت هذه الميليشيات في صراع دائم مع الأشراف. ويوضح البديري الحلاق جزءا من هذه الصراع في يومياته راويا قصة صراع بين القبيقول والأشراف. فيروي قصة عن هروب الأشراف من الشام بعد مشكلة حدثت لهم مع القبيقول فروا على إثرها بعد أن تسلطوا عليهم و قتلوا منهم دون أن تقوم السلطة المحلية بحمايتهم أو بوقف اعتداءات القبيقول. وقد زخر تاريخ دمشق وحلب في العصر العثماني بآبناء النزاع بين الأشراف والجند، فقد كان الأشراف يعتزون بنسبهم الشريف و يكونون طبقة لها احترامها، أما الجند فقد دأبوا على الفتنة وكانوا يهزؤون

بالأشراف حتى أنهم في حلب « كانوا يدخلون رأس الكلب في بطيخة خضراء فارغة ويرسلونه في الأسواق والشوارع ووراءه واحد منهم ينادى بقوله : تنخوا عن طريق السيد (لأن السادة كان يلبسون عمام خضراء) وصارت القبيقول تقول إن قتلة الشريف قيمتها أحشاية) أقية (³⁵.

شهدت الفترة نفسها التي حدثت فيها المعركة نهاية القرن السادس عشر تقريبا حركات تمرد على السلطات العثمانية من قبل الحكام المحليين وصلت الى حد تشكيل سلطة شبه مستقلة عن الدولة العثمانية. فقد شكل علي باشا جن بلاط بالتحالف مع نحر الدين المعني وابن سيف حاكم طرابلس حلفا طرد تقريبا الدولة العثمانية من بلاد الشام و شكل دولة تمتد من أضنة حتى آخر نقطة في بلاد الشام، ظلت بعيدة عن السلطة العثمانية بشكل كامل لما يزيد عن العامين. بدأت ظاهرة علي باشا جن بلاط في السطوع في حوالي 1601 ميلادية واستطاع خلال أعوام قليلة مستعينا بجيش من المرتزقة السكان مد نفوذه وسيطرته. كان يعرف عن علي باشا وجيشه بالقوة و القسوة و عدم التسامح في جبي الأموال من السكان المحليين. و يعرف التاريخ معركة حماة التي حصلت

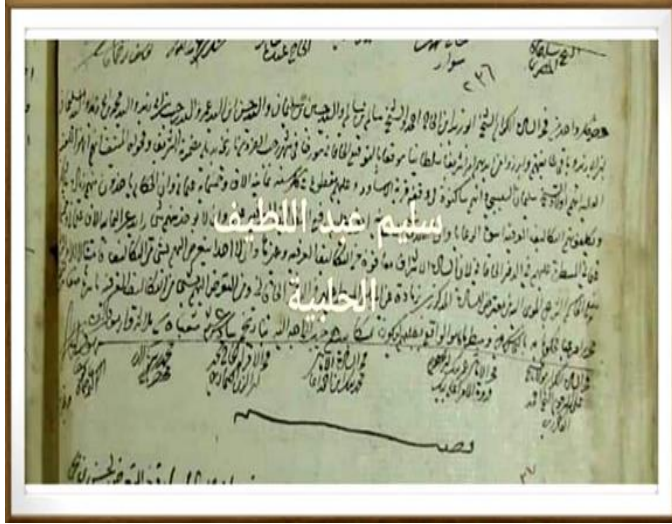
35 البديري الحلاق، تحقيق أحمد عزت عبد الكريم، حوادث دمشق اليومية، طبعة 1959

في العام 1601 ميلادية كنقطة يمكن النظر إليها كبداية لسيطرته على بلاد الشام وتحالفه مع نحر الدين المعني. كان الجيش الجنبلاطي جيشا غير منضبط أصلا فقد عاث في الأرجاء فسادا بل ان السكان كانوا يعلنون جهرا أن جنبلاط مدين لهم بولاته على حلب. كان الباشا يفرض ضرائب عالية على السكان لتمويل جيشه مما أدى الى حدوث حركات تمرد عليه كما في ثورة بني العقيل و ثورة عينتاب³⁶.

إن فهمنا للجو العام في الفترة التي حدثت فيها معركة اللاوند تجعلنا ندرك الأسباب الحقيقية للمعركة. فتقدير حدوث المعركة يترواح بين نهاية القرن السادس الميلادي و بداية القرن السابع عشر و هي فترة تميزت بالاضطراب السياسي والعسكري و تميزت بحركات التمرد العديدة ضد الحكام المحليين من قبل القبائل و الناس في المدن و الأرياف. فقد ساهمت رغبة الحكام هؤلاء في الاستقلال عن الدولة العثمانية و تأسيس جيوش مرتزقة تحارب لأجلهم في جعلهم يفرضون الضرائب العالية على الناس. بل ان عملية تسلط جيوشهم المرتزقة على الناس جعل كثيرا من التمردات و الثورات تنشأ ضدهم. و يمكن لنا من خلال ربط الأحداث كلها مع بعضها الإستنتاج إلى أن أحد الأسباب

36 علي باشا جنبلاط والي حلب، الخوري بولس قرألي، منشورات المكشوف، بيروت 1939

الرئيسية للمعركة هو عمليا نوع من الصراع بين الحكام المحليين و السباسبية بسبب الحقد على طبقة الأشراف التي كانت ذات مرتبة متميزة عند الدولة العثمانية و امتلاكهم لاقطاعات واسعة جعل لعاب الحكام المحليين يسيل للسيطرة عليها أو فرض دفع الضريبة عليها. لقد كانت الدولة العثمانية تعفي الأشراف من دفع الضريبة على ممتلكاتهم كجزء من الامتيازات التي كانت تمنحها للأشراف. ويمكن أن يكون هذا هو سبب رئيسي لحدوث هذا النزاع بين الحكام المحليين و السباسبية. لقد احتج من بقي من السباسبية حوالي حماة بعد فترة من وقوع المعركة واستقرار الأوضاع للدولة العثمانية على هذه الضريبة التي فرضت وقت الفوضى المحلية التي حدثت و ساهمت في وقوع المعركة و تشرّد جزء منهم تحت اسم الدمانحة. ففي وثيقة مؤرخة في العام 1043 هجرية حوالي العام 1634 ميلادية توضح



وثيقة 1 وثيقة أملاك السيد سليمان السبسي. الوثيقة الثانية من السجل 37،

الصفحة رقم 126 القضية رقم 236

قيام عدد من “نخ السادة الكرام .. هكذا خاطبتهم الوثيقة” أحفاد السيد سليمان السبسي الكبير القاطنين في قرية الأساور التي كانت ملكا خاصا له وهي “مكان دفن جدنا السيد سليمان السبسي الكبير سنة 792 والتي أوقفها بعد وفاته على أعقابه وقفا ذريا خاصا” بتظلم لدى المحكمة في حماة من زيادة الرسوم العرفية عليهم من قبل الولاية و أبرزوا من يدهم أمرا شريفا سلطانيا مذيلا بالتوقيع الخاقاني بأنهم من ذرية السيد سليمان السبسي وأنهم ساكنون في وقفه وهي قرية الأساور وأنهم معفيون من تلك الرسوم بأمر من الصدقات السلطانية التي أنعمت

عليهم برفع التكاليف العرفية عنهم لأن السادة الأشراف معافون من تلك التكاليف والرسوم وامثالاً للأوامر السلطانية فإن الحاكم الشرعي منع أن يتعرض لهم أحد بشيء من التكاليف العرفية... وذلك بتاريخ سنة 1043 هجري... (من السجل 37 الصفحة رقم 126 القضية رقم 236)³⁷.

لقد تجمعت كل العوامل من الفوضى السياسية والعسكرية والضرائب الباهظة على السكان المحليين لتمويل الجيوش مع بعضها البعض لتشكل سبباً لحدوث الصدام الكبير بين السلطة المحلية والسباسة. لقد تناقلت المرويات الشفهية عند الدمالحة عن "الحكم الكريدي" الذي اشتهر بالظلم والقسوة، ويمكننا فهم هذا المصطلح من فهمنا لهوية علي باشا جنبلات الكردية وجيشه المشهور بالقسوة والبطش، أن نوقن أن زمن حدوث المعركة هو في زمن علي باشا جنبلات المشهور عنه جوره في فرض الضرائب و بطشه و قسوته .

تذكر المرويات الشفهية الدملحية أن السبب الرئيسي لمعركة اللاوند هو رغبة الحاكم المحلي في الزواج من حفيدة ابراهيم السبسي لاوند وهو ما رفضه جدها ، فكان الرفض سبباً في نشوء المعركة. لا يمكن لنا الجزم

³⁷ حلبية. (18 March, 2022). وثائق السادة السبسية الرفاعية
الإشراف عام 959. موقع حلبية. <https://halabieh.com/>السادة-
السبسية-الرفاعية-الإشراف/

بأن هذه السبب هو الوحيد على افتراض أنه قد حدث فعلا، وأن ما يتداول ليس هدفه جعل القصة نوعا من الدفاع عن الشرف والنخوة والتضامن. قد تكون قصة الرغبة في الزواج حقيقية لكنه سبب ثانوي على ما أعتقد، ضخم لإضفاء الملحمية على سبب المعركة نفسها. الثابت الأكيد أن المعركة قد وقعت في فترة اضطراب شديد عاشته الدولة العثمانية في بلاد الشام، حيث أنها واجهت حركات تمرد داخلية من حكام محليين كانوا يحاولون الاستقلال عنها بعد عقود قليلة من دخولها لبلاد الشام، وعدم تثبيت سلطتها بشكل قوي. لقد كانت نظرة المرتزقة الذين يشكلون جيوش الحكام المحليين للأشراف نظرة سلبية، جعلتهم في صراع دائم معهم، سواء بسبب الامتيازات التي كانوا يحصلون عليها أو الاقطاعات الكبيرة التي كانوا يملكونها وقد نقل لنا هذا الصراع في كتابات كثيرة ليس أوضحها فقط ما ذكره البديري الحلاق بعد قرن من الزمن عن حوادث مشابهة كان يتسلط فيها العكر العثماني على الأشراف ويقتلهم ويطاردتهم.

نتيجة المعركة

انقضى غبار المعركة و كان الدم الذي أريق فيها كافيا ليطلق الرواة على من شاركوا في المعركة اسم الدمانحة. لقد عرف و منذ ذلك اليوم

السباسبية الذي كانوا أساس المعركة و السبب في نشوبها بالدمالحة. و تقول الروايات أن هذا الاسم مشتق من كلمتين هما دمي لأخي أو دم و ملخ فنسبوا الى هاتين الكلمتين لتصبحان (دملخي). و كلا السبيين يشيران بوضوح الى إراقة الدماء سواء بفداء الأخ لأخيه كما في دمي لأخي أو في دم و ملخ. و يمكن أن نقول بشكل واضح أن أول نتائج هذه المعركة هو ظهور أسرة سبسية جديدة تفرعت عن العائلة السبسية الكبيرة و استقلت باسم خاص و هي الأسرة الدمليخية. لقد كان هذا الفرع من العائلة السبسية ينحدر مباشرة من السيد علي بركة بن سليمان السبسي. و يمكن أن نضيف أن النتيجة الثانية لهذه المعركة هو مغادرة هذه الأسرة حماة باتجاه الشمال نحو جنوب الأناضول و تحديدا في المنطقة الممتدة بين أورفا و الرها بعيدا عن سلطة علي باشا جنبلات الذي لم يكن يحكم تلك المنطقة. لقد كان هذه التفرق خطوة في مسيرة تاريخية طويلة لهذه العائلة الناشئة و التي ما لبثت أن بدأت تنحدر جنوبا من مسكنها الجديد بعد فترة من الزمن.

و قد كانت أحد أبرز نتائج هذه المعركة أيضا هو فقدان الدمالحة لأرزاقهم و اقطاعاتهم حوالي حماة. و لا نعرف تحديدا ما الذي حصل لها، لكننا يمكن أن نفهم أن هذه الإقطاعات التي كانوا يحيزونها كانت في الأساس وقفا في ذرية السيد سليمان السبسي، و هو ما يدفعنا

للإستنتاج بأن هذا الاقطاع ظل يوزع في ذرية سليمان السبسي التي بقيت حوالي حماة ، وهو ما تدعمه الوثيقة التي عرضناها سابقا في قسم الوقف السبسي في فصل السباسة و التي تذكر بوضوح الوقف السبسي في ذرية السيد سليمان السبسي.

مسكن الدمانحة

لم يكن الوضع في العهد العثماني مستقرا بشكل عام. فقد كانت سلطة الدولة في بلاد الشام سلطة ضعيفة نوعا ما مما جعل الفوضى و تحكم السلطات المحلية ذا وقع كبير على حياة الناس. ثبتت سيرة الدمانحة أو قصة نشوئها كفرع سبسي مقدار تأثير هذه الفوضى الداخلية على حياة الناس. فقد تعرضوا لمحنة كبيرة جعلتهم ينزحون من موطن السباسة في حماة و جوارها الى جنوب الأناضول و شمال سورية و أصبحوا اليوم ينتشرون في حماة و حلب و ادلب و تركيا خصوصا في عنتاب و أورفا و الرها. و عادة بمرور الزمن تكبر العائلة الصغيرة و تنفرع منها عائلات مستقلة باسمها مرتبطة في الاصل بنسبها، و عادة ما يكون ذلك لتسهيل تعريف الفروع المختلفة للعائلة. فعندما تكبر العوائل يصبح من الصعب تعريف أفرادها دون إيجاد هويات فرعية لهم تميزهم عن أقاربهم و لهذا كان من الطبيعي أن يحدث ذلك مع الدمانحة عندما كبر عددهم

و تعددت فروعهم و انتشروا في مساحات جغرافية كبيرة. إنقسم
الدمالحة مع مرور الوقت إلى ثلاثة أفرع وهم: الشامليين و فرع الخطيب
و فرع الخميس. و فرع الخميس هو أقوى و أثرى فروعهم و هو الذي
ننتمي إليه.



خريطة 3 خريطة توضح موقع الغندورة على الساجور حيث تزداد كثافة الدمالحة

تتنوع فروع الدمالحة و ينقسمون إلى فروع أقل كبرا من عائلتهم الكبيرة
و ينتشرون في شمال غرب سورية في حماة و ادلب حلب وصولا إلى
الساجور على الحدود التركية حيث تزداد كثافتهم عند الغندورة على نهر
الساجور قرب الحدود التركية و حتى أن لهم فروع داخل تركيا في
عنتاب و الرها و أورفا.

العشيرة 515 الرمز العثماني للعشائر الحسينية

ميزت السلطات العثمانية العشائر التي تنتمي إلى الأشراف بالرمز 515. فقد كانت السلطات العثمانية تمنح هذه العائلة امتيازات كبيرة أبسطها الإعفاء من ضرائب الأراضي على سبيل المثال. و كان نقيب الأشراف المقيم في اسطنبول ذا مكانة كبيرة عند السلطان العثماني حتى أن مكانته الدينية لم يكن يتقدم عليه بها الا منصب شيخ الإسلام.

الدمالحة و النعيم

لا يستطيع الكثيرون التدقيق في المعلومات و الوصول إلى حقيقتها. فمعظم من يتحدث خصوصا في الأنساب يجهلها بشكل واضح. فالنسب عندما يتحول إلى رواية شفوية تضيع معه الدقة و إن كان يحمل كلام الرواية شيئا من الصحة. إن أهم شئ في توثيق النسب هو التدقيق و الوصول إلى الحقيقة فيه.

يخلط كثيرون بين النعيم و الدمالحة و يقولون بأن الدمالحة هم فرع من النعيم دون أن يعرفوا الفرق بين الطرفين. صحيح أن النسب في النهاية واحد يعود إلى علي الحازم أبي الفوارس- فالنعيم و الدمالحة هم حسينيون و هذا لا لبس فيه و يلتقون مع الرفاعيين عند جدتهم علي الحازم أبي الفوارس- لكن الدمالحة بعد ذلك ينتسبون إلى السيد أحمد الرفاعي و من ثم إلى محمد مهدي السبسي و من ثم السيد سليمان السبسي و من ثم للسيد علي بركة.

إن نسب الدمالحة يعود للسيد علي بركة بن السيد سليمان السبسي بن السيد محمد مهدي السبسي و يلتقون مع النعيم عند السيد علي الحازم أبو الفوارس كما قلنا سابقا.

إن الاختلاط بين الدمالحة و النعيم في مرحلة تاريخية معينة و هي مرحلة معركة اللاوند و ما تلاها جعل كثيرون يظنون أن الدمالحة جزء منهم أو ينتمون إليهم. لقد أدت معركة اللاوند إلى هروب السباسبية الدمالحة و كانوا قلة من بطش السلطة العثمانية المحلية إلى مناطق يعيش فيها النعيم (يقال أنهم ذهبوا إلى الرها حيث يتواجد النعيم) طلبا للحماية فتصاهروا و انصهروا معهم فظن كثيرون أنهم عشيرة من عشائر النعيم

لكن الحقيقة هي أنهم سبسيون يعود نسبهم إلى السيد علي بركة بن السيد سليمان السبسي الرفاعي.

قتيل في باب الحديد

ينسب آل حلبية إلى السيد علي بركة مثلهم مثل البركاوية و هو جد الدمالحة. إن هذا الالتقاء جعل كثيرون يقولون أن البركاوية و آل حلبية هم دمالحة. لا خلاف أن النسب واحد لكن السبسية الذين يعودون الى السيد علي بركة مثلهم مثل أي عائلة تفرعوا إلى عائلات مستقلة يلتقون بنسبهم مع بعضهم البعض عن جد واحد.

إن البركاوية و آل حلبية ما زال جزء كبير منهم يعيشون حيث كان أجدادهم السبسية في حماة و حوالها حتى يومنا هذا ويعرف البركاوية بغناهم و ربما ما زالوا.

لقد كانت أول مرة أسمع فيها بقصة نسب آل حلبية في تل رفعت شمال حلب. إن الدمالحة بشكل عام يعرفون قصة البلشة التي جعلتهم يهربون من حماة و جوارها بعد معركة اللاوند كما ذكرنا. لكن الروايات الشعبية لهذه البلشة تعددت طرق روايتها و طرق عرضها. كعادة أبي في كل صيف كان يذبح خروفين و يوزعهم في إجازته الصيفية عندما كنا نعود صيفا من أبوظي حيث يعمل إلى ضيعتنا ديرجمال. ذهبنا أنا و خالي

في صيف العام 1999 إلى تل رفعت لشراء الخروفين و ذبحهم عند القصاب. جلست أراقب القصاب و هو يقطع اللحم بعد ذبح الخروفين و يوزعهم على أكياس ليتم توزيعهم لاحقاً. بينما كنت أجلس و أراقبه اقترب منا رجل في الخمسينات من عمره و سألني من أين أنت؟ قلت له: أنا من دير جمال..

قال لي: أنت دملخي؟

قلت له : نعم

قال لي: إذا نحن أقارب..

أنا من بيت سواس و أنا دملخي..

حييته و طلب مني كيس لحم فأعطيته.

قال لي : هل تعرف قصة الدمالحة؟

رغم أنني كنت أعرف فإني تظاهرت بعدم المعرفة. كنت أريد أن اسمع رواية أخرى لأدقق الرواية التي قيلت لي و أنا صغير و لأطابق بين الروايتين. كان لا يزيد عمري في ذلك الزمن عن الأربعة عشر عاماً، لكنني كنت مهتم بمعرفة القصة و الوصول إلى رواية كاملة عن الدمالحة. إنه حب المعرفة عندما يتمكن من الإنسان و ينمو معه منذ صغره.

قال لي: كان الدمالحة يسكنون في باب الحديد في حلب.. فحدث شجار بين شخص من آل حلبية وآخر من آل لبنية فقتل الرجل من بيت حلبية ابن عائلة آل لبنية فبلشوا وهربوا.
لقد روى روايته وحياني وذهب.

حفظت هذه الرواية على ورق لتكون مرجعا لي عندما أتمكن من جمع كل الروايات الشفهية عن الدمالحة. طبعا فإن ما قاله هي رواية شعبية تدور كما غيرها من الروايات الشعبية عن الدمالحة وقصة البلشة التي يتداولها الدمالحة على مر تاريخهم دون أن يعرف الكثيرون قصتها وحققتها.

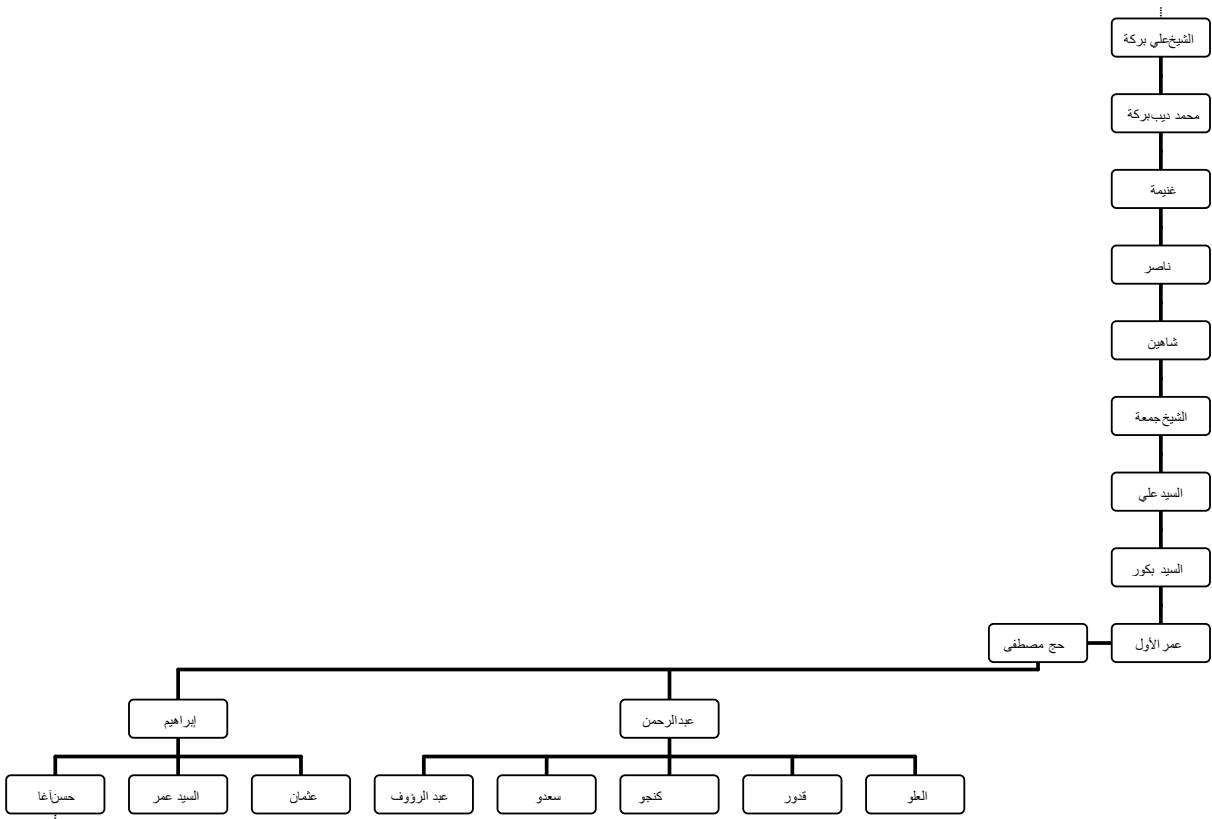
إن آل حلبية هم من نسل السيد علي بركة لكنهم ليسوا من الدمالحة مباشرة بل يلتقون معهم عند جدهم السيد علي بركة وبقيت هذه الرواية في ورقي ورأسي أسجلها كنوع من الرواية الشعبية التي يتناقلها الدمالحة.

التصاهر مع البركاوية

نشأت هناك مصاهرة بين البركاوية وأحد أفراد بيت عثمان بن حج أحمد وهو ابن عم لنا من فرع عثمان وتعرفت العائلتين على بعضهم البعض وعرفوا صلة القرابة بينهم.

خلاصة

يعود نسب الدمالحة إلى العائلة السبسية (وهي عائلة رفاعية حسينية يعود نسبها إلى السيد أحمد الرفاعي الحسيني) تحديدا إلى الشيخ علي بركة ابن سليمان السبسي بن محمد مهدي السبسي. وقد عرفوا بهذا الاسم ابتداء من نهاية القرن السادس عشر الميلادي و بداية القرن السابع عشر الميلادي عقب معركة اللاوند. تجمع الروايات أن هذه المعركة قد حدثت بين أخوة سبسية عرفوا لاحقا بالدمالحة و جنود تقول بعض الروايات أنهم جنود مجموعات عسكرية محلية عثمانية في عصر الفوضى العثمانية نهاية القرن السادس عشر الميلادي، حيث سيطرت على بلاد الشام فرق عسكرية من الحكام المحليين واستقلوا بالشام لفترة من الزمن بعيدا عن حكم السلطة العثمانية. و تجمع الروايات أن هذه العائلة السبسية كانت تعيش في مناطقها حوالي حماة و نتيجة هذه المعركة هربت هذه العائلة خشية الإنتقام منها و عرفوا منذ ذلك الوقت باسم الدمالحة إما لكثرة ما سال من دم في تلك المعركة أو نتيجة شيوع روح الفداء في تلك المعركة أيضا و قولهم "دمي لأخي".



"الرزق مقسوم، والحريص محروم. العبد حر إذا قنع،
والحر عبد إذا طمع ؛ أخرج الطمع من قلبك، تحل
القيد من رجلك، قدم إلى الحشر زادك، فإن إلى الله
معادك.

الدنيا دنية، وحبها خطية؛ الدنيا ساعة، فاجعلها طاعة.
الدنيا كلها غرور والعقبي كلها سرور. الدنيا معدن
الخطأ، والعقبي معدن العطاء . الدنيا معدن الجفاء،
والعقبي معدن الوفاء. أساس التقوى ترك الدنيا؛ أخوف
الناس آمنهم."

الإمام أحمد الرفاعي

حسن آغا

منذ معركة اللاوند و تشتت الدمانحة بداية القرن السابع عشر، لم يظهر ذكر للدمانحة حتى منتصف القرن الثامن عشر تقريبا، حيث كونوا حلفا مع بني سعيد و شيخهم فحل الخليل شرقي حلب حوالي مسكنة ، امتد من الساجور شمالا حيث كانوا يقيمون إلى الزور حوالي مسكنة جنوبا حيث كان فحل الخليل يتخذها موطن له.

هناك أشخاص قد لا نعرفهم لكننا نحس بوجودهم و لو مر على ذلك فترة زمنية طويلة. نحسهم بالإرث الذي نراه أمامنا و تركوه بعد وفاتهم و بما نستطيع أن نجده عندما ننقب عنهم بين صفحات الكتب أو مفكرات الأحداث. قد يندثر إسمهم لفترة أو لمدة تطول أو تقصر، لكن و بمجرد فتح الكتب و تقلبها نستطيع الوصول إلى أهميتهم في صنع الحدث.

يبدو أن حسن آغا هو من طينة هؤلاء الأشخاص الذين نحس أنهم كانوا يوما موجودين، عبر تلك المكانة التي عاشها أحفاده و استطعنا تلمسها من

خلال سيرهم، و أيضا عبر دراسة زمانه و ما حصل و ما ترتب على ذلك.

لا نملك الكثير عن حسن آغا كشخص لكننا نملك الأحداث الكثيرة التي حصلت في حياته، و كانت سببا لذكرها و تخليدها دون أن يذكر اسمه صراحة.

علينا في البداية أن نفهم الفترة التاريخية التي ولد و عاش فيها حسن آغا لفهم كل ما حصل و ما وقع و ما ظل التاريخ يذكره وإن موارد دون تصريح. فالتاريخ عادة يخاز لمن يدون، لكن التدوين لم يكن ذا أهمية عند هؤلاء، بل كانت الروايات الشفهية هي الأساس، فانطفأ ذكرهم و كادت أن تنطفى سيرتهم.

النسب

حسن آغا هو حسن آغا بن ابراهيم بن حاج مصطفى بن السيد عمر الأول بن السيد بكور السيد علي بن الشيخ جمعة بن شاهين بن ناصر بن غنيمة بن محمد ديب بركة بن الشيخ علي بركة بن الشيخ سليمان السبسي الكبير بن الشيخ محمد مهدي السبسي.

ولد حسن آغا تقريبا بين العامين 1730 - 1740 ميلادية لعائلة دملخية يعود نسبها إلى السيد سليمان بن محمد مهدي السبسي. لا نملك معلومات

كثيرة عن مكان ميلاده و لا تفاصيل حياته لكن يمكننا الوصول إلى سيرة جيدة له تؤرخ زمانه و تؤرخ حياته. منذ أوائل القرن السابع عشر و بعد معركة اللاوند تأسس فرع الدمانخة السبسية و هربوا تاركين موطنهم حول حماة هربا من بطش حكام المنطقة المتمردين على الدولة العثمانية.

لا نملك معلومات عما حدث لهم بعد هربهم و تشردهم لكن القصص التي نتداول تشير إلى أنهم هربوا شمالا حتى أورفا. و ظل الغموض يكتنف حياتهم حتى جاء منتصف القرن السابع عشر الميلادي. لم أثر على ذكر كبير للدمانخة حتى منتصف القرن الثامن عشر الميلادي تقريبا. فخلال كل تلك الفترة يغلب الظن أن الدمانخة كانوا يعيشون في شمال سورية حوالي الساجور و جنوب تركيا الحالية كعائلة بدأت تكبر رويدا رويدا حتى شكلت قرابة منتصف القرن الثامن عشر عشيرة أصبحت معروفة و ذات حضور.

و من خلال تتبع الأحداث التاريخية نستطيع أن نعرف أن الدمانخة في تلك الفترة أصبح لهم فرسان ذوي شأن حتى أنهم أصبحوا قوة في يد الدولة العثمانية ضد قطاع الطرق و العشائر التي تغير على طرق التجارة و المواصلات.

أصبح الدمالحة في منتصف القرن الثامن عشر كما أشرنا قوة ذات شأن في المنطقة الممتدة من حوالي مسكنة حتى الساجور شمالا و جنوب تركيا الحالية. صادف صعود الدمالحة صعود رجل يدعى فحل الخليل من بني سعيد. هذا الرجل الذي ينتسب إلى زبيد القحطانية استطاع في منتصف القرن الثامن عشر تقريبا تشكيل حلف بني سعيد و هو حلف قبلي مكون مما يزيد عن الثلاثين عشيرة. و في نفس الفترة التي ظهر فيها فحل الخليل ظهر حسن آغا كوجه بارز من وجوه الدمالحة. و يبدو من تتبع الأحداث التاريخية أن حسن آغا قد دخل في حلف مع بني سعيد حتى عد الدمالحة منهم و كان هذا الحلف أداة فعالة في يد الدولة العثمانية في ذلك الوقت.

لقد كان هذا الحلف القبلي الذي نشأ في قرابة منتصف القرن الثامن عشر يتكون من القبائل التي كانت تعيش في المنطقة الممتدة من الساجور شمالا حتى الزور حوالي مسكنة جنوبا. و قد ضم هذا الحلف كل هذه القبائل التي كانت تعيش في هذا الحيز الجغرافي و أصبح فحل الخليل هو زعيم هذا الحلف من مقره في الزور حوالي مسكنة.

كان حسن آغا و الدمالحة يسكنون في المنطقة الواقعة من الساجور شمالا حتى منبج و ما حولها جنوبا قبل قيام هذا الحلف. و قد انضم الدمالحة إلى هذا الحلف و أصبحوا جزءا منه في منطقتهم على الساجور باتجاه

منبج جنوبا. و ما زالت المنطقة تحوي عدة أماكن تحمل إسم حسن آغا و ضريحا له لتدل بوضوح على منطقة الدماخة و مسكنهم التاريخي.



خريطة 4 خريطة تظهر مواضع تسمى على اسم حسن آغا في منبج و حولها و يظهر أيضا مكان ضريح حسن آغا داخل الدائرة

لقد شكل هذا الحلف القبلي الواسع قوة كبيرة في المنطقة و أعطيت سلطة كبيرة عملت أساسا على حماية طرق المواصلات و التجارة في شمال سورية كلها.

و نستطيع تأكيد ذلك عبر حوادث عديدة ذكرها التاريخ عن تلك الفترة. ينقل لنا التاريخ أن: "شمر كانت تقطع السابلة وتغير على القوافلات فبعث لهم والي حلب جيشا بقيادة رجل يقال له فحل الخليل ومعه عدة من الفرسان من عشائر بني سعيد ومن حالفهم من الدماخة والعفادلة

والعون فنزلوا في الباب وأخرجوا قسما كبيرا من الشمر إلى ناحية دير حافر ومات قائد الجيش في مدينة الباب ودفن في مقبرة آل سكر كما ذكر المؤرخ فتح الله الصايغ الحلبي في كتابه رحلة فتح الله الصايغ وبقي القليل من الفرسان في مدينة الباب ورجع الباقي إلى منبج والساجور وكان من هؤلاء الرجال الدماخلة والعفادلة والعون وهذا مما يقارب المئتي عام (حوالي 1750-1760) فاستقر العفادلة في وادي بطنان واحتلوا التل واستقر الدماخلة في مدينة الباب الحالية قريبا من الجبل ومن الجهة الشمالية للمدينة واستقر العون غربي تادف في مكان الصوامع اليوم فمن العوائل التي تعود لكل عشيرة الدماخلة هم اليوم : الجبليون، بيت الناقو، بيت الشيخ ويس، بيت المنلا، بيت حمادين، بيت عابو الشحير، ويوجد عوائل من الدماخلة غيرهم لكن أتوا بعدهم ليسوا مع الحملة³⁸.

الآغاوية

لقد كانت الدولة العثمانية تغدق بالألقاب على الأشخاص إما اجتنابا لخطر الفرد وعشيرته أو تقديرا للخدمات التي قدمت من قبله و من قبل

³⁸ نبذة عن عوائل الباب، النعيمي محمد قصي، موقع

[/https://www.cityalbab.com](https://www.cityalbab.com)

عشيرته. و يمكن ضرب مثل على ذلك بقصة عائلة الملاح الحلبية الشهيرة. وعائلة الملاح "تنتمي عائلة إلى عشيرة البونخيس المتفرعة عن عشيرة الدليم، إحدى عشائر العراق المعروفة بكثرتها ومكانتها، من ذرية الصحابي الجليل عمرو بن معدي كرب الزبيدي، قدم أسلافهم الديار الحلبية من العراق في مطلع القرن الثاني عشر الهجري (القرن الثامن عشر الميلادي) واستوطنوا منطقة الجبول؛ فغدت مألحة حلب التي بجوارها في حوزتهم. وبلغ من سطوتهم، إزاء ضعف الدولة العثمانية، أن احتكروا تجارة الملح المستخرج منها، وكان مصدر دخل كبير للدولة آنذاك؛ ومنه جاءت تسميتهم فلقبوا لذلك ببني الملاح. وفي مسعى من العثمانيين لاسترضائهم فقد أقروهم فيها وولهم أمانة مملحة الجبول وفق نظام ال(مالكانه) الذي يقضي بمنحهم التزام ضرائبها مدى الحياة، وهي وظيفة استأثروا بها حتى عهد متأخر من القرن الثاني عشر الهجري مع منحهم لقب ال آغا. وأما أول من قدم منهم إلى حلب واستوطنها فهو جدهم الأعلى أبو بكر آغا أمين الجبول معيناً قائداً للجيش (كتخدا) في عام 1189 هجرية حوالي العام 1775 ميلادية".

فقام بأعبائه مع احتفاظه بأمانة الجبول، ثم أصبح متسلم حلب في عام 1190 هجرية حوالي 1776 ميلادية ، فجمع بينها حتى عام 1194 هجرية حوالي العام 1780 ميلادية.³⁹

لقد كان من عادة الدولة العثمانية شراء الولاءات عبر الأعطيات و الألقاب و المنح خصوصا لأولئك الذي يتمتعون بخلفية قبلية كبيرة وقوية أو سطوة و منعة و سلطة. و لعنا يمكن أن نجزم أن حسن آغا قد نال لقب الآغاوية في قرابة نفس الفترة التي نالها أسلاف آل الملاح. كانت تلك الفترة هي فترة ضعف و عدم سيطرة تامة للدولة العثمانية على الديار الشامية كلها فعمدوا الى تثبيت حكمهم عبر الزعامات المحلية و جلبهم الى صفها. لقد أعطي حسن آغا لقب الآغاوية تقديرا لدوره و عشيرته الدمانخة في حماية طرق التجارة و المواصلات و نتيجة أيضا لمكانتهم و قوتهم و نسبهم الشريف الذي يعود الى السيد سليمان السبسي الرفاعي الحسيني. لقد كان حسن آغا و عائلته و حلفه القبلي مسخرا لتقديم الخدمات للدولة العثمانية و والي حلب التي كان يعيش فيها و تحت سلطة واليها.

لا نعرف بالضبط متى أعطي حسن آغا الآغاوية هل قبل حلف الدمانخة مع بني سعيد و فحل الخليل أم بعدها. إننا نعرف تفاصيل

39 حجة من محاكم حلب الشرعية، دكتور مراد كوراني زادة

الأحداث التي جعلت الدولة العثمانية تمنحه لقب الآغا وهي ما ذكرناها سابقا، و لكن تطفو على السطح أيضا قصص تاريخية تجعلنا نقوم بمناقشة ما حدث في تلك الفترة و أقصد تماما قرابة منتصف القرن الثامن عشر الميلادي بشكل مفصل أكثر.

لقد شهد هذا القرن تحديدا بداية ضعف و تحلل سلطة الدولة العثمانية في بلاد الشام بعد قرابة قرن من الاستقرار الذي عاشته بلاد الشام تحديدا، خصوصا بعد قمع تمرد جنبلات باشا و حلفائه في نهاية القرن السادس عشر ميلادية. لقد بدأ الضعف يدب في أوصال الدولة العثمانية و أضحى السلطات المحلية رويدا رويدا تأخذ مكانها كسلطة أمر واقع بينما كان الولاة يكتفون نوعا ما بسلطتهم المعنوية خارج المدن و بسلطة أكبر داخلها. لقد شهدت نفس هذه الفترة الزمنية ثورات عديدة للأشراف داخل حلب و كان للدمالحة كونهم أشرافا دورا فيها حتى وصل الأمر الى دخولهم مع بني سعيد الى حلب و غزوهم لها. و قد يكون أيضا سبب منح حسن آغا لقب الآغاوية هو رفعه ليكون من الطبقة الحاكمة في الدولة فتكسبه الدولة العثمانية الى جانبها بدلا من أن يكون هو و عائلته خصما بها.

الأشراف و حلب

لقد تحالف بنو سعيد مع الدمانحة الأشراف و تاريخيا كان الدمانحة خصوصا و الأشراف عموما في نوع من الصراع مع العسكر العثمانية لكنهم كانوا قد نالوا الكثير من الامتيازات لكونهم أشرافا أيضا. لقد كانت العلاقة دائما بين الأشراف في حلب و السلطات العثمانية داخلها في منتصف القرن الثامن عشر الميلادية مضطربة بشكل كبير. لقد شهدت هذه الفترة حدوث ثورات كثيرة للأشراف، و لقد عاصر حسن آغا أحداثا كثيرة وقعت بين منتصف القرن الثامن عشر وحتى قرابة العام 1770 ميلادية. و قد نقلت لنا روايات كثيرة عما حصل في ذلك الزمن تحديدا. و كما أسلفنا نال الدمانحة مكانة كبيرة عند والي حلب و الدولة العثمانية بشكل عام نتيجة دورهم في حراسة طرق التجارة ومنع قطاع الطرق من اقلاق راحة المسافرين. لقد كانوا بشكل عام فرسانا أقوياء مهابين حتى أن زعيمهم أو أحد زعمائهم حسن آغا قد نال لقب الآغاوية. و قد ساهمت قوتهم ونفوذهم في جعلهم ينضمون لحلف قوي هو حلف بني سعيد شرقي حلب قرابة منتصف القرن الثامن عشر أيضا و المرجح أن هذا الحلف قد تم بوجود حسن آغا.

لكن التطورات التي حدثت بعد ذلك كانت مقلقة للجميع: للدولة العثمانية و لحلف بني سعيد و من ضمنهم الدمانحة. لقد شهدت تلك الفترة اضطرابات يمكن أن نرجع جزءا منها الى السياسة الدولية و التغيرات التي أخذت تجري حوالي الدولة العثمانية و تمكن الضعف منها. و للمفارقة فإن هذه الاضطرابات لم تكن محصورة في المنطقة المحيطة بحلب فقط، بل انتشرت من مصر الى الشام و إلى أعماق نجد. لقد أسست تلك الفترة لتعميق ضعف الدولة و وضع أسس تفتيتها و هذا بحث طويل قد لا يكون هنا المجال لسرده. لكن يمكن لنا أن نقول أن هذه الفترة شهدت تمرد المماليك في مصر على الدولة العثمانية و بداية تشكل الدعوات المختلفة سواء كانت الوهابية أو غيرها في أرجاء الدولة العثمانية حتى وصل الأمر بهذه الدعوة الى غزو الشام و العراق في نهاية القرن الثامن عشر، كما شهدت نفس الفترة تمرد الظاهر عمر في عكا.

على العموم تنقل لنا الروايات أن خلافا حدث بين والي حلب و بني سعيد مما أدى الى غزو بني سعيد لحلب و معهم فرسان الدمانحة. تقول الرواية:

"تحول بطال من والٍ على ولاية كلس إلى متمرد على الدولة العثمانية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، فامتنع عن دفع الضرائب

وحضّ الناس على التمرّد ونصب كائن لبغال الخراج والضرائب المذهبة من الشام إلى إسطنبول، متحصّناً بقلعة الباسوطة. وعندما ضيّقت عليه قوَّات السلطنة وحاصرته هرب لاجئاً إلى العشائر العربية في ريف حلب الشرقيّ التي تهيّبت حمايته لأن السلطنة العثمانية كانت تمتلك في ذلك الوقت المدافع "الكّلة والطوب".

تقول الرواية الشعبية إن بطّال لجأ إلى شخص معروف حينها اسمه "فحل الخليل" الذي كان ينزل في نواحي شرقي حلب بين الخفصة ومسكنة في قرية يقال لها اليوم "غدّيني"، لكنّ "فحل" تهيّب قبول "الدخيل" خوفاً من القوّة العثمانية الباطشة. ولما كانت زوجته من عشيرة غير عشيرته، إذ كانت من عشيرة "العفادلة" التي تنزل الرقة ومحيطها، واسمها "بيضا"، على عادة العرب في تسمية النساء، بيضا وشقرة وسمرّة إلخ، انتفضت "بيضا" على زوجها وخيرته بين تطليقها وقبوله حماية بطّال. إذ تقول المرويات المتداولة أنه بينما امتنع "فحل" عن قبول حماية "بطّال"، متذرّعاً بأن من سيعاديه يملك "الكّلة والطوب"، خرجت "بيضا" من خدرها لتواجهه ببيت عتابا تذكّره فيه بأنه فارس يستحقّها ويستحقّ فرسه البيضاء أيضاً. تقول العتابا:

فحل عرّ الدخيل وعرّ بيضا
وعرّ الشاخنة بالطول بيضا

فحل خاصم الوزر وأهل البويضا

وحى بطّال من والي حلب

فما كان من "فحل" إلا قبول حماية من احتّمى به، وإلا استذهب زوجته إلى أهلها محتجّة بجُبنه وسيكون سيرة في الانهزام والخنوع.

انتشر الخبر في البلاد، من أن "فحل" حمى "بطّال"، فاجتمعت العشائر العربية في أغلبها وعقدت تحالفاً وحلفت يميناً على القتال حماية لـ"بطّال" ولشرفها في أن "بطّال" الكرديّ أكسبها شرف لجوئه عندها. قامت الحرب إثرها بين العشائر العربية والسلطنة، وامتدّت وصولاً إلى حلب التي كانت خيمة القيادة فيها في "ظهرة عواد" المعروفة اليوم، و"عواد" هو عبد من عبيد "فحل"، فحاصرت العشائر حلب واحتلتها في موقعة شهيرة، أسرت فيها والي حلب. وقد قال يومها رجل من "الدمالحة" المعروفين بأنهم يقولون العتابا واسمه "مكحول"، من بين عشرات الأبيات المروية عن الحادثة، بيت العتابا الشهير:

نزلنا على شها المدينة وبدينا

ولوينا شارب العايل بدينا

يا كم خصم قتلنا ولا ادّينا

ولا نمنا فزيزين من الاجناب

وتشير الرواية الشعبية المذكورة إلى أن الحادثة قد وقعت حوالي النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي و تبررها بنخوة عربية من قبل فحل الخليل يجاه بطل آغا الذي استجار بهم. ولا تذكر الرواية التفاصيل الأخرى عن الاسباب التي أدت الى ما حدث عدا عن استجارة بطل آغا ببني سعيد."

والرواية تشير بوضوح الى وجود دملخي عايش وعاصر وشارك فيما حدث وهذا مفهوم كون الدمالحة كانوا في حلف مع بني سعيد ومع فحل الخليل وما الأبيات التي قالها الشاعر الدملخي عن تفاصيل ما حدث إلا تثبت تاريخي لهذه المشاركة.

يبدو واضحاً من السياق الذي رويت فيه القصة أن هذه الأحداث قد وقعت بعد نشوء التحالف بين الدمالحة و بني سعيد والمرجح أنها حدثت وحسن آغا كان أحد أبطالها.

إن الحادثة بشكل عام قد حصلت لكنها بعيدة عن بطل آغا وهو أمر يذكره الغزي في نهر الذهب⁴⁰ فيقول:

"وفي سنة 1206 هجرية أي 1792 ميلادية كتبت الدولة إلى كوسه مصطفى باشا- المقيم في ظاهر حلب- أن يسير على نوري باشا بطل آغا

⁴⁰ نهر الذهب في تاريخ حلب، كامل الغزي، دار القلم، طبعة 1991

زاده، وكان عاصيا على الدولة في عينتاب. وذلك أن نوري باشا كان من وجهاء عينتاب ويده مقاطعتها فظلم وبغى، حتى اضطر أهل عينتاب إلى أن يستعينوا عليه بمحمد علي باشا طبان زاده متصرف كلز، فدعوه إليهم وسلموه قيادتهم فهرب منه نوري باشا، واستقر هو في عينتاب وصفا له الوقت وسلك سنن من قبله من الظلم والعسف، حتى أسف الناس على نوري باشا. ولما عيل صبرهم منه هجموا على ولده الذي كان يده مقاليد أموره وقتلوه شر قتلة وتخلصوا من جورهم. ولما سمع بذلك نوري باشا اغتم الفرصة وحشد أخلاطا من التركان وقصد عينتاب وحصرها، وقطع طريق حلب وصار ينهب الأموال ويقتل النفوس.

واتصل خبره بالدولة فعينت درويش عبد الله بك عزت بك زاده، فشى نحوه بالعساكر الوفيرة واتفق في هذه البرهة أن مر بتلك الأطراف ككى عبيد باشا قائد الجيش السلطاني وكان معزولا من مصر، فدخل عليه نوري باشا واستشفع به للدولة، فضمن له العفو بشرط أن يكون بمعيته. وكان عبد باشا متوجها إلى ديار بكر فتوجه نوري باشا معه وأقام بها إلى أن توفي عبيد باشا. وعندها خرج نوري باشا من ديار بكر وعاد إلى فسادة وقصد عينتاب، واتفق مع زمرة السادات واستولى على اليكجيرية وأحرق دورهم ونهب أموالهم، ثم حصن القلعة وأقام بها

كالمتحصن لأنه خاف عاقبة فعله، إلى أن كتبت الدولة إلى كور مصطفى باشا بالمسير عليه في السنة المتقدم ذكرها، فتوجه نحوه وحاصره في القلعة خمسة أشهر إلى أن ظفر به وقتله مع جماعة من حاشيته وقطع رؤوسهم وأرسلها إلى حلب ومنها إلى استانبول.

و الواضح فيما ذكره الغزي ان قصة بطل آغا لم يحدث فيها ما تناولته الرواية الشعبية بل انتهى كما ذكر مقتولا في عينتاب. ولم تذكر رواية الغزي اي دور للقبائل او العشائر في مساندته أو حتى مجرد الإشارة الى دخولهم حلب في تلك الفترة التي حدثت فيها حادثة بطل آغا. إذا فالقصة ضبابية نوعا ما تخلط بين حوادث مختلفة متباعدة قليلا و هو ما يدفعنا الى البحث عن مصادر اخرى توصلنا إلى فهم ما حدث.

فقد ذكر محمد كرد علي في خطط الشام إشارة الى بطل آغا في أحداث 1206 هجرية فقال:

"وهجمت أهالي حلب على بطل آغا نوري ومحمد آغا وعلى عسكره وحصل بينهما مناوشة أدت إلى انهزامه خارج حلب، وتوجه إلى عينتاب وحاصرها خمسة أشهر إلى أن قتل وحمل رأسه أربعة وعشرين من العصاة إلى الأستانة. قال جودت: وكان هؤلاء الخونة يقتربون إلى رجال الأستانة بالأمور الدنيئة فينصبونهم حكاماً في بعض المقاطعات

يفسدون في الأرض ويتسلطون على عباد الله حتى ترفع الرعية علم العصيان وتقاوم الحكومة ولا تبعة في ذلك إلا على رجال الدولة.⁴¹

و الواضح من الروايتين اللتين ذكرهما الغزي و محمد كرد علي هو عدم ذكر أي دور للعشائر في مساندة بطل آغا رغم تطابق الروايتين في التواريخ. ورغم هذا التطابق إلا أن التفاصيل لا تبدو متشابهة. فما ذكره الغزي لا يشير الى تمكن بطل آغا من دخول حلب و طرده منها من قبل أهلها و هو ما ذكره محمد كرد علي في خطط الشام. فالتفاصيل مختلفة بشكل كبير إلا أن الروايتين تتفقان على تاريخ حدوثهما في العام 1206 هجرية 1791 ميلادية و على أن بطل آغا قد قتل في عينتاب و حمل رأسه إلى الأستانة.

ان تتبع المصادر التاريخية المتاحة تمكنا من الوصول الى تفاصيل أوفى وأدق عما حدث تحديدا في تلك الفترة. لقد ذكرت تفاصيل لما حدث في كتاب تاريخ حلب الطبيعي و قد عاصر مؤلفه تقريبا تلك الحوادث وذكرها في كتابه. وفي البداية لا بد لنا من التعريف بكتاب تاريخ حلب

⁴¹ خطط الشام، محمد كرد علي، مكتبة النوري الطبعة الثالثة 1983

الجزء 3 صفحة 9

الطبيعي. يعتبر هذا الكتاب من أهم المصادر التي وثقت للحياة في حلب في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي وقد كتبه طبيبين انجليزيين كان يعملان كطبيين للقنصلية الانجليزية في حلب وهما الأخوين باتريك والكسندر راسل. وقد دون الأخوين في هذا الكتاب ووثقا تفاصيل حلب و الحياة فيها و كتبنا عن الناس و الجغرافيا و التاريخ و حتى الأمراض المنتشرة و حتى انهما كتبنا عن الحيوانات و الطقس بطريقة مذهشة مليئة بالتفاصيل. وقد ذكرنا أيضا عن الاحداث التي حصلت في حلب و التي عاصراها أو حدثت قبل قدومهم بقليل. يروي كتاب تاريخ حلب الطبيعي أنه في العام 1769 حدث تمرد للأشراف في حلب مستغلين مغادرة واليها مع جيش لدعم المجهود الحربي للدولة العثمانية في حربها التي كانت قد بدأت للتو مع الإمبراطورية الروسية. يقول الكتاب:

"أنه بعد بداية الحرب الروسية بفترة وجيزة، (في ١٧٦٩)، استغل ذوو العمام الخضر (الأشراف) فرصة غياب الباشا والإنكشارية، الذين ذهبوا إلى المعسكر، واستولوا على حكومة المدينة، وعلى البوابات، وأرغموا جميع أتباعهم على حمل السلاح، وكان من الالاف للنظر في ذلك الوقت الشجاعة التي كانت تتمتع بها العجائز في شتم الثوار، الذين كانوا يتجولون ليل نهار وهم مدججين بالسلاح في الشوارع العامة. وبدا

أن النساء لم يكن يخشين شيئاً، إلا عندما كان العصاة يشربون حمرة، وفي غمرة هذه الفوضى والاضطرابات التي دامت عدة أسابيع، لم يحدث أي شيء يثير الرعب بشكل عام، إلا في حالات قليلة كان الثوار يداهمون فيها الحرملك بالقوة بحثاً عن سيد البيت الذي يرفض الانضمام إليهم".⁴²

وقد ذكر الغزي في كتابه نهر الذهب في تاريخ حلب عن فتنة الاشراف التي ذكرها كتاب تاريخ حلب الطبيعي فقال:

"وفيها (1183 هجرية) اي 1769 حصل بين الأشراف واليكجيرية وقعة عظيمة واشتد القتال والنهب، ونهبت قيسرية العرب تحت القلعة ونفي عدة أشراف. وفي رمضانها المصادف لتموز وقع مطر غزير أخرج أماكن عديدة، من جعلتها مكتب في محلة باحسيتا انهدم على عشرة أولاد من اليهود وحاخام وامرأة. وفي محرم سنة ١١٨٤ عين محمد باشا والي حلب سر عسكرا ووليها مكانه عبد الرحمن باشا فوصل إليها في رجب".⁴³

⁴² تاريخ حلب الطبيعي، باتريك و الكسندر راسل، دار شعاع

⁴³ نهر الذهب في تاريخ حلب، كامل الغزي، دار القلم، طبعة

ثم ذكر الغزي أيضا انه في العام التالي 1184 هجرية أي العام 1770 حدث فتنة أخرى بين الأشراف والدالاتية فيقول:

"وفيها كانت الفتنة قائمة بين الأشراف والدالاتية، والأشراف هم الغالبون، فحاصر الوالي حلب وقطع القوافل عنها ثم دخلها وقت الفجر من باب قنّسرين، وهاج الأشراف وأطلقوا عليه الرصاص. وعظمت الفتنة بينهم وبين الدالاتية واستمر الحرب أربعاً وعشرين ساعة ثم هرب الأشراف، وهجم الدالاتية على سوق الجمعة ونهبوا البيوت والدكاكين وقيسرية العرب وأحرقوا جملة من بيوتها. وقبض الوالي على نقيب الأشراف وحبسه ثم نفاه. وفي جمادى الآخرة منها اجتمع جم غفير من العلماء والعوام ودخلوا المحكمة الشرعية وطلبوا رفع بعض بدع وأمور منحرفة عن الدين، فأجيبوا إلى ما طلبوا. وفي سنة ١١٨٥ ولي حلب محمد باشا عظم زاده، وكان الأشراف في قيام وثورة فأغلقوا دونه أبواب حلب ومنعوه من الدخول إليها، واشتعلت نار الحرب بينهم نحواً من أربعين يوماً. ثم في غرة ربيع الثاني منها وصل إليه المدد فغلبهم ودخل حلب وجازى المفسدين".⁴⁴

و الواضح كما يروي الغزي أن ثورة الاشراف في حلب قد استمرت من العام 1183 حتى 1185 أي حوالي سنتين لكن حدث سيطرة

⁴⁴ نهر الذهب في تاريخ حلب، كامل الغزي، دار القلم، طبعة

الأشراف على حلب قد وقعت تقريبا بين العامين 1769 و 1770 وهو ما يتقاطع مع ما ذكره كتاب تاريخ حلب الطبيعي. ان الواضح مما ذكر في الرواية الشفهية و رواية تاريخ حلب الطبيعي و رواية الغزي أن ثورة كبيرة في حلب قادها الأشراف ضد السلطات المحلية و تمكنوا من السيطرة لفترة بسيطة على المدينة وبواباتها لكن لا الغزي ولا تاريخ حلب الطبيعي ذكر أي مساهمة من خارج أسوار حلب قد قدمت للثوار.

واننا ان افترضنا ان جزءا من رواية دخول بني سعيد و حلفائهم الدمالحة الى حلب هي صحيحة فإننا يمكننا القول و الاستنتاج بأن قصة بطل آغا هي الجزء المضاف الغير صحيح إلى القصة بافتراض أن دخول حلب قد وقع فعلا و لكن لأسباب مختلفة و في زمن مختلف. فقصة بطل آغا وقعت قرابة العام 1792 بينما قصة ثورة الأشراف قد حصلت قرابة العام 1770-1769 ميلادية. إن ربط قصة دخول بني سعيد مع الدمالحة الى حلب مع ثورة الاشراف يبدو منطقيا. فالثورة التي حصلت في حلب من الطبيعي أن تكون في حاجة لدعم من خارج الأسوار و الواضح ان المشاكل الكثيرة التي كانت تحصل بين الأشراف و السلطات المحلية كانت تدفع الاشراف الى البحث عن حليف خارج الأسوار. ان العلاقة كانت طوال قرون مضطربة بين الأشراف و السلطات المحلية في

الدولة العثمانية. ويكفي أن نشير إلى قصة نشوء الدمالحة وما حل بهم وكيف شردوا من ديارهم بعد موقعة اللاوند لنعرف فقط ان ما حدث مع أشراف حلب كان يحدث باستمرار. وهنا يمكننا ان نشير الى ما ذكره البديري الحلاق في يومياته المعاصرة لثورة أشراف دمشق لنفهم حدود هذه العلاقة المضطربة.

على العموم يمكننا القول بأن أشراف حلب قد استعانوا بأولاد عمومهم الأشراف الدمالحة لنصرتهم فكان أن هبوا ونصروهم بحلفهم مع بني سعيد فسيطروا على حلب لفترة قبل أن تأتي النجيدات من الجيش العثماني ليعيد السيطرة على حلب بعد أسابيع من القتال.

والأشراف الذين كانوا في حلب كانوا يميزون أنفسهم عن بقية الناس بعمامتهم الخضراء. وقد لاحظ صاحب كتاب تاريخ حلب الطبيعي ازدياد عدد من يلبسون العمامم الخضراء، فقد أصبح أولاد بنات الأشراف (الأسباط) يرتدون العمامم الخضراء انتساباً إلى أجدادهم الأشراف. وقد وصل الأسباط هؤلاء إلى حد تولي نقابة الأشراف في حلب كالسيد نعمان بن عبد الرحمن شريف الذي تولي نقابة الأشراف في حلب وهو قرشي تيمي وله أمهات من آل البيت من آل الزنابلي الزهريين الحسينيين ومن آل القدسي البانيين الحسينيين وهو الوحيد من الأسباط الذين تولوا هذه النقابة.

و كما قلنا فقد عاصر حسن آغا هذه الأحداث جميعا وربما كان مشاركا فيها و يمكننا هنا أن نستنتج سبب منحه لقب الآغا. ان الدولة العثمانية كانت تمنح هذا اللقب لمن يقدم الخدمات الكبيرة وهو ما كان يفعله الدمالحة و حسن آغا بحراستهم لطرق المواصلات، أو تجنبنا لعداوة. و قد تكون أحداث حلب هي الدافع لمنحه لقب الآغا لكسبه الى صفها و تجنبنا لعداوتها و هو شئ شبيه لما ذكرنا من مثل لمنح كبير عائلة الملاح لقب الآغاوية في نفس الفترة الزمنية التي منح فيها حسن آغا اللقب.

لقد جرت أحداث حلب في فترة اضطراب واسع عاشته الدولة العثمانية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. فنذ بداية الحرب الروسية العثمانية في حوالي العام 1770 ميلادية توالى الأحداث الكبيرة في بلاد الشام و مصر و انتهت باحتلال نابليون لمصر في العام 1798 ميلادية. لقد كانت هذه الأحداث التي وقعت نتيجة الصراع الأوروبي الكبير على ممتلكات الدولة العثمانية خصوصا بين الروس و الفرنسيين و الانجليز. لقد تجلى هذا الصراع في عمليات دعم أوروبي لحركات التمرد الداخلية على الدولة العثمانية و في إرسال الرحالة و الجواسيس لدراسة مواطن ضعف الدولة العثمانية الداخلية ومحاولة تأليب القوى الداخلية عليها. لقد شهدت هذه الفترة تمرد علي بك الكبير في مصر و أحمد باشا

الجزار في بيروت و الظاهر عمر في فلسطين و تمرد الشهابيين في جبل لبنان و غيرها الكثير من أحداث كلها تقريبا تزامنت أو تقاربت حتى بدت المنطقة أنها تعيش في حالة اضطراب كبير.

و يبقى السؤال هنا: هل ما عاشته حلب سواء من تمرد الأشراف وصولا الى تعاقب الولاة و عدم الاستقرار الداخلي بعيد عن الصراع الذي كان يدور على المنطقة؟

لا يمكن بأي حال إغفال التأثير الخارجي على الأحداث الداخلية لكننا لا نملك دليلا مباشرا يجعل من أحداث حلب جزءا من سياق ما كان يحصل في المنطقة لكن الأكيد أن تأثير المشهد العام في المنطقة لا بد أنه قد أثر على حلب وما شهدته من أحداث. عموما فإن حسن آغا كان شاهدا على هذه الأحداث سواء تمرد حلب أو حتى قصة بطل آغا إن كانت الرواية الشفوية الشعبية صادقة ودقيقة.

إعادة بناء الرواية

منذ معركة اللاوند و تشتت الدمانحة لم يظهر ذكر للدمانحة حتى منتصف القرن الثامن عشر تقريبا الذين كانوا يسكنون حوالي الساجور شمال حلب قرب الحدود التركية الحالية. كون الدمانحة حلفا عشائريا مع بني

سعيد و شيخهم فحل الخليل الذي كان يقطن في الزور حوالي مسكنة شرقي حلب حيث أمتد هذا الحلف من الساجور شمالا و حتى الزور حوالي مسكنة جنوبا.

عاصر حسن آغا تشكيل الحلف و ربما كان الطرف الدمليخي الذي حالف بني سعيد. ولد حسن آغا قرابة العام 1740 لعائلة دملخية يعود نسبها إلى سليمان السبسي بن محمد مهدي السبسي. و حسن آغا هو: حسن آغا بن ابراهيم بن حاج مصطفى بن السيد عمر الأول بن السيد بكور السيد علي بن الشيخ جمعة بن شاهين بن ناصر بن غنيمة بن محمد ديب بركة بن الشيخ علي بركة بن الشيخ سليمان السبسي الكبير بن الشيخ محمد مهدي السبسي.

شهد حسن آغا نشوء حلف بني سعيد و انضم إليه مع عشيرته الدمانخة. و كان الدمانخة فرسانا ساهموا بتفويض من الدولة العثمانية في حماية طرق القوافل و المواصلات شرقي حلب. و خلال الفترة بين العام 1769 و 1770 نشب تمرد في حلب من قبل الأشراف سيطروا خلاله على المدينة و الواضح أن هؤلاء الأشراف كانوا قد نالوا دعما من أولاد عمومهم الدمانخة. و تروي الرواية الشفهية أن الدمانخة مع بني سعيد قد سيطروا على حلب دعما لبطل آغا. لكن قصة بطل آغا تعود للعام 1792 ميلادية و لم تذكر أي مصادر تاريخية عن مشاركة الدمانخة و

بني سعيد فيها. و الواضح أن الرواية الشفهية تخلط بين الحادئين: بين قصة بطل آغا و تمرد الاشراف، لذلك فإن الواضح أن بني سعيد و الدمانحة قد دعموا أشراف حلب بسيطرتهم على المدينة قبل أن تتمكن الدولة العثمانية من استرجاعها. و الأكيد أن حسن آغا قد كان شاهدا على ما حدث و مشاركا فيه سواء أكانت قصة السيطرة على حلب تعود لدعمهم تمرد الأشراف أو أن القصة تعود لدعمهم بطل آغا، فقد كان حسن آغا شاهدا ومشاركا. لقد نال حسن آغا لقب الآغاوية و هو لقب كانت تمنحه الدولة العثمانية تكريما لدور أو كسبا لصف و اتقاء لشر و تمرد. فقد يكون منح حسن آغا اللقب ناتجا عن دوره و عشيرته في حراسة طرق التجارة و القوافل شرقي حلب و قد يكون ناتجا عما حصل سواء في أحداث تمرد الأشراف في حلب أو في دعم بطل آغا فأرادت الدولة العثمانية كسبه إلى صفها فنحت هذا اللقب. أعقب حسن آغا محمد علي الذي أعقب بدوره جدنا الحج أحمد.

حلف بني سعيد

قرابة منتصف القرن الثامن عشر نشأ حلف قوي بين الدمانحة الذين كانوا يسكنون في منطقة الساجور شمال حلب و بين فحل الخليل الذي

كان يقطن في الزور حوالي مسكنة شرقي حلب و من ورائه بني سعيد ضم العديد من القبائل التي كانت تعيش في المنطقة الممتدة من الزور حوالي مسكنة جنوبا حتى الساجور شمالا. كان هذه الحلف يشكل قوة كبيرة في شرقي حلب و كان يعمل تحت سلطة والي حلب الذي أعطاهم التفويض بحماية الطرق التجارية و طرق المواصلات من الأعراب و غاراتهم.

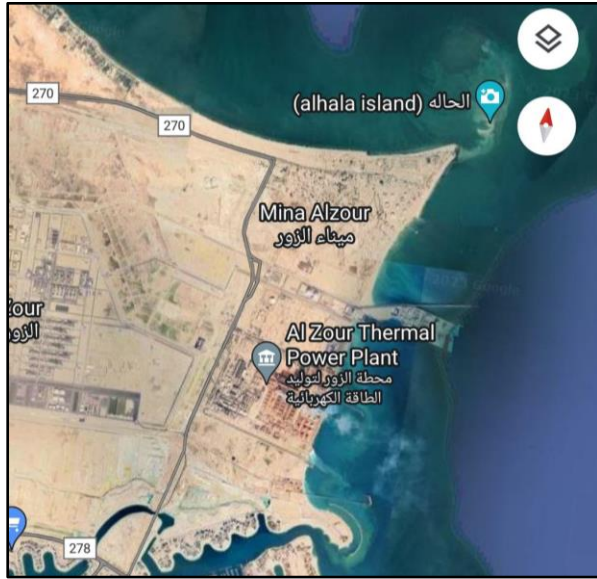
وقد ضم هذا الحلف قرابة 33 قبيلة مختلفة الأصول و المنابت كما يقول وصفي زكريا في كتابه عشائر الشام، كانت تعيش في المنطقة الممتدة من الزور حوالي مسكنة جنوبا حتى الساجور شمالا، و قد كان هذا الحلف بزعامة فحل الخليل.

و المنطقة التي نشأ فيها هذه الحلف هي منطقة الزور موطن و مسكن فحل الخليل على الفرات حوالي مسكنة شرقي حلب. و لعلنا هنا نتساءل هل الزور هي نفسها دير الزور؟

إن الزور هو الاختناق كزور الإنسان و هو الاختناق بين الفم و الصدر في القصبة الهوائية و كأن نقول بالعامية "بالزور" أي غصبا و رغم كل صعوبة و اختناق. و الزور مصطلح يطلق عموما على تكوين ينشأ عن فيضان النهر فيرسب فيها التربة الخصبة و يكون أرضا زراعية مروية و يطلق أيضا على المنطقة التي يعوج فيها النهر فيحيط الماء أرضا من أعلاها

وأسفلها فيشكل ما يشبه الاختناق في مسار النهر أو الماء و عندما يرتفع مستوى ماء النهر يرسب تربته في هذه الأرض فتصبح أرضا خصبة في حالة النهر.

و الحالة نفسها تنطبق على البحر، فعندما تدخل اليابسة في الماء وتشكل اختناقاً فيحيط الماء بها من أعلاها وأسفلها يطلق الناس على المنطقة اسم الزور كما في زور الكويت.



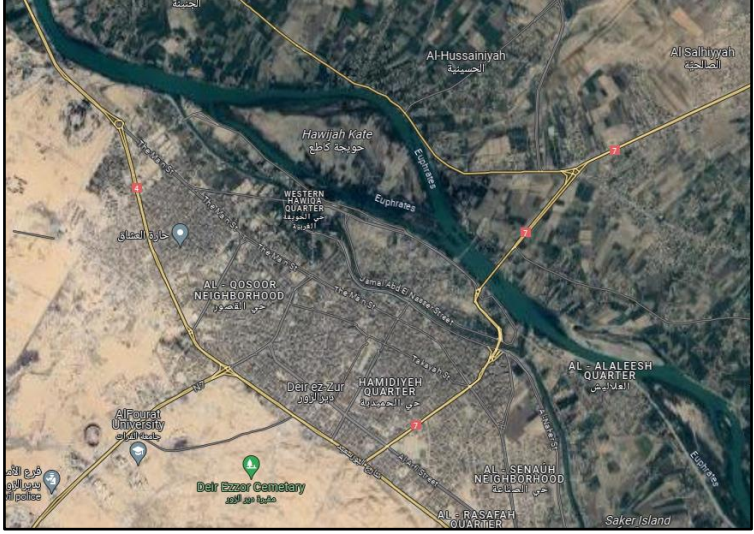
خريطة 5 زور الكويت

فالزور هو مصطلح عام يطلق على نوع معين من الأراضي و هو اسم شائع يتكرر في عدة أماكن و دول. فهناك الزور في العراق و الكويت و سورية.



خريطة 6 زور العراق

لكن السؤال هل في سورية عدة أماكن يطلق عليها اسم الزور؟ الواضح أن سورية فيها أكثر من منطقة تدعى بالزور. فالزور الشهيرة هي دير الزور و من مشاهدتنا للخريطة نستطيع ملاحظة الاختناق المائي الذي جعل اسم الزور يطلق عليها.



خريطة 7 دير الزور

و أرحح أنه كان هناك منطقة تدعى الزور شرقي مسكنة قبل أن يتم غمرها بحيرة سد الفرات. فالخريطة توضح لنا أن المنطقة في تشكيها تنطلق عليها تماما شروط وصفها بالزور والتي ذكرناها سابقا.



خريطة 8 زور مسكنة

لقد أضى الدمالحة جزءا من هذا الحلف الذي كان يضم في بداية القرن التاسع عشر 12000 بيت كما يروي فتح الله الصايغ في كتابه رحلة فتح الله الصايغ و هو رقم كبير جدا لا يضاهيه عدد مماثل في العشائر و

القبائل الأخرى. فيكفي فقط أن نعرف أن النعيم كانت تعد في ذلك الوقت حوالي 300 بيت فقط كما يروي أيضا فتح الله الصايغ. بينما قدر وصفي زكريا بعد 150 سنة تقريبا من رواية فتح الله الصايغ حوالي العام 1946 عدد بيوت بني سعيد ب 1000 بيت و هو رقم منطقي حيث ترك الكثيرون الحلف القبلي و انتشروا في شمال سورية سورية كلها كما حصل مع الدماخلة الذين ترك جزء كبير منهم الحلف وانتشروا في الشمال السوري كله حتى جنوب تركيا. إن هذا العدد الكبير من البيوت في بني سعيد الذي ذكره فتح الله الصايغ ناجم عن عدد العشائر الكبيرة التي كانت منضوية في حلف بني سعيد فقد كانت يضم هذا الحلف 33 عشيرة.

نص وصفي زكريا عن بني سعيد

ويمكننا من خلال تقاطع المصادر المختلفة فهم السياق التاريخي الذي نشأ فيه حلف بني سعيد. فيقول وصفي زكريا في كتابه عشائر الشام⁴⁵ عن بني سعيد:

⁴⁵ عشائر الشام، أحمد وصفي زكريا، طبعة دار الفكر، الطبعة الثانية

" بني سعيد عشيرة كبيرة متحضرة ذات فرق عديدة متباينة الأصول والمنابت ، ففي قول أن أصلها من أنحاء دير الزور جاءت من قرن ونصف ، بينما هي تدعى الانتساب إلى زيد ، كما تدعيه أيضاً عشائر العقيدات والأبي شعبان والجبور وغيرهم ، قيل أن هذه العشيرة في أواخر القرن الهجري الماضي، أي قبل قدوم الشركس إلى منبج كانت تقطن في الزور غربي الفرات حوالي مسكنة وشمالها ، ثم جاءت عشيرة الولدة وزاحتها ، فاضطرت إلى النزوح نحو أماكنها الحاضرة في الشمال ، حتى صار أكثرها في شرقي قضاء الباب ، وقليلها في غربي قضاء منبج وجنوبي قضاء جرابلس ، وعدد بني سعيد نحو ١٠٠٠ بيت ، وشيوخهم الأكبر هو الشيخ شلاش الإبراهيم الدرويش من فرقة الغنאים ، ونسبه شلاش بن إبراهيم بن درويش بن محمود بن خليل بن فحل بن خليل بن بكر بن عبيد بن محمد بن أسعد سعدون أمير زيد ، ويقول الشيخ شلاش أن الذي جاء إلى ضفاف الفرات في مسكنة وشمالها كان أسعد السعدون ، والذي أنشأ مجد هذه الأسرة وامتد نفوذه هو فحل الخليل ، فهو بجوده وحسن تدبيره ، جعل الفرق المنتسبة إلى بني سعيد تلتف حوله وتؤسس هذه العشيرة المتحدة وتسمى باسم (بني سعيد) . والشيخ شلاش المذكور ذو وجهة كبيرة في قضاء منبج ، وعضو مجلس إدارته ، وله حرمة بالغة في عشيرته ، وقد عرفته شيخاً

وقورا صائب القول والرأي ، ويليه في العشيرة من المشايخ حميدي
الأحمد وبكار هلال ، أما الفرق التي تعد من بني سعيد فهي : المجادمة
والخراج والدمالحة والعون والفلاش والبوصلاح والحمدون وبقي جميل
والبوعتيق وعمار وغنايم وشريرات والمسرات والخنافرة والبودبش وشمير
بني سعيد وبراغشة وعجلان والبوبطوش وعجيل بني سعيد وشيوخ
وجعابرة والبوععجوز والبوبنا وحسان ومغاليج وحليسات والبوب
سلطان وبني عصيد وحريصات ، وبعض الروايات تجعل بعض الفرق
من غير بني سعيد ، كالبوبنا الذين تقدم انتسابهم لعشيرة العبيد ،
والبوب سلطان الذين نسبوه إلى بقارة الزور ، والعون الذين نسبوهم إلى
فيس ، والبوبطوش الذين نسبوهم أيضاً إلى العبيد"

تحليل نص وصفي زكريا عن بني سعيد

(بني سعيد عشيرة كبيرة متحضرة ذات فرق عديدة متباينة الأصول
والمنابت)

تعليقي: أي أن بني سعيد هو حلف من قبائل مختلفة الأصول
(ففي قول أن أصلها من أنحاء دير الزور جاءت من قرن ونصف ،
بينما هي تدعى الانتساب إلى زبيد ، كما تدعيه أيضاً عشائر العقيدات

والأبي شعبان والجبور وغيرهم ، قيل أن هذه العشيرة في أواخر القرن الهجري الماضي، أي قبل قدوم الشركس إلى منبج (الشركس أتوا الى منبج في حوالي 1860-1880)، كانت تقطن في الزور غربي الفرات حوالي مسكنة وشمالها ، ثم جاءت عشيرة الولدة وزاحمتها ، فاضطرت إلى النزوح نحو أماكنها الحاضرة في الشمال ، حتى صار أكثرها في شرقي قضاء الباب ، وقليلها في غربي قضاء منبج وجنوبي قضاء جرابلس)

تعليقي: وهذا يثبت أنهم قد كانت تقطن في منطقة الزور حوالي مسكنة حتى منتصف القرن التاسع عشر ثم انزاحت شمالا بعد الاضطرابات القبلية التي حدثت في ريف حلب الشرقي حوالي منتصف القرن التاسع عشر

(وعدد بني سعيد نحو ١٠٠٠ بيت ، وشيوخهم الأكبر هو الشيخ شلاش الإبراهيم الدرويش من فرقة الغنايم ، ونسبه شلاش بن إبراهيم بن درويش بن محمود بن خليل بن فحل بن خليل بن بكر بن عبيد بن محمد بن أسعد سعدون أمير زيد ، ويقول الشيخ شلاش أن الذي جاء إلى ضفاف الفرات في مسكنة وشمالها كان أسعد السعدون)

تعليقي: و أول من جاء إلى منطقة مسكنة كان أسعد السعدون الذي يفصله عن فحل الخليل خمسة أجيال. ففحل الخليل هو فحل الخليل هو

فحل بن خليل بن بكر بن عبيد بن محمد بن أسعد السعدون. وإذا اعتبرنا الفاصل هو خمسة أجيال بين الشخصين فيمكننا تقدير أن أسعد السعدون قد أتى إلى مسكنة حوالي بداية القرن الثامن عشر. ففحل الخليل كان على قيد الحياة في حوالي العام 1811 كما يذكر فتح الله الصايغ في كتابه.

(والذي أنشأ مجد هذه الأسرة وامتد نفوذه هو فحل الخليل ، فهو بجوده وحسن تديره ، جعل الفرق المنتسبة إلى بني سعيد تلتف حوله وتؤسس هذه العشيرة المتحدة وتسمى باسم بني سعيد) تعليقي: هنا يرد ذكر فحل الخليل كمؤسس لحلف بني سعيد، فهو المؤسس لهذا الحلف.

(والشيخ شلاش المذكور ذو وجاهة كبيرة في قضاء منبج ، وعضو مجلس إدارته ، وله حرمة بالغة في عشيرته ، وقد عرفته شيخاً وقوراً صائب القول والرأي ، ويليهِ في العشيرة من المشايخ حميدي الأحمد وبكار هلال ، أما الفرق التي تعد من بني سعيد فهي : المجادمة والخراج والدمالحة والعون والفلاش والبوصلاح والحمدون وبقي جميل والبوعتيق وعمار وغنايم وشريرات والمسرات والخنافرة والبودش وشمربني سعيد وبراغشة وعجلان والبوطوش وعجيل بني سعيد وشيوخ وجعابرة والبو عجوز والبو بنا وحسان ومغاليج وحليسات والبو سلطان وبني

عصيد وحريصات ، وبعض الروايات تجعل بعض الفرق من غير بني سعيد ، كالربونا الذين تقدم انتسابهم لعشيرة العبيد ، والبو سلطان الذين نسبوه إلى بقارة الزور ، والعون الذين نسبوهم إلى فيس ، والبو بطوش الذين نسبوهم أيضا إلى العبيد)

تعليقي: وهنا يذكر وصفني زكريا أن الدمانحة كانت جزءا من حلف بني سعيد.

ففي الرواية التي نقلها وصفني زكريا نشاهد اضطرابا في تحديد الأزمنة والتواريخ التي حصلت فيها أحداث العشيرة الكبرى خصوصا من ناحية تاريخ تشكيل حلف بني سعيد و كيف و أين أسس. فينقل وصفني زكريا عن شيخ بني سعيد في العام 1946 شلاش الابراهيم أنهم قد أتوا من أنحاء دير الزور إلى مكانهم هذا قبل قرن و نصف أي عمليا كما يقول هو في بداية القرن التاسع عشر. و لا نعرف قصده عن مكانهم هذا هل هو منبج و ما حولها و هو المكان الذي كانوا يوجدون فيه في زمن كتابة الكتاب أم يقصد مسكنة و حوالها. فإذا كان المقصود منبج و ما حولها فإن الكاتب نفسه قد ذكر في نصه أن بني سعيد قد انزاحوا شمالا نحو منبج و ما حولها في نهايات القرن الثالث عشر الهجري (منتصف القرن التاسع عشر الميلادي) قبل قدوم الشركس إلى منبج

بعد مزاحمة من الولدة و هو ما يناقض كلامه تماما وأما اذا كان المقصود أماكنهم في مسكنه فإن وصفني زكريا ينقل عن شلاش الابراهيم يقول أن جد فخل الخليل أسعد السعدون هو من أتى إلى الزور حوالي مسكنة و هنا يمكن السؤال متى أتى أسعد السعدون إلى الزور؟ لا يوجد مصدر تاريخي واحد يذكر متى أتى أسعد السعدون إلى الزور حوالي مسكنة، ولكن يمكننا من خلال المقارنات التاريخية تقدير و معرفة متى أتى أسعد السعدون الى مسكنه. في البداية علينا أن نعرف أن أسعد السعدون لم يكن شيخا لبني سعيد بل ان بني سعيد لم تكن موجودة كقبيلة في عهده بل ان تأسيس القبيلة كان في عهد حفيده فخل الخليل. و من خلال فخل الخليل هذا نستطيع تتبع تاريخ قدوم أسعد السعدون الى حوالي مسكنة. يعد فخل الخليل هو نجم بني سعيد و مؤسسها. فقبله لم يكن هناك وجود لبني سعيد و لا ذكر لها. لقد قام فخل الخليل بتأسيس قبيلة كبيرة ذات نفوذ قرابة منتصف القرن الثامن عشر الميلادي بين العامين 1760 و 1770. و نستطيع استنتاج ذلك من الأحداث التاريخية التي عاشها. فهو بداية قد عاش فترة الاشراف و الانكشارية في حلب في العام 1770 ميلادية و هو أيضا في أواخر عمره عاصر الدريعي بن شعلان و قابله و حتى أنه دفع له الخوة بعد أن بدأ نجمه يخفت في حوالي العام 1811 ميلادية كما ذكر ذلك فتح الله

الصايغ في كتابه رحلة فتح الله الصايغ. لقد عاش فخل الخليل في الفترة الزمنية الممتدة بين منتصف القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر الميلادية ويمكن لنا من خلال تتبع نسبه وهو فخل الخليل بن بكر بن عبيد بن محمد بن أسعد السعدون أن نقول أن جده الخامس أسعد السعدون هو من أتى إلى الزور حوالي مسكنة و يصبح منطقيا أن نقول أن هذا الجد قد أتى قبل ولادته و ذبوع صيته أي قبل خمسين سنة على الأقل و ربما أقل من ذلك بقليل. إن التقدير الذي يمكن الوصول إليه من ذلك أن أسعد السعدون قد قدم الى الزور حوالي مسكنة في بدايات القرن الثامن عشر الميلادية أي قبل 250 سنة من كتابة كتاب وصفي زكريا. و عليه فإن هناك اضطراب في الرواية التي ذكرها وصفي زمريا خصوصا من ناحية ذكرهم أنهم قد أتوا قبل 150 عاما. عموما نستطيع أن نمجل ملاحظاتنا عن رواية وصفي زكريا:

1. فيقول وصفي زكريا " فني قول أن أصلها من أنحاء دير الزور جاءت من قرن ونصف " و بما أن كتابه أصلا مكتوب في منتصف القرن العشرين حوالي 1946 ميلادية فإنه يشير إلى أنهم قد أتوا من دير الزور في حوالي العام 1800 ميلادية لكن فتح الله الصايغ يقول بأنه قد التقى بفحل الخليل في العلم 1811 تقريبا في الزور حوالي مسكنة و المعروف أن فخل الخليل هو مؤسس حلف بني سعيد قرابة منتصف

القرن الثامن عشر فكيف يذكر الراوي أنهم قد أتوا الى الزور قبل 150 سنة أي في عهد فحل الخليل بينما هم قد أتوا في عهد أسعد السعدون كما ذكر لاحقاً. والمنطقي هنا أن جد فحل الخليل أسعد السعدون قد أتى الى منطقة الزور في حوالي بدايات القرن الثامن عشر أي قبل 250 سنة من تاريخ كتابة كتاب وصفي زكريا في العام 1946.

2. ويقول وصفي زكريا: "ويقول الشيخ شلاش أن الذي جاء إلى ضفاف الفرات في مسكنة وشمالها كان أسعد السعدون". وقولهم هذا يدل انهم اتوا الى حوالي مسكنة قبل اكثر من 250 سنة من تاريخ الكتاب 1946. فأسعد السعدون بينه وبين فحل الخليل خليل و بكر وعبيد و محمد أي خمسة أجيال فكيف يقولون إنهم أتوا قبل 150 سنة !!! لقد أتى جد فحل الخليل إلى حوالي مسكنة حيث أسس فحل الخليل حلف بني سعيد قبل 250 سنة من تاريخ كتابة كتاب وصفي زكريا في العام 1946.

3. و كان شيخ بني سعيد في منتصف القرن العشرين كتابة وصفي زكريا هو الشيخ شلاش الإبراهيم الدرويش من فرقة الغنאים ونسبه شلاش بن إبراهيم بن درویش بن محمود بن خليل بن فحل بن خليل بن بكر بن عبيد بن محمد بن أسعد سعدون أمير زبيد. و حسب قاعدة الجيل فإن هناك خمسة أجيال بين شلاش و فحل الخليل و

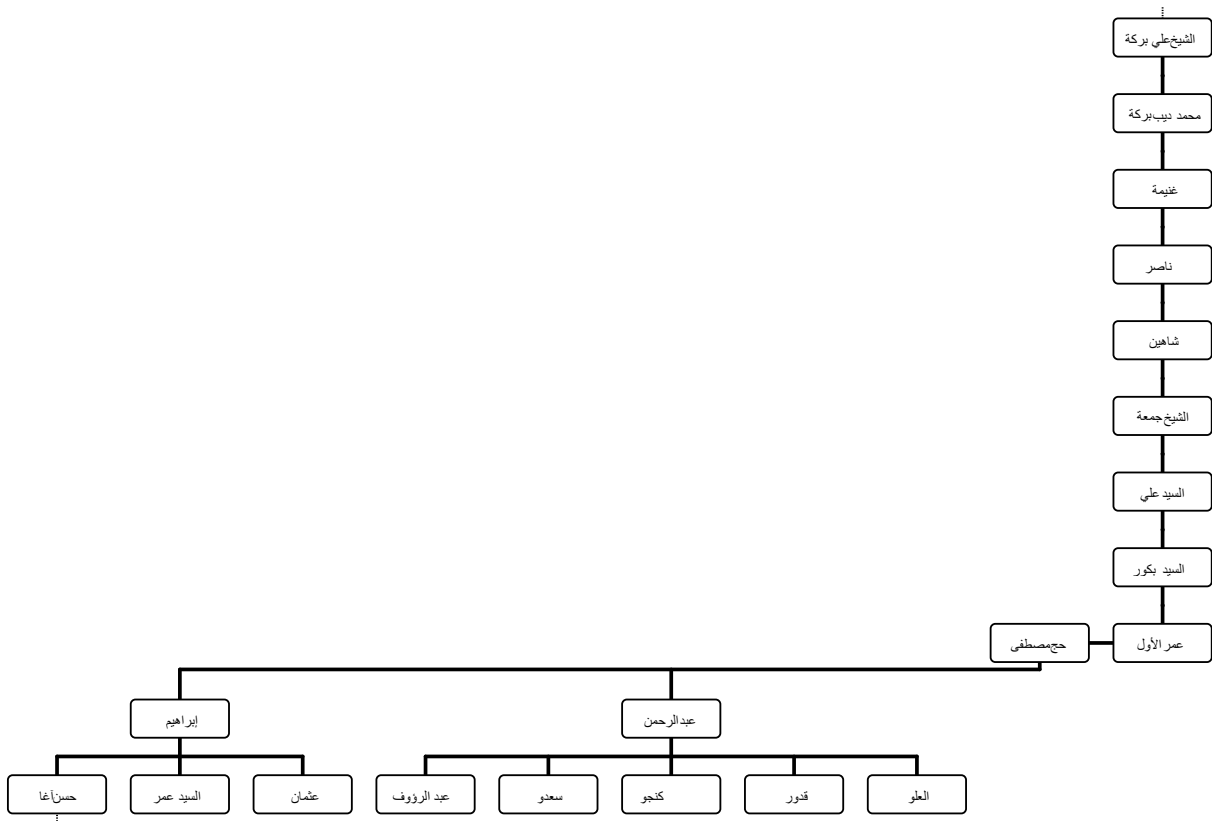
نفرض ان عمر شلاش هو في العام 1946 50 سنة اي مواليد 1900 تقريبا ففحل مولود قبل 5 (*) 33 اي 165 سنة أي 1740 ويصبح بالطبع منطقيا أنه قد شكل حلف بني سعيد قرابة العام 1760-1770. فالحادثة الكبيرة التي دلت على وجود خلف بني سعيد كانت في ثورة الأشراف في حلب في العام 1869-1879 و دخول بني سعيد الى حلب في ذلك الوقت دعما للأشراف الذين يشكلون أيضا جزء من حلف بني سعيد متمثلين في الدمانحة. لقد كان فحل الخليل في عزه في ذلك الوقت يقود حلفا قويا لكنه مع بداية القرن التاسع عشر و بروز الرولة و الحسنة بدأ يفقد بريقه بفعل السن وظهور قوى كبيرة على الساحة حتى أنه قد دفع الخوة الدريعي بن شعلان شيخ الرولة في العام 1811.

إن الاستنتاج العام عن بني سعيد يدل على أنهم حلف قبلي تأسس حوالي مسكنة و شمالها قرابة منتصف القرن الثامن عشر 1760-1770 الميلادي بواسطة فحل الخليل الذي جمع حواله حوالي 33 قبيلة مختلفة الاصول و المنابت فشكل بذلك تحالفا ضاربا ضم في بداية القرن التاسع عشر حوالي 12000 بيت كما روى فتح الله الصايغ في كتابه. و لم يكن لبني سعيد وجود قبل فحل الخليل بل كانوا قبائل متفرقة مختلفة الأصول والمنابت لكنها أضحت قبيلة متحدة بداية من منتصف

القرن الثامن عشر الميلادية. ترجع نواة تأسيس بني سعيد الى جد فحل الخليل أسعد السعدون الذي قدم الى مسكنة قرابة بدايات القرن الثامن عشر الميلادية. لقد شكل قدومه بداية السعي إلى تشكيل حلف قبلي في المنطقة يحمي أفراده أساسا ويشكل قوة مهابة من ناحية أخرى. لم يكمل هذا السعي بالنجاح إلا على يد فحل الخليل في منتصف القرن الثامن عشر.

و فحل الخليل هو مؤسس حلف بني سعيد ولد قرابة منتصف القرن الثامن عشر الميلادية قرابة العام 1740-1750 وهي نفس الفترة التي ولد فيها تقريبا حسن آغا و قد قام فحل الخليل بتأسيس حلف بني سعيد قرابة منتصف القرن الثامن عشر الميلادي بين 1760 و 1770 . و قد وصف وصفي زكريا بني سعيد بأنهم قبيلة متحضرة و الأخرى أنها حلف قبلي متحضر و قد أشار إلى ذلك فتح الله الصايغ بأنها قبيلة لا تشرق (أي لا تتجه شرقا كعادة البدو في الشتاء و لا يغربون صيفا كعادتهم أيضا) بل تحافظ على مسكنها على الفرات في الزور حوالي مسكنة. لكن نجم فحل الخليل بدأ يخفت تدريجيا بعد أن كان حلفه القبلي قويا ذا مكانة كبيرة خصوصا مع بروز قبائل و أحلاف قبلية قوية كالرولة و الحسنة في نهايات القرن الثامن عشر الميلادي حتى أن فحل الخليل قد قبل دفع الخوة للدريعي بن شعلان في قرابة العام 1811

لتجنب شره وهو ما ذكره فتح الله الصايغ في رحلته المشهورة. ويمكننا القول أن حلف بني سعيد قد بدأ يتفكك أيضا بشكل عملي بينما بقي بشكل اسمي بعد موت فحل الخليل ويمكننا تتبع ذلك من مغادرة كثير من الدمانحة موطن هذا الحلف وانتشارهم في أماكن كثيرة وبعيدة عن موطن الحلف الأصلي.



"إن الله تعالى جعل لكل شيء قدراً، ولكل قدر حداً،
ولكل حد سبباً، ولكل سبب أجلاً، ولكل أجل كتاباً،
ولكل كتاب أمراً، ولكل أمر معنى، ولكل معنى صدقاً،
ولكل صدق حقاً، ولكل حق حقيقة، ولكل حقيقة
أهلاً، ولكل أهل علامة . فبالعلامة يُعرف المحق من
المبطل، وكل قلب أقعده على بساط تحقيق المعرفة،
وقع بسياء المعرفة على وجهه، ويظهر أثرها في حركاته،
وأفعاله، وأقواله"

الإمام أحمد الرفاعي

حج أحمد (الحجي)

كل عائلة تنسب إلى جد و يصبح هذا الجد هو اللقب العائلي الذي يلتصق بجميع أسماء أفراد العائلة الصغيرة والكبيرة. عادة ما يكون الشغل الشاغل لأي فرد هو تفصيل اسمه و معرفة كل ما يتعلق به من الاسم الشخصي الى اسم الجد المباشر الى اسم الجد الكبير الذي بمرور الزمن يتحول إلى اسم العائلة. لقد تحول جدنا حميدو الى اسم عائلة كبيرة تنسب اليه لكن معظم من ينتسبون اليه لا يعرفون تفاصيل كثيرة عنه الا بضع روايات شفوية لا تذكره كثيرا بقدر ما تذكر العائلة التي انحدر منها و تفاصيل حياتهم و تنقلهم واستقرارهم.

لا توجد تواريخ دقيقة أو روايات كاملة عن جدنا حميدو و الذي حملنا اسمه كلقب عائلي و حملناه معنا أينما ذهبنا. عمليا هو الجد السادس بالنسبة لي و الخامس بالنسبة لأبي. فنسب أبي ينتهي إليه في الجد الخامس أي قبل أربعة أجيال. فنسب والدي هو: سليمان مصطفى محمد محمود حميدو. لا نعرف الكثير عن حميدو فالواضح أنه كان انسانا عاديا محلي

التكوين و محلي النفوذ بحيث لم يذكر إلا ضمن عائلته و أقربائه و ضيعته. لكن الثابت هو أنه قد ولد في قرابة عشرينيات القرن التاسع عشر بين 1820 و 1830 ميلادية ويمكن اثبات ذلك باستخدام قاعدة الجيل. فبين أبي سليمان المولود في العام 1955 و جده حميدو 4 أجيال و عليه فتصبح الفترة الفاصلة بين ولادة أبي و ولادة جده 130 سنة تقريبا. و من هذه المدة الزمنية يمكننا تقدير تاريخ ولادة حميدو على أنها في الفترة الممتدة بين العامين 1820 و 1830 ميلادية تقريبا.

ما نعرفه عن جدنا حميدو أنه قد قدم إلى ديرجمال مع أبيه الحاج أحمد وإخوته قرابة منتصف القرن التاسع عشر و قد كان مع اخوته فرسان أبيهم الغني الذي قدم إلى الضيعة و انتشرت سمعته في كل المنطقة. شكل قدوم حج أحمد مع أولاده الى ديرجمال بداية لتكوين عائلة عرفت ببيت الحجي. إن بيت الحجي هي العائلة التي تكونت من الحج أحمد و أولاده و عقبهم قبل أن تنتفرق العائلة الى عائلات أصغر هي عائلات أولاد الحاج أحمد حميدو و عثمان و اسماعيل و غيرها. لقد عرف كل أعقاب الحج أحمد باسم بيت الحجي أحفاد الحج أحمد حتى أن الحارة القبلية التي سكنوا فيها كانت تعرف بحارة بيت الحجي و هي التي تضم بيوتهم و زاويتهم الصوفية و مرقد الشيخ عبدالله. و من الطبيعي أن العائلة عندما تكبر فانها تنقسم الى وحدات أصغر و هو ما يحدث دائما

في كل العائلات. لقد انقسمت عائلة الحجي الى عائلات أصغر و منها حميدو و عثمان و غيرهم ممن يشكلون أولاد و أحفاد الحج أحمد. ورث حميدو غنى أبيه و نستطيع معرفة ذلك من أملاك أحفاده و ما كانوا يملكونه من أراض كثيرة جدا في الضيعة لكن الروايات المتداولة لم تذكر كثيرا تفاصيل عن حياته.

الرواية الشفهية

يتناقل أفراد العائلة شفها أننا دمالحة سبسيون حسينيون و أن جدنا الكبير

" أحمد " قد قدم ديرجمال مع أولاده دون أن يحددوا الفترة الزمنية التي أتوا بها. و تضيف الرواية أنه و أولاده كانوا فرسانا كرماء أسروا قلوب الناس القليلين الذين كانوا يعيشون في المنطقة قبل أن يأتوا إليها فأصبحوا ذوي حظوة ومكانة كبيرتين مكنتهم من تزعم الضيعة. و تفصل الرواية المتداولة أن جدنا أحمد كان يأتي كل سنة الى المنطقة من ناحية الساجور شمال شرقي ديرجمال مع أولاده و غنمه الكثير لرعيهم و هي ممارسة كانت معروفة وشائعة حتى وقت قريب بحيث أنه كان "يتضمن" المراعي في المنطقة، أي يحصل على حق رعي أغنامه

فيها خلال كل فترة الصيف. و من هنا نشأت علاقة بينه و بين العائلتين اللتين كانتا تسكان المنطقة قبله و هما بيت عقيل و بيت الأحمر، فكان قدومه للاستقرار النهائي بعد حادثة حدثت معه لا نعرف تفاصيلها أو تاريخها بشكل قاطع. إن ما نعرفه عن سبب انتقاله للضيعة هو أنهم بلشوا فهربوا لكن ذلك لا يمكن الحزم به حيث أن الرواية الشفهية تخلط بين حادثة الهروب الأولى للدمالحة بعد معركة اللاوند و حادثة انتقال جدنا أحمد الى ديرجمال. فما نعرفه أن العلاقة التي نشأت بينه و بين ساكني الضيعة قبله توطدت خلال سنوات نتيجة كرمه و سخائه عليهم فقد كان معروفا بغناه و ثروته التي انعكست على أبنائه و أحفاده لاحقا بتملكهم معظم أراضي الضيعة.

من هو أحمد؟

لا نعرف تفصيلا عن من هو أحمد. ما نعرفه أنه كان دملخيا سبسيا رفاعيا غنيا جاء مع عائلته إلى الضيعة و سكن فيها و تملك مع أولاده معظم أراضيها الحالية. و حسب المعروف الشائع فإن جدنا حميدو هو أحد أبنائه إضافة إلى عثمان و عبدالله و بكري الكبير و اسماعيل و عبدالله و نسب أحمد المفصل هو: أحمد بن محمد علي بن حسن آغا بن ابراهيم بن حاج مصطفى بن السيد عمر الأول بن السيد بكور بن السيد علي بن

الشيخ جمعة بن شاهين بن ناصر بن غنيمة بن محمد ديب بركة بن
 الشيخ علي بركة بن الشيخ سليمان السبسي الكبير بن الشيخ محمد
 مهدي السبسي

و يصل نسبه إلى السيد علي بركة بن سليمان السبسي بن محمد مهدي
 السبسي. و يقدر بأنه مولود تقريبا بين العام 1790 و 1800 ميلادية
 . و الحقيقة أن ما عرفناه عبر الروايات الشفهية المتداولة أن غني أحمد
 و "عزوته" من أبنائه الفرسان سرعان ما وطدت وجوده في الضيعة و
 أصبح مع أولاده لهم الريادة فيها.
 إن الرواية المتداولة تقول أيضا أن أحمد قد أتى مع أولاده و استقر
 قرب نبع كرمين و هو نبع ما زالت القرية تشرب منه حتى اليوم. يقع
 نبع كرمين شمال شرقي الضيعة على درب تل رفعت (تل رفات) و
 هيو موقع القرية القديم الذي كان يسكن فيه أفرادها قبل انتقالهم الى
 الموقع الحالي للقرية.



خريطة 9 توضح الخريطة موقع دير جمال الحالي ونبع كرمين في أقصى أعلى يمين الصورة

لقد انتقل أهل الضيعة الى الموقع الحالي للقرية و سكنوا بعد نزولهم من كرمين في خرابات دبر قديم سميت القرية على اسمه فحولوها إلى بيوت لهم و هي التي تشكل حالياً القسم القبلي (الجنوبي من الضيعة) و هي تشكل حتى يومنا هذا مسكن و مقر أحفاد جدنا أحمد. يضم القسم الجنوبي من القرية الذي من ضمنه الدير و الكنيسة القديمة بيوت أحفاد جدنا أحمد و هم أحفاد أولاده حميدو و عثمان.



خريطة 10 عاش بيت الحجي على مساحة 4000 متر تقريبا في المنطقة القبلية للضيعة
أو ما عرفت بجارة بيت الحجي قبل أن تكبر العائلة و ينتشروا في المنطقة المحيطة
بجارتهم الأساسية وما زال تمررهم الأساسي حتى اليوم في الحارة الشمالية

و يقع أيضا في هذا القسم مقام الشيخ عبدالله. و الشيخ عبدالله يبدو
أنه كان من ورث طريقة أجداده الرفاعية و اعتنى بها قبل أن ينقلها
لاحقا إلى أولاد عثمان الذين ظلت المشيخة فيها حتى وفاة الشيخ
عثمان حفيد عثمان الكبير نعاية تسعينات القرن العشرين.



خريطة 11 خريطة حارة بيت المحي بعد توسع أحفاد الحج أحمد

و يبدو أن الشيخ عبدالله لم يعقب و عندما توفي دفن ضمن الحيز الذي كان يعيش فيه أولاد أخوته في القسم الجنوبي من الضيعة و قد كان لمقامه خادم يخدم مقامه لما له من مكانة و قدر كبير. لقد شكل المقام رمزا للتذكيرنا بالشيخ عبدالله حتى يومنا هذا.

و يقال أيضا في الروايات الشفهية أن جدنا أحمد قد أتى معه عبده و منهم من شكلوا لاحقا عائلات مستقلة في القرية بعد أن أعتقوا لاحقا كبيت عيسى.

متى أتوا إلى الضيعة و من أين؟

يبدو السؤال عن الفترة التي وفد فيها جدنا أحمد إلى الضيعة معقدا و صعب الإجابة. عمليا نحن نعتمد فقط على الروايات الشفهية في فهم ما حدث و فهم سبب ما وقع. فالمصادر المكتوبة معدومة و غير موجودة. و الطريقة الوحيدة لفهم ما حدث هو في الاطلاع على المصادر التاريخية المتاحة و مقاطعتها مع الروايات الشفهية للوصول إلى رواية مقبولة قريبة من الحقيقة بقدر جيد. نستطيع أن نقول أن ديرجمال لم تكن معروفة أو موجودة بهذا الاسم قبل منتصف القرن التاسع عشر. إن المرجع الأهم الذي يؤرخ لحلب منذ منتصف القرن الثامن عشر حتى نهايته و هو تاريخ حلب الطبيعي لا يأتي على ذكر قرية اسمها ديرجمال على الإطلاق لكنه على يذكر قرية كشتعار المجاورة و المعروفة بهذا الاسم حتى اليوم، و يذكر أنها مصدر البيلون الذي تشتهر به حلب. و المعروف حتى يومنا هذا أن أراضي البيلون التي يذكرها الكتاب تقع ضمن أراضي ديرجمال التي تلاصقها من الشمال كشتعار. و يبدو واضحا أن ديرجمال لم تكن موجودة في تلك الفترة حتى منتصف القرن التاسع عشر بل كانت عبارة عن خرابات أثرية لموقع دير قديم هجر قبل مئات السنين نتيجة الحروب التي حدثت في هذه المنطقة و الصراعات التي

شهدتها هذه المنطقة الحدودية بين الاناضول و الشام أو بين الروم و الشام. و الواضح أنه حتى أراضيها لم تكن مستغلة أو مزروعة بشكل كامل حيث لم يكن يسكنها أو يقطن بها أحد غير بعض الرعيان و الفلاحين الوافدين حديثا إلى المنطقة.

لكن السؤال الكبير الذي سنحاول الإجابة عنه هو: متى أتى أحمد و عائلته إلى ديرجمال؟

لا يوجد مصدر تاريخي معتبر يذكر متى و لماذا أتوا إلى دير جمال لكننا يمكن أن نعتمد على المصادر الشفهية و أن نصل من خلالها إلى استنتاج بخصوص هذا الموضوع.

كان لأبي جدة اسمها مراش بنت حج بكري حميدو و هي زوجة جده محمد المحمود حميدو مختار ديرجمال و ليست جدته المباشرة و هي من نفس عائلتنا و هي أيضا عممة جدتي أمون محمد علي حج بكري المباشرة. عمرت جدة والدي هذه قرابة المئة عام و توفيت حوالي العام 1970 و قد وصل عمرها للمئة. يذكر أبي أن جدته كانت تقول له أننا أتينا إلى ديرجمال قبل مئة عام دون أن تضيف تفاصيل عن ذلك. يمكن لنا عمليا أن نصل من خلال ما كانت تقوله إلى خلاصات واستنتاجات تقترب جدا من الحقيقة. فالتاريخ في جزء منه استنتاجات نصل إليها عن طريق المقارنة. ففي غياب المصادر المكتوبة تكون الروايات

الشفهية هي العامل الحاسم. صحيح أنها في بعض الأحيان يختلط فيها الخيال مع الحقيقة لكن عملية المقارنة تستطيع أن تزيل منها الشوائب و ما علق بها من خيال. لكن و من قال أن المصادر المكتوبة لا يوجد فيها أيضا خيال و روايات مبتدعة؟

لقد كانت جدة والدي تخبره عن زمان قدومنا إلى ديرجمال في حوالي العام 1970 وقد جاوزت المئة تقريبا. و المعروف أنها قد ولدت في ديرجمال أي أننا نستطيع تقدير زمان والدتها في حوالي العام 1870 ميلادية. و بالطبع فإن نستطيع أن نبني على مقولتها تلك استنتاجات مهمة لزمان قدومهم إلى ديرجمال. في البداية لا بد لنا من معرفة أن التواريخ التي قالتها تقريبية. فعندما تقول أننا أتينا إلى القرية قبل مئة سنة فإنها في الحقيقة تعطي تقديرا للفترة الزمنية بناء على ما سمعته ممن كانوا قبلها.

لقد ولدت جدة والدي حوالي العام 1870 في ديرجمال و والدها هو حج بكري حميدو و هو من المفترض أن جد بكري المباشر أحمد هو أول من قدم إلى ديرجمال مع أولاده حميدو و عبدالله و عثمان الخ. و من هنا نستطيع أن نستنتج أن قدومهم إلى ديرجمال كان تقريبا حوالي العام 1850-1855 ميلادية. فالجد الحج أحمد هو من قدم و كان له أولاد

و منطقيا فإن هؤلاء الأولاد الذين كانوا في مرحلة الشباب كانوا إما عزابا أو لهم أولاد صغار وفي هذه الحالة فإن أولاد حميدو الصغار هم بكري والد جدة أبي و محمود و عمر و أحمد. و المنطقي هنا أن هؤلاء العزاب أو المتزوجين أولاد أحمد قد كبر أولادهم و زواجهم خلال فترة 15 إلى عشرين عاما من قدومهم و صار لهم أولاد و منهم جدة أبي. و هنا نستطيع أن نقول أن هذا القدوم قد تم بشكل أكيد قبل ولادة جدة أبي بحوالي 15-20 سنة اي بين العامين 1850-1855. و يمكن تأكيد هذا التاريخ بطريقة أخرى. كان الدمالحة جزءا من حلف بني سعيد ابتداء من منتصف القرن الثامن عشر عند تشكيل هذا الحلف. و عائلتنا هي عائلة دملخية كانت جزءا من هذا الحلف القبلي. كانت هذه العائلة تقطن في حوالي الساجور في المنطقة الممتدة من الساجور حتى منبج حيث أراضي حسن آغا و القرى التي كان يمتلكها. عاشت هذه العائلة كل تفاصيل الأحداث التاريخية التي حصلت مع بني سعيد. يروي وصفي زكريا في كتابه عشائر الشام أن بني سعيد كان مسكنهم حوالي مسكنة جنوب شرق حلب ثم ما لبثوا أن دخلوا في صراع عشائري مع الولادة فاتجهوا شمالا نحو الساجور حوالي نهاية القرن الثالث عشر الهجري و هو تقريبا ما يوافق منتصف القرن التاسع عشر الميلادي.

و يذكر كتاب حلب في مئة عام إشارات إلى عملية المدافعة التي جعلت بني سعيد يغادرون الزور حوالي مسكنة نحو الشمال. فقد بدأت الإشارات الأولى في العام 1855 عندما قام يوسف باشا الشريف بحملة عسكرية ناحية الزور شرق حلب ليجبر العرب النازلين هناك على دفع الأموال المتوجبة عليهم لخزينة الدولة. و يبدو من السياق أن هؤلاء العرب قد نزلوا حديثا في هذا المكان. فتشير الأحداث التي تلت العام 1855 إلى كونهم ينتمون إلى عنزة و قد جاؤوا من نجد. فيذكر الكتاب أنه في 1857 بدأ هؤلاء بالآغارة على القرى و المزارع على حدود البادية و قد وصلت آغاراتهم إلى النواحي الشرقية من مدينة حلب فقام أمين أفندي و عزمي باشا الحاكم العسكري لحلب بحملة عليهم لإبعاد خطرهم عن المدن و القرى شرقي حلب فالتقوا في معركة على بعد 12 ساعة من حلب (المسافة المقدرة بالساعات تشير إلى مسافة لا تقل عن 100 كم من حلب و هي المسافة بين حلب و مسكنة و من هنا يمكن القول أن المعركة قد حصلت حوالي مسكنة في نفس المنطقة التي كان يعيش بها بني سعيد) فقتلوا منهم 400 مقاتل بينما خسرت الحملة حوالي 76 مقاتلا.

و يشير الكتاب نفسه أنه بداية من منتصف القرن التاسع عشر ضعفت سلطة الدولة في المدن و الأرياف و خاصة في النواحي الشرقية و منطقة

الزور فبدأت عنزة تغير على القرى و الارياف و تسلب و تنهب فما كان من الدولة العثمانية إلا أن جردت الحملات لاستعادة الأمن فبدأت القبائل تخضع لسلطة الدولة واحدة بعد الأخرى حتى قام شيخ عنزة جدعان بن مهيد شيخ القدعان من عنزة و الشيخ دهام شيخ الخرصمة قي 17 شعبان 1275 اي في العام 1859 بالتوقيع على وثيقة تنهي تمردهم و تستجيب لشروط الدولة. فقد نصت الوثيقة التي وقعوا عليها على:

1. لا يصير شيء من عشائر عنزة ولا من عربها ما ينافي لرضا العالي أو شيء مغاير للحكومة.
2. عدم أخذ الخوة من القرى.
3. عدم التعدي على أبناء السبيل والفقراء والمارين والعاشرين من الحضر وسكان القرى.
4. إذا وقع شيء مغاير للحكومة من كافة العشائر والقبائل يوجب الجدل فلا يصير لهم مقالة بل تعرض الكيفية الجانب الحكومة السنية، فيصير تربيتهم من جانب الحكم.
5. أحد العشائر والقبائل إذا كان عليه مال ميري أو ويركو (ضريبة دخل) أو تكاليف سائرة إذا دخلوا على عنزة فلا يصير لهم قبول إلا بعد إعطاء المرتب والمطلوب منهم تماماً وكاملاً.

6. أحد أرباب الجنحة والجنائيات من سكان الحضر أو القرى أو العشائر إن دخل والتجأ وكان عليه حق فلا يصير له قبول من عنزة بل ملزمون بتسليمه للحكم أو تسليم الذي عليه.

ويلى هذه الشروط الستة التعهد الذي وقعه الشيخ جدعان مؤكداً فيه خضوعه للدولة والتماسه المشيخة على عشيرة عنزة، وتعهدده هو ومن يتبعه من عشيرة الخرصه، وختمت الوثيقة بما يلي : وإذا وقع من طرفنا ما ينافي ويخشد الشروط المذكورة فأكون أنا الملام وأنا الجاني على نفسي ومن الآن وصاعداً إن جرى من طرفي شيء محل للعهد والميثاق والشروط المحررة فيكون قولي ،خلاف ولا يبقى لكلامي التفات عند أولي الأمر والحكومة السنية في وقت من الأوقات، بناء على ذلك وبناء لقبولي كافة الشروط والعهود تحررت هذه الوثيقة المعمول بها وسلمتها لجانب الحكم والله على ما أقول وكيل.

في ١٧ س ٢٧٥ انلخاتم والتوقيع جدعان بن مهيد - شيخ الفدعان .

إن كل الحوادث التي وقعت بين العام 1855 و العام 1859 توضح بشكل واضح الأسباب التي جعلت بني سعيد يغادرون المنطقة في الزور حوالي مسكنة. فالضغط الذي تعرض له أهل القرى و المدن في تلك

المنطقة من قبل القبائل المتمردة و الوافدة إلى هذه المنطقة جعلتهم يفضلون الاتجاه شمالا نحو حلفائهم الدمانحة في على الساجور و جوارها حوالي منبج.

إن ما ذكره وصفي زكريا نقلا عن شيخ بني سعيد عن انتقال بني سعيد شمالا بعد مدافعتهم في الزور من قبل الولدة (من عنزة) في نهايات القرن الثالث عشر الهجري نجد أحداثه فيما حصل بين العامين 1855 و 1859 من تمرد العنزة و عشائرها و إغاراتهم على الحضر الذين كانوا يقطنون الزور و ما جاورها و منهم بني سعيد.

من هنا يمكن أن نطلق لفهم أن قدوم أحمد للسكن و الاستقرار النهائي في ديرجمال كان نتيجة ظرف تاريخي حدث مع حلف بني سعيد جعلهم ينزاحون شمالا وصولا للساجور حيث كان يسكن الدمانحة و هو ما جعل المنطقة كلها في خضم اضطراب اجتماعي و قبلي نتيجة الفوضى التي خلفها وصول الولدة إلى جنوب شرقي حلب و اضطراب كثير من العشائر إلى التوجه شمالا إلى حيث كان يسكن الدمانحة.

و يمكن لنا إضافة معلومة تتناقل شفها بين أفراد العائلة و هي أن جدنا أحمد قد أتى الضيعة بعد أن بلش فهرب مع عائلته من الثار و استقر في ديرجمال. و هنا نستطيع أن نفترض أنه قد هرب مع عائلته بعد تفاقم

الإضطرابات القبلية و الإجتماعية سقوط قتلى و حدوث مطالبات بالثأر .

المهم هنا أن مقارنة المصادر التاريخية مع الروايات الشفهية توصلنا إلى استنتاج واضح أن جدنا أحمد قد أتى مع عائلته إلى دير جمال حوالي منتصف القرن التاسع عشر بين العامين 1850 و 1855 نتيجة ظروف تاريخية حتمت عليه الانتقال من مكان سكاه الأصلي على الساجور نحو ديرجمال التي لم تكن ضيعة معروفة بل مجموعة عائلات تسكن حوالي خرابات أثرية قديمة.

بين الرواية الشفهية و الحقيقة

إن الوصول إلى رواية متماسكة حول جدنا حميدو و أحمد و قدومه إلى الضيعة يصبح سهلا عندما نقارن الروايات الشفهية مع المصادر المكتوبة و نضع كل هذه المعلومات في سياق واحد. فالمعلومات المتناثرة لا توصل إلى رواية بينما وضع كل هذه المعلومات في سياق واحد يجعل من السهل فهم التاريخ و فهم أحداثه.

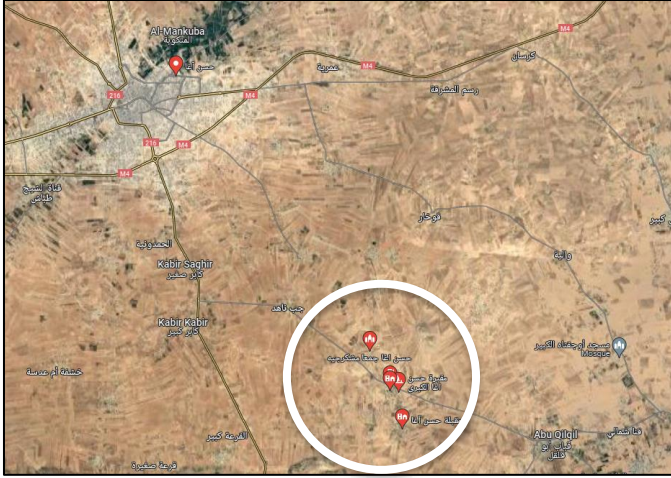
كان جدنا أحمد ياتي سنويا في نهاية الربيع و بداية الصيف إلى ديرجمال مع غنمه الكثير و أولاده الشبان و يقطن في كرمين المطلة خرابات

دير جمال الأثرية. خلال هذه السنوات التي كان يأتي بها كون علاقة قوية مع عائلات كانت تقطن في نفس المنطقة. فقد ساهم كرمه الكبير وجوده وعائلته الكبيرة في جعل اهل المنطقة يتوددون له و يتقربون منه.

لقد قدم جدنا أحمد إلى القرية حوالي منتصف القرن التاسع عشر بين العامين 1850 و 1855 بعد أن وقعت معه ومع عائلته حادثة كبيرة دعوها في الروايات الشفهية بالبلشة والحقيقة أنه نزاع حدث في مكان سكناهم حوالي الساجور في منبج ومحيطها نتيجة تطورات إجتماعية قبلية حصلت في ذلك الوقت. فقد جاءت قبيلة الولدة إلى جنوب منبج ومحيطها ودافعت قبيلة بني سعيد وجعلتها تنزاح شمالا نحو حلفائها الدمانخة حول نهر الساجور. ولا نعرف بالضبط إن كان قدومهم الى دير جمال كان سابقا لنزوح بني سعيد كلهم نحو الشمال أم أنه قدومهم قد حصل قبل اكتمال هذا الانزياح ونتيجة تطورات متسارعة كانت تحصل، ففضلوا الانتقال قبل أن ينتقل بني سعيد كلهم.

إن معطيات عديدة تجعلنا نقول أن الحاج أحمد قد قدم إلى دير جمال من المنطقة الواقعة في منبج وحواليها إلى نهر الساجور. وهذه المنطقة التي أذكرها هنا هي منطقة الدمانخة التاريخية بعد هجرتهم من حوالي حماة عقب معركة اللاوند. فالواضح من المسميات الجغرافية أن المنطقة

الممتدة من منبج حتى الساجور كانت مركز الدمانخة و موطنهم. فما زالت عدة قرى و مزارع تحمل اسم حسن آغا جد الحج أحمد و حتى أن إحدى المزارع تحوي مرقد أو ضريح حسن آغا.



خريطة 12 خريطة تظهر مواضع تسمى على اسم حسن آغا في منبج و حولها و يظهر أيضا مكان ضريح لحسن آغا داخل الدائرة

و ما زالت المنطقة أيضا تحوي كثافة دملخية كبيرة من الغندورة على الساجور شمالا حتى منبج و ما حولها جنوبا. و تحمل الروايات الشفهية أيضا ما يؤيد ذلك، فقد ظلت العائلة تنقل أن جدنا الحاج أحمد قد أتى مع عائلته من الساجور إلى دير جمال التي قد اعتاد قبل قدومه النهائي على الإستقرار فيها صيفا مع غنمه قبل أن يقرر الإنتقال إليها نهائيا.

أحمد و عقبه

كان لأحمد عدد من الأولاد هم حميدو (محمد) و عثمان و عبدالله و بكري الكبير و اسماعيل وعبدالله. شكل حج أحمد مع أولاده عائلة عرفت ببیت الحجی. إن بیت الحجی هی العائلة التي تكونت من الحج أحمد و أولاده و عقبهم قبل أن تتفرق العائلة الى عائلات أصغیر هی عائلات أولاد الحاج أحمد حميدو و عثمان و اسماعيل و غيرها. لقد عرف كل أعقاب الحج أحمد باسم بیت الحجی أحفاد الحج أحمد حتى أن الحارة القبلیة التي سكنوا فيها كانت تعرف بحارة بیت الحجی و هی التي تضم بیوتهم و زاویتهم الصوفیة و مرقد الشیخ عبدالله. و من الطبیعی أن العائلة عندما تكبر فإنها تنقسم الى وحدات أصغر و هو ما يحدث دائما في كل العائلات. لقد انقسمت عائلة الحجی الى عائلات أصغر و منها حميدو و عثمان و غیرهم ممکن يشكلون أولاد و أحفاد الحج أحمد.

لقد شكل قدوم الحاج أحمد أو كما كانوا يطلقون علیه أهل المنطقة بالحجي إلى دیرجمال بداية لعهد جدید في حياة عائلة عریقة مرت علیها کثیر من الظروف التاریخیة خلال القرون السابقة. لم یأت الحاج أحمد مع عائلته فقط إلى الضیعة فقد أتى معه خدم و عبید شكلوا لاحقا عائلات

مستقلة في ديرجمال (كبيت عيسى) كما تبعه أفرع من الدمالحة الذين يلتقون مع الحاج أحمد في الجدل الثالث كبيت سعدو وكنجو وغيرهم. لا نعرف في الحقيقة متى أتوا ولا نعرف إن كانوا قد أتوا معه أو تبعوه بعد أن استقر وطاب له المقام. ما نعرفه أن الحاج أحمد كان الأغني و حتى أن أولاده ورثوا غناه ونفوذهم و سمعته التي تطايرت في الأفق.



خريطة 13 خريطة تظهر موقع الزاوية الصوفية ضمن بيت الحجي الكبير . الزاوية
تظهر ضمن المربع الصغير على يمين الخريطة

لقد كانت هذه العائلة في الأصل وريثة للطريقة الرفاعية الصوفية و هي طريقة جدتهم أحمد الرفاعي و سليمان السبسي و محمد مهدي السبسي و ظلت تتناقل بينهم طوال قرون حتى استقرت عند فرع عثمان ابن الحاج أحمد، فبقيت فيهم المشيخة حتى وفاة آخر شيوخهم الشيخ عثمان

نهاية تسعينيات القرن العشرين و قد كان يتخذ من زاوية قد تهدمت الآن في حارة أحفاد الحاج أحمد التي أشرنا إليه سابقا مقرا له. و قد كنت شاهدت على طقوس الطريقة الصوفية التي كان الشيخ عتمان شيخها. فقد كان يلف رأسه بعمامة خضراء و هي إشارة للأصل الحسيني للعائلة و كان يخرج النوبة عند قدوم الحجاج للاحتفال بهم و يقوم بالموالد في عيد المولد النبوي و في المناسبات المختلفة. و العمامة الخضراء هي رمز يضعه المنتسبون للأشراف. و يروي صاحب كتاب تاريخ حلب الطبيعي أن الناس في حلب في القرن الثامن عشر كانوا يضعون إما عمامة بيضاء أو خضراء. فالناس العاديون يضعون العمامة البيضاء أمام الخضراء فيضعها الأشراف. و يضيف صاحب الكتاب بأن من يرتدون العمامة البيضاء آخذون في التقلص. فنتيجة التزاوج من الأشراف أصبح أحفادهم من بناتهم يضعون أيضا العمامة الخضراء.

و قرب الزاوية يقع قبر يسمى بالشيخ عبدالله. و هذ الشيخ سألت كثيرا عن من يكون لكني لم أجد أي إجابة. و الواقع أن القبر موجود داخل حارة أحفاد الحاج أحمد بل إنه يقع داخل بيوتهم مع باب يطل على الشارع.



خريطة 14 يظهر موقع الشيخ عبدالله في المربع الصغير داخل المستطيل الكبير الذي يمثل بيت الحجي

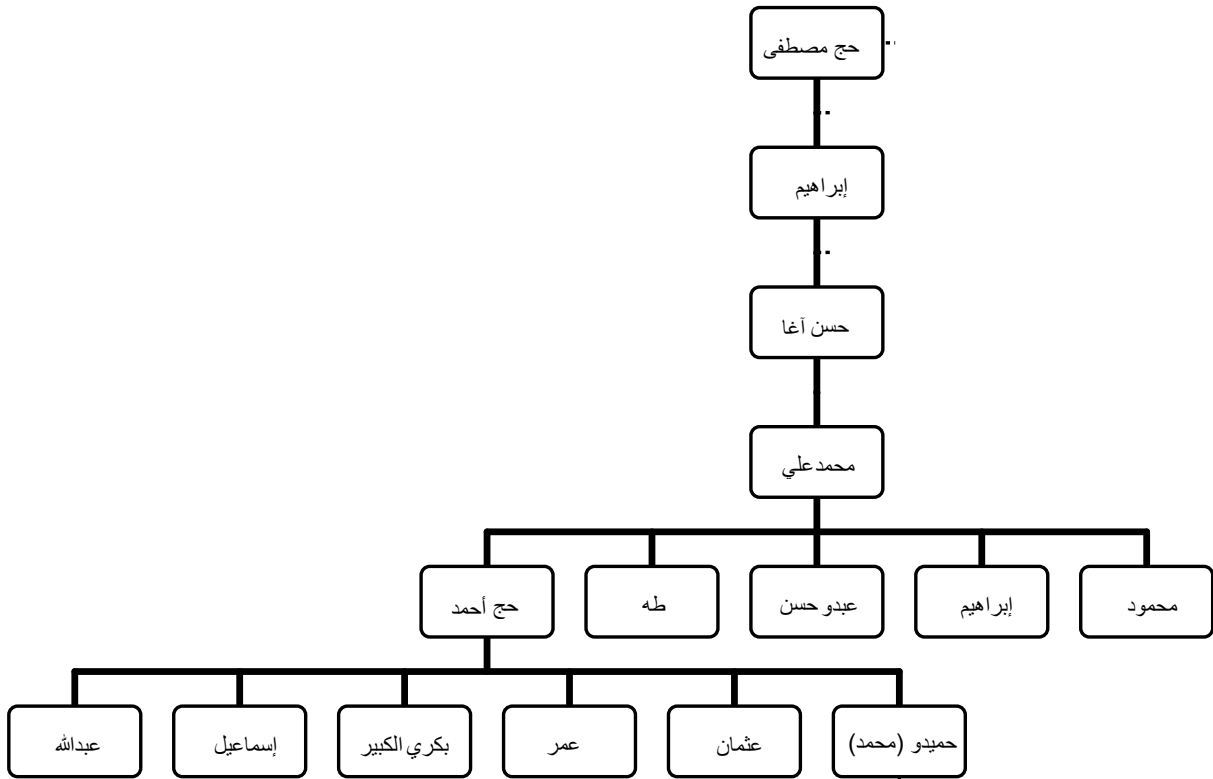
و قد قيل لي أنه كان له خادم يعتني بقبره و قد قيل لي أن ابنة خال أبي (حفيدة الحاج أحمد) كانت تضيئ القبر يوميا و تنظفه و تعتني به. و الحقيقة أنني لا أعرف بالضبط من يكون لكنني استطعت وضع فرضية و هي أنه ابن الحاج أحمد عبدالله شقيق حميدو و عثمان و الفرضية تقول أنه كان القائم بالطريقة الصوفية الرفاعية من أولاد الحاج أحمد و توفي و لم يعقب فدفن بين بيوت إخوته و عين له خادم ينظف قبره و يعتني به و انتقلت من يومها مشيخة الطريقة الى سلالة عثمان. و القبر يقع مباشرة بين بيت أحفاد حميدو و بيت أحفاد عثمان داخل غرفة مسقوفة ما تزال موجودة حتى اليوم.

بيت الحجى

شكل قدوم حج أحمد مع أولاده الى دير جمال بداية لتكوين عائلة عرفت ببيت الحجى. إن بيت الحجى هي العائلة التي تكونت من الحج أحمد و أولاده و عقبهم قبل أن تنفرق العائلة الى عائلات أصغر هي عائلات أولاد الحاج أحمد حميدو و عثمان و اسماعيل و غيرها. لقد عرف كل أعقاب الحج أحمد باسم بيت الحجى أحفاد الحج أحمد حتى أن الحارة القبلية التي سكنوا فيها كانت تعرف بحارة بيت الحجى و هي التي تضم بيوتهم و زاويتهم الصوفية و مرقد الشيخ عبدالله. و من الطبيعي أن العائلة عندما تكبر فإنها تنقسم الى وحدات أصغر و هو ما يحدث دائماً في كل العائلات. لقد انقسمت عائلة الحجى الى عائلات أصغر و منها حميدو و عثمان و غيرهم ممكن يشكلون أولاد و أحفاد الحج أحمد.

لقد كانت قاعدة انقسام العائلات ستطبق أيضا على بيت حميدو. ففي منتصف القرن العشرين أصبح كل جزء من بيت حميدو ينسب الى جده المباشر فانقسمت العائلة الى المحمود و عمر و حج بكري و أحمد لكن الأمر تم تداركه في التسجيل النهائي في النفوس و تم اعادة ضم الجميع تحت خيمة جدنا حميدو و حاز الجميع كنية حميدو ما عدا جدي

(والد أُمِّي) زكريا غالي العمر الذي احتفظ بكنية العمر (عمر) و هو
جده الثالث وابن حميدو.



" أي سادة! من أراد أن يتكلم بلسان أهل المعرفة فينبغي أن يحفظ أدب كلامه، فلا يكشف دقائقه إلا عند أهله وأن لا يُحمّل المريد فوق طاقته، ولا يمنع كلامه من كان مع أهله، ويكون كلامه مع أهل المعرفة : بلسان أهل المعرفة.

ومع أهل الصفا: بلسان الصفا.

ومع أهل المحبة : بلسان المحبة.

ومع أهل الزهد : بلسانهم .

ومع كل صنف : على قَدْرِ مراتبهم ومنازلهم وقدر عقولهم؛ فإن الله تعالج عل للعارف هذه الألسن "

الإمام أحمد الرفاعي

8

حميدو: الجد الذي أورثنا اسمه

لطالما أردت أن أكتب عن عائلتي و أتوسع في شرح تفاصيل حياتها منذ أن وجدت كعائلة مستقلة في نهايات القرن التاسع عشر. نشأت عائلة حميدو كعائلة مستقلة في ضيعة ديرجمال في حلب و أضحت من أكبر عائلاتهما و عاشت فيها و أصبح اسمها مرادفا لديرجمال وما زالت. كانت العائلة قبلها تعرف كجزء من عائلة الحجي نسبة إلى الحاج أحمد والد حميدو الذي قدم إلى ديرجمال في منتصف القرن التاسع عشر. و لفترة ليست بالبعيدة كانت العائلات التي يرجع نسبها إلى الحاج أحمد تعرف في ديرجمال بعائلة الحجي عرفا بين المعمرين الكبار من العائلات الأخرى. و من الطبيعي أنه عندما تكبر عائلة خصوصا في زمن لم يكن فيه هناك تسجيل للولادات والوفيات أن تظهر عائلات فرعية من العائلة الكبيرة وصولا إلى اختفاء اسم العائلة الكبيرة في فترة ما أو اقتصارها على عدد محدد لم يشأ أن يستقل باسم منفصل. تماما هذا ما حدث وكان يحدث و ربما ما زال يحدث لكن بوتيرة أقل. كثيرة هي

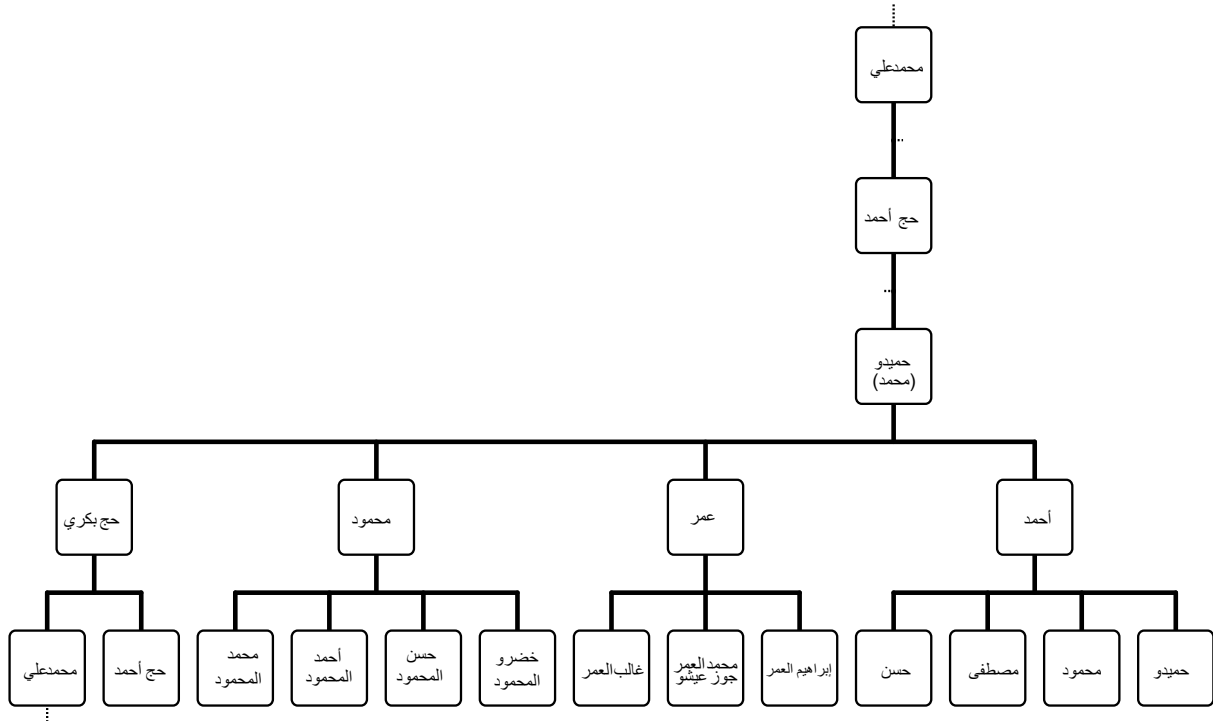
التفاصيل التي جمعها عنهم منذ مئة وثمانين سنة وحتى اليوم وأعتقد أن هذه التفاصيل كافية لتوثيق حياة العائلة وأفرادها وما وصلنا إليه.

ولادة ونشأة حميدو

حميدو⁴⁶ هو جدنا المباشر والذي نحمل اسمه ككنية لنا وهو عمليا أغنى أولاد حج أحمد فما توارثه أبناؤه منه جعلهم بلا منازع أكبر ملاكي الضيعة وأغنى أهلها. ويقدر أن حميدو قد ولد بين العامين 1820 و 1825 ميلادية وقد ولد أولاده بين العامين 1845 و 1870.

ونسب حميدو المباشر هو: حميدو (محمد) بن أحمد بن محمد علي بن حسن آغا بن إبراهيم بن حاج مصطفى (بن السيد عمر الأول بن السيد بكور بن السيد علي بن الشيخ جمعة بن شاهين بن ناصر بن غنيمة بن محمد ديب بركة بن الشيخ علي بركة بن الشيخ سليمان السبسي الكبير بن الشيخ محمد مهدي السبسي

⁴⁶ و على الأرجح فإن حميدو هو لقب له و ليس اسمه الحقيقي. فالمرجح أن اسمه الحقيقي هو محمد وهناك دلائل عديدة على ذلك. فابناء أبناؤه الكبار كلهم سموا باسم محمد. فابن حج بكري الأكبر سمي بمحمد علي و كذلك ابن محمود الأكبر سمي بمحمد و كذلك أحد أبناء عمر سمي بمحمد (جوز عيشو). كما أن الواضح أنه كان من يسمى بمحمد كان يكنى بحميدو.. فمثلا هناك قريب لنا اسمه محمد لكنه ينادى بحميدو من قبل أهله -محمد محمد عمر حميدو ابن جوز عيشو



الصورة 4 يظهر من الشجرة أن ابن بكري الكبير هو محمد علي على اسمه والده حميدو (محمد) و الصغير أحمد على اسم جده حج أحمد و كذلك ابن محمود الكبير محمد على اسم أبيه حميدو (محمد) و أحمد على اسم جده حج أحمد و كذلك عمر أحمد أبنائه اسمه محمد و أحمد حميدو سمي أحد أبنائه حميدو مباشرة

كان لحميدو أربعة أولاد هم بكري و محمود و أحمد و عمر ولدوا تقريبا بين العامين 1845 و 1870. يشكل أولاد و أحفاد هؤلاء الإخوة فروع عائلة حميدو الأربعة حتى أن أحفاد كل واحد منهم قد استقلوا بكنية تعود لجدهم المباشر لفترة من الزمن منذ منتصف الخمسينات حتى أواخر الستينات من القرن العشرين قبل أن تتوحد كآهم و ينسبو لجدهم المشترك حميدو⁴⁷.

تتكون عائلة حميدو من أربعة فروع هي بكري و محمود و أحمد و عمر و قد أعقب هؤلاء الأخوة الأربعة فشكلوا عائلة حميدو في ديرجمال في حلب.

و لبكري بن حميدو عقب هما محمد علي حج بكري (جد والدي لأمه توفي في العام 1956) و أحمد حج بكري (توفي في العام 1982) وابنة هي مراش بنت حج بكري حميدو و هي جده أبي (زوجة جده) التي

⁴⁷ من الأثار التي بقيت على ما حدث من نسب أحفاد كل واحد منهم لجده المباشر أن جدي والد أمي ظل يحتفظ بكنيته التي تعود لجده المباشر عمر حتى وفاته فهو زكريا غالب العمر و المفارقة أن أمي و هي ابنته استعادت كنيته الأصلية و نسبها المباشر إلى حميدو في أوراقها و وثائقها مع أن أخوتها كلهم ما زالت كآهم ككنى جدي الذي ينسب إلى جده المباشر حميدو

ولدت في الضيعة عام 1870 تقريبا و عواش التي تزوجت بمحمد عمر حميدو (جوز عيشو).

و لمحمد عقب هما محمد وأحمد و خضرو (الذي استشهد في الحرب العالمية الأولى و غاليبولي أو جناق قلعة) و حسن. و محمد المحمود هو والد جدي مصطفى و جد أبي المباشر و قد توفي في حوالي العام 1930-1933 ميلادية.

و لأحمد عقب هما حميدو و حسن و مصطفى و لعمر عقب هم ابراهيم و غالب و محمد. و غالب هو والد جدي زكريا غالب العمر حميدو. شب حميدو في بيت أب غني يحيط به والد ذاع سيط كرمه و ذاع سيط عطائه وإخوة شكل معهم فرسان العائلة و عزوة والدهم يحيط به خدم و عبيد قبل أن تلغى العبودية في الدولة العثمانية نهايات القرن التاسع عشر.

كان من الطبيعي أن يتزوج لكننا في الحقيقة لا نعرف شيئا عن تزوج و لا متى تزوج لكن ما نستطيع تأكيده هو أنه ولد في حوالي العام 1820-1830 ميلادية بناء على قاعدة الجيل التي حسبنا من خلالها في فصل مستقل ولادات العائلة.

و الواضح من خلال السياق التاريخي أنه لم يولد في ديرجمال و أنه قد أتى مع أبيه إليها بعد أن كان يتردد إليها معه لسنوات في حوالي العام 1850-1855.

كان السيط الذي تمتع به حميدو كبيرا في ديرجمال و ما حولها حتى أن عائلة حميدو في منغ قد سمي جدهم بهذا الاسم تيمنا باسمه نتيجة نفوذه الكبير و غناه و كرمه كما تنقل الروايات الشفهية المتداولة.

لا نعرف كثيرا عن حميدو غير روايات شفوية متناثرة من هنا و هناك و لا نعرف أيضا متى تزوج و من تزوج و لا نعرف أيضا متى ولد أكبر أولاده لكننا نعرف عن تلك الفترة التاريخية أن الشباب كانوا يتزوجون و هم في سن العشرين تقريبا أو أقل من ذلك قليلا. لكن المعضلة الكبرى أن الولادات كانت متأخر و حتى إن حصلت بمجرد الزواج فإن الأولاد في معظمهم كانوا يموتون إما فور ولادتهم أو بعد فترة قصيرة من ولادتهم. يمكننا من خلال ذلك وضع فرضية أن ولده الكبير قد ولد حوالي العام 1848-1850 تقريبا لكننا لا نعرف حقيقة من يكون. إن كل ما نعرفه هو أن حميدو كان له عدة أولاد هم بكري و محمود و أحمد و عمر و هم الذين يشكلون سلالة حتى اليوم. و لا نعرف بالضبط إن كانوا من أم واحدة أم لا، لكننا نعرف حكما أن الرجال في ذلك الزمن لم يكونوا يكتفون بزوجة واحدة فقط.



خريطة 15 خريطة مسكن حميدو وأولاده في الدار القديمة (البيت الكبير)
المخصص لأولاد حميدو و الكنيسة القديمة التي حولت لبيت حج بكري حميدو

لا يمكن لنا وضع تصور واضح عن تسلسل ولادات أولاد حميدو. نحن نتحدث هنا عن فترة تاريخية كان تسجيل الولادات والوفيات غير متوفر بشكل كامل و حتى إن توفر في فترات متأخرة من القرن التاسع عشر فإنه كان يشوبه الكثير من القوضى وعدم الضبط. كما أن من كان مكلفا بالتسجيل في ذلك الوقت كانوا المخاطر بكل ما يشوب عملهم من محاباة وعدم دقة و تحوير تبعا للظروف السائدة.

من خلال المقارنات التاريخية نستطيع الوصول إلى أن بكري أو محمود كانا أكبر أولاد حميدو. يمكننا فهم ذلك من سياق ارتباط الغنى والسلطة المحلية بهذين الشخصين. فقد ورث بكري عن أبيه أملاكه و هي عادة عند العرب بتوريث الكبير معظم الأملاك ليهتم ببقية أفراد العائلة ويشكل سلطة معنوية في منطقته. وقد تسلم ابن محمود محمد مخترة الضيعة هي سلطة معنوية كبيرة في ذاك الزمن. والسؤال الذي يبرز هنا: هل كان ذلك نوع من تقاسم السلطة و النفوذ بين أولاد حميدو الكبار؟ لا نعرف بالضبط إن كان ذلك صحيحا أم لا لكننا نستطيع الحكم من سياق الأحداث أن ذلك أمر قد تم حقيقة دون أن نملك تفاصيل عن ذلك.

يمكننا تقدير أن بكري ومحمود قد ولدا في نطاق زمني بين العام 1848 و 1850 تقريبا. فأكبر أولاد بكري كما نعرف هي جدة والدي مراش (زوجة جده محمد المحمود ابن عمها) ولدت تقريبا في العام 1870 وهي التي توفيت في العام 1974 عن عمر يتجاوز المئة عام. و أكبر أولاد محمود هو محمد مختار الضيعة حتى وفاته في حوالي العام 1928-1934 وهو الذي تزوج من ابنة عمه مراش جدة والدي (زوجة جده).

أولاد حميدو

لا نملك حقيقة أي شئ مكتوب عند حديثنا عن أولاد حميدو فجل ما وصلنا هي روايات شفوية و تقاطعات بينها يمكننا من خلالها تتبع دراسة سيرة أولاد حميدو وأخبارهم. إن عدم التوثيق كان أمرا شائعا حتى وقت قريب ربما حتى قبل سبعين سنة وهو ما يصعب أية عملية دراسة تاريخية دقيقة. فغالبا ما تكون الروايات الشفهية خالية من شرطي الزمان و أحيانا كثيرة حتى المكان فتتحول إلى ما يشبه الأسطورة الغامضة التي تحتاج لمن يفك طلاسمها ويربطها بزمانها و مكانها. إن كل ما وصلنا من روايات شفوية تؤكد أنه كان لحميدو أربعة أولاد ذكور كما تجمع كل الروايات و هم محمود و بكري و عمر و أحمد و هم الذين ينحدر منهم كل من كنيته حميدو في ديرجمال. في الحقيقة إننا لا نعرف عن بناته شيئا و لم يصلنا عنهم أي شئ و هو أمر ربما يكون مفهوما خصوصا إذا علمنا أن الأنساب عادة تعلق بالذكر و تحسب الأنثى غالبا على زوجها و عائلته.

محمود حميدو

لا نعرف تماما هل كان محمود الولد البكر لحميدو أم لا و يمكننا تقدير تاريخ ميلاده بين العامين 1845 و 1850 و منه نشأ فرع عائلتنا الذي ننتمي إليه. إن تفاصيل حياته غير معلومة بشكل كبير و ربما فقط أولاده هم من جعلوا ذكره يدوم حتى اليوم. فلولاء الأولاد لأصبح نسيا منسيا. عادة يخلد الأجداد بأولادهم وأحفادهم وهذا ما حدث تماما خصوصا إذا لم يكن هؤلاء الأجداد أعلاما معروفين للقاصي والداني بل كانوا أناسا عاديين مروا على هذه الحياة و غادروها تاركين أثرهم فقط في عائلتهم الصغيرة. و لمحمود حميدو أربعة أولاد هم محمد المحمود و أحمد المحمود و حسن المحمود و خضرو المحمود.

و هنا قبل الدخول في تفاصيل الأولاد من المفيد القول أن من عادة العرب نسبة أسمائهم لأبائهم قبل نسبتها إلى عائلتهم الكبيرة. فمثلا يقال عن ابن محمود محمد بأنه محمد المحمود و لا يقال أنه محمد حميدو. فالنسبة إلى الأب في الاسم المتداول مقدم على النسبة للعائلة. فبالأب يعرف الابن و يعرف و هذا عرف موجود عن العرب حضرمهم و بدوهم. يذكر فتح الله الصايغ في رحلته عن أسماء شيوخ قبائل العرب فيقول عن شيخ الحسنة أنه مهنا الفاضل و ابنه ناصر المهنا.. فينسب ناصر لأبيه

م هنا في اسمه و ينسب م هنا إلى أبيه فاضل في اسمه دون أن ينسبوا إلى اسم عائلتهم الملحم. فالجميع يعرف نسبهم إلى عائلتهم بينما لا يمكن التعريف بهم إلا باسمهم المنسوب إلى أبيهم كما رأينا. و لي أقرباء ما زالوا حتى اليوم يلحق اسمهم باسم أبيهم عندما يذكرون. فيقال عن حسن بن محمد بن حسن الحمد حميدو بأنه حسن محمد و يقال عن والده عند ذكره بأنه محمد حسن. فكثيرة هي الأسماء المتكررة في العائلات. فكم هناك من محمدات وكم هناك من أحمدات و من هنا تصبح اداة التعريف الوحيدة للتمييز بينهم هو إلحاق اسمهم باسم آبائهم ليعرفوا و يعرفوا. إن تلك القاعدة تطبق أيضا في عائلتنا. فالابن ينسب في اسمه إلى أبيه كي يعرف و يعرف و هو مقدم على النسب الى اسم العائلة الذي لا خلاف و لا جدال عليه بل يثبت بنسبة الولد إلى أبيه.

محمد المحمود

محمد المحمود هو الابن البكر لمحمود حميدو و هو مختار دير جمال حتى وفاته قرابة العام 1930. ولد محمد المحمود في ديرجمال بين العامين 1865-1875 و لا نعرف كثيرا عن حياته إلا أنه كان مختار ديرجمال و له أوضة يستقبل فيها الناس و هي الآن في بيتنا القديم في الضيعة و ما زالت قائمة حتى اليوم. تزوج محمد المحمود مرتين: الأولى هي مراش

حج بكري حميدو والتي ولدت حوالي العام 1870 وهي صاحبة رواية أننا أتينا الى ديرجمال قبل مائة عام من العام 1970 والثانية من بيت عقيل وهي نانة والدي وأم جدي مصطفى. كانت له فرس أصيلة سرقت بعد أيام من وفاته ويقولون أنها ذهبت حزنا عليه كعادة الخيول الأصيلة. توفي محمد المحمود حوالي العام 1930 وله من الاولاد عبدالله ومصطفى وزكية من العقيلية و البقية بنات من الحج بكري و هم عواش و سامية و نفوس و فطوم.

مراش

كانت مراش زوجة محمد المحمود الأولى وأم أكبر بناته سامية و عواش و نفوس و فطوم عمات والدي. و مراش هي ابنة حج بكري حميدو بنت عمه. عمرت مراش أزيد من مئة عام وتوفيت حوالي العام 1974 ميلادية في بيت والدي سليمان الذي ورثه من أبيه مصطفى (الغرفة الكبيرة في بيتنا القديم في الضيعة وهي أوضة المختار التي كان يمارس منها جدي محمد المحمود سلطات مخترته). كانت مراش مقربة جدا من أبي مع أنها ليست نانتة المباشرة لكنه كان يسميها نانتي الحجة و كان يحكي لنا كثيرا عنها و عن نومه في حضنها و دلالها له. كانت مراش عممة نانتي (والدة أبي أمون) فكان من الطبيعي أن تكون علاقته قوية

معها. فهي عمّة والدته و زوجة جده أي نانتة و المدللة عنده و المدلل عندها. لم ترزق مراش بأولاد ذكور فتزوج محمد المحمود من العقيلية (من بيت عقيل) فرزق منها بعبدالله و مصطفى (جدي) و زكية. اشتهرت مراش بكرها و عنادها و زعامتها. روت لي عمّة والدي فطوم أن والدتها مراش ذاع صيتها كما قالت في قضاء اعزاز كله عندما مر عسكر عثماني الى بيت محمد المحمود مختار الضيعة قرابة المغرب و لم يكن موجودا يومها في الضيعة. قالت لي بأنها استقبلتهم و أولت لهم و هيأت لهم مكانا للنوم ليقضوا الليلة في أوضة محمد المحمود المختار فقضوا فعلا الليلة في أوضة جدي وفي اليوم التالي غادروا و نشروا بين الناس سيرتها و كرمها في غياب زوجها. قالت لي عمّة والدي بنوع من المبالغة ربما: لقد وصل صيت كرمها و زعامتها حتى الأناضول.

ربما كان أبرز ما حدث معها خلال زواجها من محمد المحمود هو "حردها" في بيت أهلها لسنوات نتيجة رفضها طلب إرثها من اخوتها محمد علي حج بكري و حج أحمد حج بكري. فقد توفي أبيهم و هم صغار فرفضت مطالبتهم بالإرث و دخلت في مشكلة مع جدي محمد المحمود و حردت في بيت أهلها لسنوات قبل أن تعود إليه بعد مدة طويلة.

وفاة محمد المحمود

توفي محمد المحمود في قرابة العام 1930-1933 ميلادية. قالت لي عمّة والدي فطوم أنها كانت صغيرة عندما مرض أبيها محمد المحمود فذهبت معه الى حلب ليتداوى و قضاوا فترة في بيت أقارب لهم قبل أن يعود إلى الضيعة و يتوفى فيها. روت لي عمّة والدي فطوم أنها عندما رافقت والدها إلى حلب ليتداوى و قضاوا فترة في بيت أقارب لهم أدهشها أن نساء حلب لا ينكشفون على الرجال أي لا يظهرون وجوههم للرجال على عكس ما كان يحدث في الضيعة. فالظروف الاجتماعية في الضيعة كانت لا تمنع أن يرى الرجال النساء و أن يتحدثوا معهم و أن تأخذ المرأة دورها الاجتماعي بشكل كامل عكس ما كان يحدث في حلب حيث كان النساء لا يختلطون بالرجال ولا يحادثوهم بينما كان الاختلاط في الضيعة أمرا عاديا فهم يذهبون الى العمل في الحقول معهم بشكل طبيعي و يحادثونهم و يناقشونهم بشكل عادي. عندما توفي محمد المحمود كان جدي مصطفى صغيرا لا يتجاوز عمره الثلاث أو الأربع سنوات و أولاده الآخرون في أعمار مختلفة. كان أولاد العقيلية صغارا بينما كان أولاد مراش في سن أكبر.

أولاد محمد المحمود

تزوج محمد المحمود مرتين الأولى ابنة عمه مراش حج بكري حميدو و الثانية من بيت عقيل. رزق من مراش بنفوس و هي أكبر أولاده و سامية و عواش و فطوم و من الثانية بعبدالله أكبر أولاده الذكور الذي ولد قرابة العام 1917 و مصطفى جدي المباشر الذي ولد في العام 1927 و زكية أصغر أولاده.

أصبح عبدالله مختاراً للضيعة لفترة من الزمن بعد والده ثم استقر في حلب و روق بحمد و أحمد و محمود و عبد المجيد الذي توفي صغيراً. عمل عبدالله في الشرطة و توفي حوالي العام 1988-1989 ميلادية. أما مصطفى فقد تزوج من نانتي أمون محمد علي حج بكري حميدو حوالي العام 1953 و رزق منها بداية بسلوى التي ما لبثت أن توفيت ثم أبي سليمان في 1955/5/1 الذي توفي في العام 2016. استقر جدي في حلب لمدة قصيرة حيث عمل في شركة النقل الداخلي ثم ما لبث جدي مصطفى أن توفي في العام 1956 بعد مرض قصير عن عمر لم يتجاوز الـ 29 سنة. كانت وفاته مفاجئة و صاعقة بالنسبة لزوجته أمون التي لم يكن يتجاوز عمرها الـ 22 سنة (ولدت في العام 1934 ميلادية). روى لي أبي حكاية وفاته. فقد دعي إلى عرس في الضيعة و شرب مع المدعوين نبذاً بيتي الصنع مما سبب له ألماً كبيراً في معدته فنقل على

اثرها الى مستشفى فريشو في حلب ففضى بعض الوقت فيه قبل أن يخرج منه و يتوفى بعد فترة قصيرة. سألت أبي عن سبب خروجه من المستشفى وعدم متابعته العلاج فقال لي بأنه في أحد الأيام وهو ما زال في المستشفى نادى نانتي و طلب منها أن تفتح الخزانة في غرفة المستشفى ففتحتها فوجدت حذاء جديدا و ملابس جديدة قال لها أن أخيه عبدالله قد أتى بها. ثم أضاف بأنهم سيأخذون ثمنها من إرث ابنك الصغير إن توفيت إضافة إلى تكاليف المستشفى. كان عمر أبي يومها لم يتجاوز الستة أشهر. فهمت نانتي ما قصده جدي الذي طلب منها أن تخرجه من المستشفى وهو ما تم فعلا ليتوفى بعد فترة قصيرة تاركا نانتي و ابنه الصغير والدي سليمان وحيدين يكافحون في الدنيا دون سند حقيقي و لهم قصة تروى.

أحمد المحمود

لا نعرف بالتفصيل متى ولد أحمد المحمود لكننا نستطيع أن نقول أنه الولد الثاني أو الثالث لمحمود حميدو. نستطيع تقدير أنه ولد قرابة العام 1890-1900 ميلادية. وله حكاية لا نملك كثيرا من تفاصيلها لكننا نملك ما نقل شفهيًا في العائلة. عاش أحمد المحمود في النصف الأول من القرن العشرين فهو لم يعمر طويلا بل مات وهو شاب و ترك ولدا

صغيرا و زوجة في مقتبل عمرها. و كعادة الناس في الضيعة فبمجرد ما توفي أحمد المحمود أخذت زوجته و ولدها و عادت الى أهلها لتعيش بينهم. فهذا عرف عائلي لا يمكن القفز عنه. كان أهل زوجته يعيشون في الحارة الشمالية فابتعد الولد عن أعمامه بذهابه مع أمه الى بيت أهلها. ورث الولد الصغير عن أبيه مساحة كبيرة من الأرض الزراعية. يمكننا اليوم أن نقدر المساحة بحوالي ال 300 دسم (قياسا على ارث محمد المحمود الذي وزع بين أولاده). كان هذا الارث مطمعا للكثيرين. تقول الرواية التي نقلت لنا أن عمه حسن طلب من أمه أن يزورهم في حارتهم القبيلة و يقضي معهم بعض الأيام. وافقت الأم و أرسلته إليهم. لا نعرف بالضبط كم كان عمره وقتها. المهم أنه ذهب إليهم ثم توفي. يمكننا أن نقدر زمن الحادثة في حوالي العام 1933-1936. فالواضح من الحادثة أن محمد المحمود لم يكن على قيد الحياة و هو ما جعل إرثه كله يذهب الى حسن المحمود دون محمد المحمود و أولاده حسب قواعد الشرع. فلو كان محمد المحمود على قيد الحياة لكان ورث هو و أبنائه لكن الإرث كله ذهب إلى حسن المحمود و أولاده. انطوى ذكر أحمد المحمود ب وفاة ابنه و انقطع ذكره و نسله في هذه الدنيا و أضحت قصة تروى و تاريخا يذكر.

حسن المحمود

ربما يكون حسن المحمود هو ثاني أكبر أولاد محمود حميدو. في الحقيقة لا نعرف بالضبط ترتيب أولاد محمود حميدو لكننا نعرف حكا أن محمد المحمود هو أكبرهم نتيجة توليه المخترة و عمر أولاده و عمر زوجته الأولى مراش المولودة في حوالي العام 1870 ميلادية. نستطيع أن نخمن فقط أن حسن المحمود هو ثاني أولاد محمود حميدو مستندين على أعمار أولاده و تواريخ ميلادهم. أعقب حسن المحمود خضرو و محمد و محمود. و قد سمى خضرو إحياء لإسم أخيه الذي أخذ الى الأخذ عسكر ليحارب في الحرب العالمية الأولى و لم يعد و الأرجح أنه استشهد في غاليبولي أو شناق قلعة.⁴⁸

خضرو المحمود

كثيرا ما سمعت عن خضرو محمود حميدو. هذا الاسم كان في البداية يذكر بشكل عابر في جلساتنا الكثيرة دون أن أعرف من يكون. كنت

⁴⁸ غاليبولي و شناق قلعة هي اسم لمعركة واحدة تعرف عند البريطانيين بغاليبولي و عند العثمانيين ب شناق قلعة. حدثت هذه المعركة في الحرب العالمية الأولى وتحديدًا في العام 1915 إلى العام 1916 و فيها حاولت البحرية البريطانية الاستيلاء على مضيق الدردنيل و اسطنبول لكنها هزمت و لم تتمكن من ذلك.

أفهم من سياق الحديث أنه أخ لجد والدي محمد المحمود لكنني لم أكن أعرف عن أولاده ونسله شيئاً. فأولاد محمود ونسلهم معروفون بالنسبة لي. فهؤلاء أولاد و أحفاد حسن محمود وهؤلاء أحفاد محمد المحمود لكن أين أولاد و أحفاد خضرو؟

ظل الأمر مبهماً بالنسبة لي حتى وجدت الإجابة من عممة والدي ابنة محمد المحمود. قالت لي عندما سألتها أن خضرو المحمود قد ذهب بالأخذ عسكر في العهد العثماني إلى الحرب ولم يعد.

كانت هذه الإجابة كافية بالنسبة لي لأفهم سبب عدم وجود نسل له خصوصاً عندما عرفت بأنه لم يكن متزوجاً عندما ذهب للأخذ عسكر. لقد ذهب خضرو إلى القتال في الحرب العالمية الأولى مجنداً في الجيش العثماني ولم يعد منذ ذلك الوقت. هذا ما استطعت الوصول إليه من عممة والدي و من كثيرين سألتهم عنه أكدوا لي هذه المعلومة. وصرت أعرف أيضاً أن خضرو بن حسن المحمود قد سمي على اسم عمه الذي ذهب ولم يعد كنوع من إبقاء ذكره داخل العائلة لكن هذه الذكرى ذوت و كادت أن تختفي لولا إصراري على معرفة من يكون و ما الذي حصل معه.

إن ذكرى الأشخاص عادة ما تظل حية طالما كانوا أحياء و صار لهم أولاد و نسل. فالذرية هي وحدها من تستطيع أن تبقى ذكرى أي

شخص. صحيح أن الأخ الذي ليس له عقب عندما يتوفى تبقى ذكراه حية لكن هذا الأمر يبقى مؤقتا و لفترة لا تلبث بعدها هذه الذكرى أن تتلاشى رويدا رويدا نتيجة انشغال الناس بحياتهم و تفاصيلها الكثيرة و صعوباتها التي لا تنتهي. الإنسان يحيا بعد موته بأولاده وأحفاده فهذه سنة الكون و سنة الحياة التي وضعها الله في البشر.

لقد ظلمت طويلا عندما كنت أخطط لأكتب عن عائلتي أضع خضرو كهدف لبحث يحبي ذكراه. فهؤلاء الأشخاص يحتاجون لمن يحبي ذكراهم على الأقل بالكتابة عنهم. فالكتابة هو نوع خالد من أنواع إحياء الذكرى تعيش لأجيال و تنتقل عبر القرون.

رغم كل ذلك فإني كنت أحتاج لشيء يوثق ذهابه إلى الأخذ عسكرو يوثق استشهاده. فنحن نعرف أن هناك كثيرون قد ذهبوا للجيش العثماني للقتال ولم يعودوا. جزء منهم قد استشهد و جزء قد فر من خدمته العسكرية وسافر إلى بلاد بعيدة لم يستطع العودة بعدها لانقطاع صلته ببلاده.

يمكننا من خلال دراسة السياق العام لولادات العائلة أن نقدر أن خضرو محمود حميدو قد ولد ولد بين العامين 1875 و 1885. إن هذا التقدير مبني على عاملين و هما التاريخ التقديري لولادة محمد محمود حميدو و هو ما وصلنا إليه أنه ولد حوالي العام 1870-1885 ميلادية وأيضا

من معرفة أن معظم الذين قد سيقوا للأخذ عسكروا في حرب البلقان و الحرب العالمية الأولى كانوا من مواليد عام 1875 إلى 1890 تقريبا. لقد وصلتنا هذه المعلومة من سجلات شهداء الجيش العثماني في هاتين الحربين والمنشورة على موقع شهداء الجيش التركي على الانترنت. لكن كل ذلك لم يوصلني بعد إلى تأكيد ذهاب خضرو إلى الحرب. صحيح أن الرواية تقول ذلك لكن وحتى ذهابه لا يعني أنه استشهد في تلك الحرب فقد يكون فر ولم يعد خصوصا في ظل صعوبة الاتصال والتنقل في ذاك الزمن. وقد يكون نجا واستقر في المكان الذي انتهى إليه سواء داخل تركيا الحالية أو غيرها. الموضوع شائك نوعا ما ولا يمكن حله بسهولة خصوصا وأن عملية التوثيق والتسجيل لم تكن معروفة أو منتشرة أو متاحة في ذلك الزمن. إن الوسيلة الوحيدة للوصول إلى الحقيقة هو في تدقيق قوائم شهداء الجيش العثماني في الحروب التي حصلت ابتداء من 1911. عمليا معظم الناس تخطت بين حربين وهما حرب السفر برك و هي حرب البلقان 1911 و الحرب العالمية الثانية في العام 1914 و تطلق على الاثنتين السفر برك و الأخذ عسكرو. إن الروايات التي وصلتنا عن ذهاب خضرو للحرب لا تحدد أي حرب منهم: أهى حرب البلقان أم الحرب العالمية الأولى؟

عموما يبدو البحث و التنقيب في القوائم هو السبيل الوحيد للوصول إلى قرب الحقيقة. فالحقيقة في النهاية هي ملك الأشخاص الذين عاصروا الحدث و عرفوا تفاصيله أما نحن فدورنا هو الاقتراب قدر الإمكان إلى تفاصيل ما حدث.

المهم قبل أن نبدأ البحث أن نقول بشكل واضح أن أسماء العوائل تختلف من جيل إلى جيل. وقد تنقسم العائلة الواحدة لعدة فروع لضخامة عددها والتميز فيما بين أفرادها لتشابه وتكرار الأسماء وقد يتغير اسم العائلة نتيجة تحولات اجتماعية ودينية وسياسية أو اقتصادية أو غيرها

•
عمليا لم تستقر أسماء العوائل الحالية في مدينة حلب حتى نهاية السبعينات من القرن العشرين . لقد شهدت الفترات السابقة اضطرابا كبيرا في أسماء العوائل و شهدت انشقاقات في العائلات و تنوع في الألقاب العائلية حتى ضمن العائلة الواحدة. مرد ذلك اساسا هو عدم انتظام السجل المدني بشكل كامل. لم يكن الناس يسجلون ولادتهم في سجلات الدولة. في الأصل لم يكن هناك سجلات منضبطة للنفوس و كانت الألقاب و أسماء العائلات تضبط من قبل الأشخاص أنفسهم و مما يختارونه.

وهنا لا بد أن نشير بشكل واضح إلى أن أغلب العائلات في حلب استقرت على اسمها الحالي عام 1870 وظهرت القوانين ضمن مجلة الأحكام العدلية وتم إنشاء السراي القديمة الملاصقة لسجن حلب القديم بعد ذلك بعدة سنوات . وقد استقرت الكنية بشكل نهائي عام 1922 وهو تاريخ تحرير النفوس العام والتعداد العام لسكان سورية زمن الانتداب الفرنسي إلا فيما ندر لسكان مدينة حلب.

استقرار الألقاب العائلية و الكنى لم يتحقق في حلب المدينة حتى عشرينيات القرن العشرين و في الريف حتى منتصف السبعينات. فما ينطبق على مدينة حلب لا ينطبق على سكان الريف سكان الريف لوجود مكتومين و لذلك فإن الكنى لم تستقر عند أغلبهم بشكل نهائي إلا بعد الإصدار العام للبطاقات الشخصية عام 1981. إن مشكلة الكنى في الريف كانت مشكلة كبيرة نتيجة اضطراب عمليات التسجيل و عدم وضوح الكنى بشكل عام عكس مدينة حلب التي كانت الكنى فيها بشكل عام تنسب لمهنة أو منصب أو صفة بينما كان هذا الأمر غير موجود في الريف و لم تكن للكنية قاعدة يستند عليها. فالأصل في الريف كان الانتماء العشائري و القبلي و العائلات الكبيرة و هنا كانت المعضلة. فضخامة العائلة و العشيرة لم تجعل من التكني بها أمراً عملياً. فالهدف الأساسي من الكنية هو التعريف بصاحبها و عندما ينسب

الشخص لعائلة ضخمة أو عشيرة كبيرة يصبح التعريف به امرا صعبا و من هنا رأينا تبدل الكنى و حدوث الانشقاقات في العائلات في مدينة حلب كلما كانت تكبر. مشكلة الكنى في الريف كانت كما أسلفنا في القاعدة التي يمكن السير عليها في إطلاق الكنى. ظلت هذه المشكلة قائمة حتى اصبح تسجيل النفوس أمرا لا مفر منه فبدا هنا التخطئ. فقد شهدنا عائلة واحدة بكنى عديدة و أولاد عمومة بكنى مختلفة و وجدنا شخصا كان بكنية ثم بعد فترة أضحي بأخرى وهكذا. فقد نشاهد شخصا واحدا كان ذا كنييتين. فوالدي كان في هويته الأولى بكنية المحمود وهو اسم جد والده المباشر ثم تغيرت كنيته في هوية تالية إلى حميدو وهو اسم العائلة الأصلي وأمي كنيته في هويتها حميدو بينما خالي كنيته العمر وهو اسم جد والدها عمر حميدو. ومثال آخر استطيع أن أضربه هنا وهو كنية ابن خال أبي محمد علي حيدر وهو في الواقع اسم واحد بلا كنية أصلا وهو اسم ثلاثي مركب لكنه أخذ كاسم مركب محمد علي وأضيفت الكنية حيدر بينما كنية أخيه وأبيه (خال والدي) هي حميدو بينما أم أبي وأخته كنيتهما حج بكري وهو اسم جدها المباشر. إن هذا الذي ذكرته مثال على التضارب في الكنى و عدم استقرارها و عدم وجود قاعدة واضحة لها. ظل الأمر كذلك حتى أصبح التسجيل أمرا إجباريا فأخذ اسم الجد الخامس كقاعدة للكنية وأصبح من

يسجل بعد ذلك يأخذ اسم هذا الجد ككنية له والذي مع تعاقب الأجيال أصبح جدا سادسا و سابعا وثامنا للأجيال التالية. فحميدو هو جدي السادس بينما كان لأبي جده الخامس فرسخ اسم حميدو ككنية لنا و لكل العائلة التي تنحدر من نسله.

المهم في كل ما ذكرته عن اضطراب الكنية أن أهم مشكلة سأواجهها في بحثي عن خضرو حميدو في قائمة شهداء الجيش العثماني هو اسمه و كنيته التي عرف بها في سجلات الجيش العثماني إن كان فعلا قد استشهد في إحدى الحربين. فالواضح أنني لن أجد كنية حميدو ملحقه باسمه. فهذه الكنية لم تكن قد استقرت ككنية للعائلة في ذاك الزمن أي في بداية القرن العشرين. فحميدو هو جده المباشر لخضرو و الجد المباشر عادة لم يكن يأخذ اسمه ككنية بل هي جزء من اسم ثلاثي للفرد و الكنية هي شئ أبعد من الجد المباشر.

وهنا علينا أن نسأل أنفسنا عن كنيتنا التي كنا نعرف بها في ذاك الزمن أي بدايات القرن العشرين. ما هي تلك الكنية؟ إنه سؤال مهم جدا للقيام بعملية بحث فعالة عن خضرو في سجلات الجيش العثماني. في الحقيقة إن كل ما وصلنا شفهيًا عن الكنية التي كنا نعرف بها قبل أن نعرف بكنية حميدو قليل جدا. لا أستطيع تفسير ذلك بشكل عام لكن الواضح أن الكنية لم تكن تشكل أمرا ذا قيمة كبيرة بل كان القلب

العشائري أو القبلي أو اسم العائلة الكبيرة الممتدة هو الأهم بينما كان يعتمد في المجتمعات الصغيرة على اسم الجد والانتماء العشائري أو القبلي أو العائلي الكبير كوسيلة تعريف ولهذا ظل نسبنا الدمليخي حيا حتى هذه اللحظة رغم مرور 400 عام على الأقل على بروزه كلقب لنا. إن كل ما نعرفه أننا كنا نلقب في الضيعة بلقب جدنا الحجي (أحمد الحجي) و كان يشار لنا ببيت الحجي (احمد) نسبة لجدنا الذي أتى مع عائلته إلى الضيعة وشكل مع عائلته وماله وغناه أساسا مهما من اساسات تكوين الضيعة.

إن لقب بيت الحجي ظل يطلق حتى وقت قريب على العائلات التي تنحدر من الحج أحمد وحتى أن الحارة القبلية التي سكن فيها أولاده وأحفاده من بعده تعرف بحارة بيت الحجي.

لكننا ورغم هذه المعلومة فإن البحث عن خضرو في سجلات شهداء الدولة العثمانية يبدو أمرا صعبا نتيجة عدم اتضاح القاعدة التي سنسلكها. إن الأهم قبل كل شيء هو تحديد هذه القاعدة ثم القيام بعملية حصر الأسماء للوصول إلى الاسم الأقرب للحقيقة إن كان فعلا خضرو قد استشهد في السفر برلك والأخذ عسكر.

الوصول إلى القاعدة تلك يكون أولا في الدخول إلى موقع وزارة الدفاع التركية. لقد خصصت وزارة الدفاع التركية قسما خاصا في موقعها عن

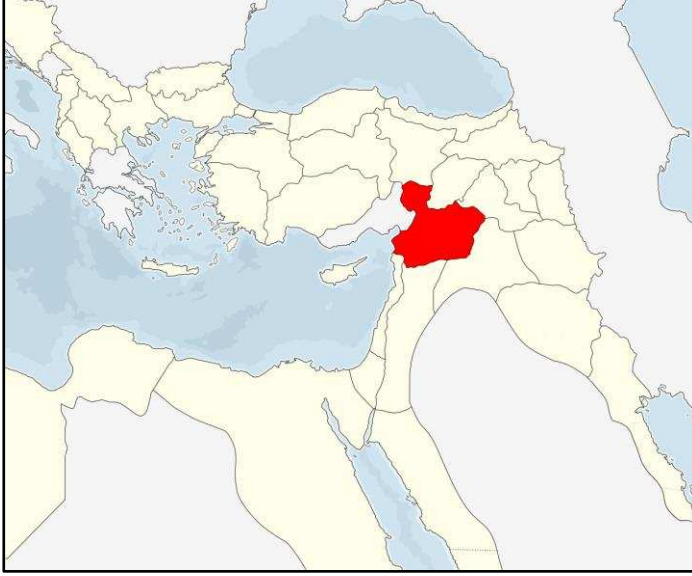
شهداء الجيش التركي خلال الفترة العثمانية و مرحلة الجمهورية ويحتوي هذا القسم على قاعدة بيانات⁴⁹ كاملة عن هؤلاء الشهداء تتضمن أسماءهم وأسماء عائلاتهم وأبائهم وتواريخ ميلادهم وأسماء الولايات والاقضية التي ينحدرون منها. نستطيع بكل تأكيد عندما نعرف الآلية التي تعمل بها قاعدة بيانات شهداء الجيش العثماني أن نضع القاعدة التي تمكننا من تتبع اسم خسرو أو الاقتراب منه. إننا ببساطة نستطيع الاقتراب منه بطرق متعددة. فنستطيع بداية ان ندخل اسمه و لقبه الذي نظن أنه كان يعرف به و ندخل أنه منحد من ولاية حلب و من قضاء اعزاز لكن المفارقة أن اعزاز غير مذكورة كقضاء في قاعدة البيانات هذه. و نستطيع أيضا تحديد الحرب التي سقط بها شهيدا. عموما فإننا قمنا بادخال اسم خسرو بعدة صيغ مع اسم حميدو فلم تعطنا قاعدة البيانات أي نتيجة فالإسم غير موجود في قاعدة البيانات هذه بهذا الشكل. إذا علينا أن نضع طريقة أخرى للوصول إلى الاسم. عمليا اخترنا الطريق الأصعب وهو عملية جرد كاملة لشهداء حلب في حرب

⁴⁹ Bakanlıđı, T. C. M. S. (n.d.). T.C. Millî Savunma Bakanlıđı. MSB.

<https://www.msb.gov.tr/SehitBilgiKapisi/SehitListesi>

البلقان و الحرب العالمية الأولى. لقد قضينا ساعات نبث وندقق في الأسماء لكننا لم نجد خضرو حميدو كإسم مطلقا في قاعدة البيانات. وقد سلكنا طريقا آخر لنصل إلى اسم خضرو في قاعدة بيانات الجيش العثماني. هذا الطريق هو طريق اختيار عنتاب وكلس كأساس للبحث. لا يمكننا فهم التاريخ العثماني دون فهم التقسيمات الإدارية للدولة العثمانية. التقسيمات الإدارية تلعب دورا رئيسيا في فهم الأحداث التاريخية التي حدثت و فهم حياة الناس و العلاقات الاقتصادية و الاجتماعية على نحو واضح.

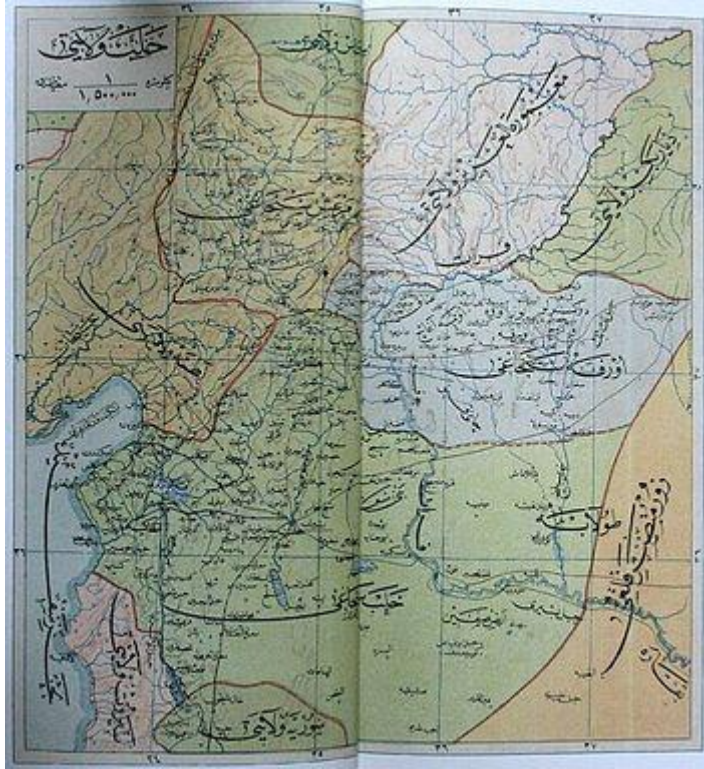
فالدولة العثمانية في نظامها الإداري تنقسم إلى ولايات و على رأس كل ولاية وال هو ممثل السلطان والخليفة في ولايته بما يشبه في يومنا هذا المحافظ الذي يكون على رأس محافظته ممثلا لرئيس السلطة المركزية و غالبا ما يكون الرئيس. و الولاية تنقسم إلى سناجق أو ألوية و السناجق ينقسم إلى أقضية و الأقضية تنقسم إلى نواحي و من ثم تأتي البلدات و القرى. كان هذا النظام الهرمي يؤمن للسلطة المركزية سيطرة إدارية تستطيع من خلالها السيطرة الاقتصادية والعسكرية على أنحاء الدولة الشاسعة المساحة.



خريطة 16 ولاية حلب في العهد العثماني حتى العام 1914

كانت حلب ولاية من ولايات الدولة العثمانية و كان على رأسها وال يدير شؤونها باسم السلطان ويعين منه مباشرة. كان ولاية حلب تضم أربعة سناجق⁵⁰ حتى العام 1914 وهو سنجق حلب و سنجق عنتاب و سنجق مرعش و سنجق أورفة.

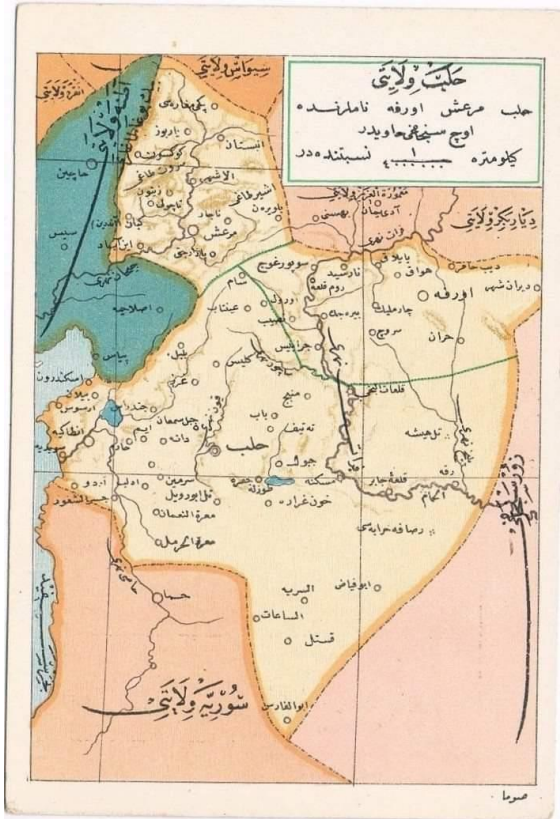
⁵⁰ السنجق هو اللواء و ما زالت الألوية كتنظيم اداري معمول بها في بعض الدول العربية خصوصا في الأردن. واللواء أكبر من القضاء و أصغر من المحافظة. فقد كان على رأس كل ولاية أو إيالة و على رأس السنجق أو اللواء متصرف و على رأس القضاء قائمقام.



خريطة 17 ولاية حلب في العهد العثماني قبل العام 1908 و تظهر تكونها من ثلاث سناق و هي سنجق حلب و سنجق أورفة و سنجق مرعش وبعد العام 1908 تشكل سنجق عنتاب و الذي كان تابعا لسنجق حلب قبل العام 1908

و كان سنجق عنتاب حتى العام 1908 جزءا من سنجق حلب لكنه بداية من العام 1908 أصبح سنجقا قائما بذاته يضم أفضية عديدة منها

قضاء كلز (كلس) الذي كان يتبع إليه ناحية اعزاز و ريفها و منها كانت دير جمال.



خريطة 18 ولاية حلب في العهد العثماني قبل العام 1908 وتظهر تكونها من ثلاث سناق و هي سنجق حلب و سنجق أورفة و سنجق مرعش وبعد العام 1908 تشكل سنجق عنتاب و الذي كان تابعا لسنجق حلب قبل العام 1908

ذكر الغزي في كتابه نهر الذهب في تاريخ حلب⁵¹ أن كلز كانت قضاء يرأسها قائم مقام و تتبع إليها نواحي منها اعزاز تركان و اعزاز فلاح. و قد ذكر الغزي أن قرى اعزاز فلاح تضم:

قطمة ٢١٥ معرسته ١١ مزرعة الخطيب ٢٠ مريمين ٣٢٠ أناب ١٦٦ شوارغت الأرز ٦٥ مالكية ٧١ مرعناز ٤٧ سيجواز ٤٤ أعزاز ١٣٢١ وا ١ عزاز ر ٧ كفر حاشر ٢٧ منق ٣١٢ تلالين ٢٠٦ تل رفات ١٠٢٨ مزرعة العلا ١٧ كل جبرين ٣٧٤ الشيخ باعو ٢٨٠ الدفتردار ١٠٩٨ كفر أنطون ٣٦ كفرة ٨٢ عين دقنه ١١٧ طاطمراش ٨٧ كشتعار ٥٦ تل عجار ٥٠ العلقمية ٣٩ تنب ٧٨ دير الجمال ٤٨٩ كفر نايا ٣٥٢ كفر ناصح ٨٩ الأحرص ١٣٣ طاشلي حربل ١٩٦ صوران ٤٤٦ حتملات ٢٨٨ دابق ٢٦٦ أرشاف ١٨٧ تركان بارح ٣١٩ الزياديه ٨٥ الكعيبية ٥٢ البليقة ١٦ قعر كلبين ٧١ آق برهان ٣٥ أخترين ٣٦٦ واش ٢٧ دير الهوى ٣٠ تلتانه ٣٠ بازوره ١١٨ غوز ٧٠ كسار ١١ قراميل ٤١ حاسين ٣٧ قافين ١١٧ معرائه ٥٥ جفتلك ٧٢ قول سروج ١٢٠ تويس ١٤ سنبل ١٨٣ غبطون ٣٩ بحوارته ١٢٧ حوار النهر ١٥٠.

⁵¹ الغزي, كامل. نهر الذهب في تاريخ حلب.

و كما هو واضح مما ذكره الغزي أن ديرجمال كانت تتبع لناحية اعزاز فلاح و يبلغ عدد سكانها في الزمن الذي انتهى فيه كامل الغزي من كتابه حوالي العام 1920 كان يبلغ 489 فردا. و ذكر الغزي أن قضاء كلز مشهور بكثرة قراه و غناه وكثرة غلاله فقال:

"وقضاء كلز لا يوجد في الأقضية التابعة ولاية حلب أيام الحكومة العثمانية ما يضاهيه بكثرة القرى ووفور الغلات."

و يخبرنا الغزي أن مركز القضاء كانت اعزاز ثم بعد الهجوم التتري في العام 658 دمرت اعزاز فلجأ سكانها إلى كلز فبدأت بالاتساع و النمو و الازدهار منذ ذلك الحين.

يقول الغزي :

"ومدينة كلز غير قديمة، إنما كانت قرية صغيرة من جملة قرى كورة عزاز فلما خربت عزاز بحادثة التتر الأولى وذلك سنة ٦٥٨ انتقل أكثر ما بقي من أهلها إلى كلز فأخذت من ذلك التاريخ بالاتساع والعمران" اعتمد الجيش العثماني في تجنيده للجنود في الحرب العالمية الأولى على اسم السنجق و ليس على اسم الولاية. فكان الجيش العثماني يذكر اسم السنجق و من ثم القضاء و من ثم يعدد أسماء الأفراد المجندين فيه تبعا لسنجقهم و لقضائهم الذي يتبعون إليه.

يتضح ذلك بشكل واضح من قاعدة البيانات التي نشرها الجيش التركي على موقعه على الانترنت. فإذا ما بحثت مثلاً عن مجندي ديرجمال الذين استشهدوا في الحرب العالمية الأولى فلن تجدها تحت تصنيف سنجق حلب بل ستجدها تحت تصنيف سنجق عنتاب الذي كانت تتبع إليه كلز التي تتبع لها ديرجمال. ومن هنا يمكن أن نفهم غياب أسماء الشهداء تحت تصنيف حلب فالمقصود هنا بحلب هو سنجق حلب وليس ولاية حلب.

المهم أننا وصلنا إلى شخصين ينتميان إلى ديرجمال التي ذكر اسمهما بشكل واضح أنها تتبع لسنجق عنتاب قضاء كلس. الاسم الأول الذي وجدناه هو إبراهيم خضر وهو الاسم الأقرب. نخضرو هو تحريف لخضر و صيغة تحبب كأن يقال جملو لجمال و سامو لسامية وهكذا و هي صيغة معروفة و متداولة في مجتمعنا.

64

AFA

MET ALI

MEHMET

N

MET ISA

Şehit Bilgi Kapısı

Schittlerimiz

Adı: İBRAHİM

Baba Adı: KADİR

Doğum Tarihi: 1891

İl: GAZİANTEP

İlçe: KİLİS

Mahalle-Köy: DERCEMİL

Rutbe: NEFER(ER)

Sınıf: PİYADE

Harp: BİRİNCİ DÜNYA SAVAŞI (1914-1918)

Birlik : 18. KOLORDU 9. ALAY 3. TABUR 9. BÖLÜK

Zayıt Yeri : BAĞDAT FELAHIYE HARBI'NDE

Zayiat Tarihi : 05/05/1332

GAZİANTEP KİLİS SÖĞÜTLÜ

1891

GAZİANTEP KİLİS

1885

GAZİANTEP KİLİS TELASIN

Harp

DÜNYA SAVASI (1)

DÜNYA SAVAŞI (1914-1918)

DÜNYA SAVASI (1)

DÜNYA SAVASI (1)

DÜNYA SAVAŞI (1914-1918)

BİRİNCİ DÜNYA SAVASI (1914-1918)

BİRİNCİ DÜNYA SAVASI (1914-1918)

BİRİNCİ DÜNYA SAVASI (1914-1918)

وثيقة 3 ابراهيم خضر أو ما نعتقد أنه خضر و مسجل كشيد في قاعدة بيانات

شهداء الجيش العثماني في الحرب العالمية الأولى ويظهر ذكر لمسقط رأسه في

دير جمال في العام 1891

تبقى التسمية هنا محل أخذ ورد. فقاعدة البيانات تذكر أن اسمه إبراهيم واسم أبيه خضر لكنها تذكر نقطة أخرى مهمة جدا وهو أنه من مواليد العام 1890 وهو ما يكاد يطابق تقديرنا لتاريخ ميلاده. وقد ذكرت قاعدة البيانات أنه قد استشهد في 1914/03/31 في الحرب العالمية الأولى وهو تاريخ يسبق بداية الحرب العالمية الأولى التي اندلعت في

1914/7/28 ولم تدخل الدولة العثمانية الحرب هذه إلا في تشرين الأول أكتوبر أي بعد ثلاثة أشهر من اندلاعها.

JANNAN	1892	GAZIANTEP KİLİS EBRAS	WORLD WAR I (1914-1918)
LI	1891	GAZIANTEP KİLİS ÖNCÜPINAR	WORLD WAR I (1914-1918)
EDO	1899	GAZIANTEP KİLİS HACILAR	WORLD WAR I (1914-1918)
ACI OMER	18		(1914-1918)
ASAN	18		(1914-1918)
AYTA HASAN	18		(1914-1918)
MAIL	18		(1914-1918)
BDULKIM	18		(1914-1918)
HMET	18		(1914-1918)
HMET	18		(1914-1918)
HMET	1891	GAZIANTEP KİLİS AZEZ	WORLD WAR I (1914-1918)
HMET	1890	GAZIANTEP KİLİS	WORLD WAR I (1914-1918)
MUSTAFA		GAZIANTEP KİLİS	WORLD WAR I (1914-1918)

وثيقة 4 ذكرت قاعدة بيانات الجيش العثماني في الحرب العالمية الأولى شهيدا باسم محمد أحمد ظهر ذكر لمسقط رأسه في دير جمال في العام 1890

وقد وجدنا اسما ثانيًا ينحدر من دير جمال هو أحمد محمد دون أن تضيف أي كنية له. وقد ذكرت قاعدة البيانات انه من مواليد 1891 وهو مقارب تقديرنا لتاريخ ميلاد خضرو. وقد ذكرت أيضا أنه استشهد 02/03/1913 أي قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى بسنة و عدة

أشهر مع أنهم ذكروا أنه قد استشهد في الحرب العالمية التي امتدت بين
العامين 1914-1918.

إن الملاحظ بشكل واضح هي عدم دقة قاعدة البيانات. فقاعدة البيانات
هذه تعاني من أخطاء وهي غير كاملة وليست دقيقة وهذا ربما
ناتج أساسا من أرشيفات الجيش العثماني نفسها التي استخدمت لإنتاج
قاعدة البيانات هذه. فقدم هذه الأرشيفات وعدم معرفتنا بمدى دقة
ما تحتويه والطريقة التي سجلت فيها كلها أسباب قد تبرر عدم وضوح
النتائج التي وصلنا إليه والأخطاء التي قد نصادفها فيها . على العموم
فغن الواضح أن خضرو قد تم ذكره بشكل أو بآخر في قاعدة البيانات
هذه كشهيد استشهد في الحرب العالمية الأولى لكن كان هناك عدم
دقة في اسمه ولا بتاريخ استشهاده. فتاريخ استشهاده قد وضع قبل بداية
الحرب العالمية الأولى مع أن المذكور في هذه القاعدة أنه قد استشهد
في الحرب العالمية الأولى بينما ذكر اسمه بأنه إبراهيم واسم أبيه خضر و
هذا بالطبع غير صحيح كما نعرف ذلك و توارثناه. فاسمه هو خضر و
يتحجب له بخضرو و لما كان التسجيل الدقيق للنفوس غير موجود في
ذلك الزمن فقد يكون قد تم تحوير لاسمه أو أنه قد كان يحمل اسما
مركبا.

على العموم فقد تمكنت من الوصول إلى مكان قريب جدا له يذكره و يذكر حقيقة استشهاده. فهو قد ذكر اسم ابراهيم خضر⁵² و هو من ديرجمال و من مواليد العام 1890 و استشهد في الحرب العالمية الأولى. فهذه المعلومات تقترب جدا من كونها الإثبات التاريخي لوجود خضرو و استشهاده في الحرب العالمية الأولى و تأكيد بأنه قد أخذ مجندا في الجيش العثماني في تلك الحرب.

كنت أحاول فقط توثيق مسيرة خضرو و الوصول إلى تأريخ يحفظ سيرته التي لا أعرف إن كان غيري من العائلة ما زال يذكرها. يكفيني فقط أنني حاولت للوصول إلى نتيجة واضحة بشكل كامل لكننا لم أنجح بشكل كامل لكن يكفي أنني جعلت من السطور التي كتبتها توثيقا يخلد ذكراه.

إن السبب الرئيسي الذي لم يجعل نتيجة بحثي واضحة بشكل كامل لا تأويل فيها هو عدم دقة قاعدة البيانات المسجلة أساسا. المهم في كل هذا أننا قد وصلنا إلى اسم قريب من اسمه الحقيقي بتفاصيل تشبه

52 يبدو منطقيا القول بعدم دقة قاعدة بيانات الجيش العثماني. و يمكننا القول بأن الاسم قد تعرض لتغيير بسبب عدم الدقة تلك. فالاسم المنطقي هو خضر إبراهيم. و أما من أين جاء اسم إبراهيم فذلك أمر لا يمكننا إلا أن نفترض أنه أخذ الجد السابع لخضرو و هو والد حسن أغا. فالاسم الكامل لخضرو هو : خضرو بن محمود بن حميدو بن أحمد بن محمد علي بن حسن أغا بن إبراهيم

تفاصيله لكننا لم نجزم و لن نجزم بأن ما وصلنا إليه هو الحقيقة أو أنه هو المقصود بالاسم الذي عثرنا عليه.

حج بكري حميدو

هو ربما أكبر أولاد حميدو وأغناهم على الإطلاق وأوسعهم رزقا و مكانة و صيتا. و أستطيع أن أقول أنه قد ورث زعامة العائلة عن أبيه حميدو فذاع صيته و صيت غناه ومكاته. ولد حج بكري تقريبا في منتصف القرن التاسع عشر و توفي تقريبا في نهايته أو بداية القرن العشرين في سنواته الأولى.

يمكننا تقدير أنه الابن الكبير لحميدو من وراثته لبيت أبيه و جده حج أحمد (الحجي) في الدير القديم في حارة بيت الحجي القبلية. سكن حج بكري البيت القديم و أورثه إلى أولاده من بعده و ما زال أحفاده يسكنونه حتى اليوم. يروى أن سبب سعة رزقه و اتساعه إلى كونه قد ورث من أبيه حميدو و اشترى حصص أولاد عمه و ضمها إلى رزقه. و يمكن تقدير أن حج بكري قد نال الحصة الأكبر من إرث أبيه لأسباب لا نعرفها بشكل قاطع. فربما كان السبب أن الولد الكبير في ذلك الزمن المكلف بالقيام بواجبات أبيه نحو عائلته مجتمعه و محيطه

و المنوط به الزعامة من بعده هو الذي كان يرث الحصة الأكبر من الرزق هذا عدا أن النساء لم يكونوا يورثوا على عكس ما يقره الدين والشرع هذا بالإضافة إلى أسباب أخرى يمكننا تقديرها. فقد شاع في ذاك الزمن حرمان فئة من الأولاد من الإرث أو منحهم فقط جزءا صغيرا جدا سواء لغضب من الأب على أولاده أو تقديره بأنهم لن يصونوا إرثه. تزوج حج بكري عدة مرات و لم يرزق إلا بذكرين هما محمد علي (الولد الكبير) و حج أحمد (الولد الصغير). و حج بكري هو والد زوجة جد والدي محمد المحمود مراش التي كتبت عنها عندما ذكرت سيرة محمد المحمود.

تروى عن حج بكري قصة أنه عندما كان على فراش الموت وكان له زوجة لم ينجب منها فهمس له بعض أقاربه من المحيطين به بأنه إن توفي وهي على ذمته فسترث منه و ستنقل إرثها إلى أهلها. يقال أنه قد ناداها وهو على فراش الموت و طلقها. كان لحج بكري أوضة (نسي في الضيعة المضافة بالأوضة) ما زالت قائمة حتى اليوم لكنها لم تعد تستعمل إلا في المناسبات. كانت هذه الأوضة تشكل نفوذه وصيته.



الصورة 4 بقايا أوضة بيت حج بكري حميدو وقد ظلت قائمة حتى دمر جزء منها
الززال الذي ضرب حلب في شهر فبراير شباط 2023 و تظهر في الأعلى
المربعات التي كان يسكنها حج أحمد حج بكري

فقد كانت هذه الأوضة تظل مفتوحة طوال اليوم تستقبل الضيوف و المسافرين إلى حلب أو القادمين منها الذين يحل عليهم الظلام و هم على طريق السفر فتطعمهم و تؤمن لهم الراحة و المأوى حتى حلول الصباح إضافة إلى أنها كانت تستقبل أهالي الضيعة للسهر والسمر ومناقشة أمور و قضايا الضيعة. ظلت الأوضة تقوم بهذا الدور حتى نهاية القرن العشرين تقريبا لكن هذا الدور بدأ يخبو رويدا رويدا منذ وفاة آخر أولاد حج بكري الحج أحمد في العام 1982.

و كما أسلفنا فلحج بكري ولدين ذكور هما محمد علي و حج أحمد حج بكري ورثا كل ما كان يملكه الحج البكري و انتقل صيته إليهم و ظل كذلك حتى وفاة آخر حفيد لحج بكري محمد علي أو خالي محمد و هو خال والدي بداية القرن الواحد و العشرين و بوفاتهم خبا هذا الصيت و أصبح يذكر دون أن يدرك و يحكى عنه دون أن يرى. فقد كان يضرب المثل بهذا الصيت فيقال هذا أو هذه من بيت حج بكري وهو أمر كان مرادفا للصيت و الغنى و المكانة و الأصل و النفوذ.

محمد علي حج بكري

محمد علي هو والد نانتي (جدتي) أمون و جد أبي المباشر. توفي تقريبا في العام 1956 ميلادية عن عمر يقارب الـ 55 سنة أي أنه قد ولد تقريبا في العام 1900 أو قبلها أو بعدها بقليل. فنحن هنا نتحدث عن حيث زمني تقديري للولادات كوننا لا نملك غير التقدير وسيلة لذلك، آخذين في الاعتبار الروايات الشفهية التي وصلتنا.

توفي والده حج بكري و هو مازال صغيرا و ترك له مع أخيه أحمد مساحات كبيرة من الأراضي الزراعية نستطيع اليوم تقدير مساحتها بين 1800 و 2000 دونم من الأراضي الزراعية الخصبية. تزوج تقريبا في العام 1916 و 1917 من أسما السيد عمر (عائلة السيد عمر هي

عائلة من أقارب بيت حميدو تلتقي معهم في جد الحج أحمد بن محمد علي بن حسن آغا) ورزق منها بكري و محمد علي و زمة و عمر و أمون و نافلة و خالد.

كان محمد علي هو القائم على رزقه و رزق أخيه اللذين ورثاه عن أبيهم فكان هو يقوم بكل الأعمال الضرورية لرعاية هذا الرزق من الإشراف على العمال ومتابعة الحصاد والزراعة و البيع و الشراء و غيرها بينما لم يكن أخيه حج أحمد يهتم بمثل هذه الأمور بل كان مشغولا بالسفر و السياحة و بناء شبكة نفوذ مع مسؤولي الدولة و الأعيان موكلا كل رزقه لأخيه محمد علي. فنستطيع أن نقول انه كان موكلا بالشؤون الخارجية للعائلة بينما كان محمد علي معنيا بأمور البيت الداخلية. توفي محمد علي في العام 1956 ميلادية نتيجة جلطة أصابته وهو غاف على كتف طريق حلب بينما كان ينتظر البوسطة لتنقله لزيارة ابنه محمد علي في السجن و لهذه القصة تفاصيل تروى.

كان ابن محمد علي حج بكري (خالي محمد علي خال والدي) هو المدلل عند عائلته. فقد تزوج راضية ابنة عمه حج أحمد الوحيدة و شريك أبيه في الرزق الواسع و الكبير فنال دلال أبيه و دلال عمه و عرف مبكرا بأنه سيكون أغنى اخوته و الأكثر نفوذا و صيتا و وريث المكانة والسمعة.

كان هناك خلاف بين شبان من الضيعة مع شاب آخر لا أعرف بالضبط سببه. تطور هذا الخلاف ليصبح حقدا غار في صدور هؤلاء الشبان وأضحى أحد أهدافهم هو الانتقام من ذاك الشاب وصولا إلى قتله. لقد عقدت النية لقتله لكن المعضلة التي كانت تواجههم كانت توابع القتل. فالجميع يعرف الخلافات بينهم وبينه و قتله يعني سوقهم جميعا إلى حبل المشنقة فكان إيجاد مخرج من هذا المصير هو هدفهم. بعد تفكير اهتموا إلى فكرة إشراك محمد علي الابن (خالي محمد) في مخططهم. لقد وصلوا إلى قناعة أنهم بإشراكهم له سيضمنون بأن عائلة نافذة ستسعى لتخليصهم وإخراجهم من هذه المشكلة و سيتجنبون طريق المشنقة والسجن الطويل. لقد كانوا يعرفون بأن ابن حج بكري لن يترك لمصيره فهو ابن محمد علي حج بكري الغني الثري و صهر حج أحمد حج بكري صاحب النفوذ والثراء.

استطاع هؤلاء الشبان بطريقة ما جلب محمد علي الابن و اشراكه في مخططهم و عندما حان يوم التنفيذ ذهبوا جميعا و قتلوا ذلك الشاب. عرف مباشرة القتلة و قبض عليهم جميعا و سوقوا للمحكمة وليبدأ هنا فصل جديد في الحكاية.

كان القتل نتيجة خلافات مزمنة بين هؤلاء الشباب و بين ذاك الشاب لكن ما جعل القضية مختلفة هو أنهم بعد أن قتلوه قاموا بالتمثيل

بجثته و التبول عليها. كان هذا الفعل كافيا للقاضي ليصدر حكما بالإعدام شمل الجميع حتى محمد علي حج بكري مع ان الشباب اعترفوا بأنه لم يشارك في القتل بل حضره فقط.

بدأت العائلة تستخدم نفوذها لإخراج ابنها من السجن وإسقاط حكم الإعدام عنه. بدأت الأموال تُندفق وتغدق هنا وهناك حتى وصلوا إلى نتيجة مفادها أن ابنهم محمد علي يمكن إخراجه و تبرئته في الاستئناف من التهم لأنه عمليا حضر فقط عملية القتل ولم يشارك بها. هنا بدأت تظهر براعة تخطيط الشباب الذين قاموا بالقتل و يظهر حسن تدبيرهم. فقد كانوا يعرفون أن مكانة بيت حج بكري حميدو لن تسمح لهم بإخراج ابنهم فقط من القضية وترك البقية لمصيرهم ولذلك أشركوه معهم. لقد كانوا بالفعل على حق وعلى معرفة بقوانين الضيعة و تقاليد كبارها. لقد كانت موافقة بيت حج بكري على إخراج ابنهم فقط من السجن بمثابة نوع من العار سيعرض مكانتهم في المنطقة كلها وليس فقط في دير جمال للإهتزاز و سيفقدون عندها أهم عنصرين للسمعة وهما الثقة و القدرة. في هذه الأثناء توفي محمد علي حج بكري والد محمد علي أو خالي محمد كما نعرفه المسجون و المتهم بالقتل وهو ينتظر على حافة طريقة حلب البوسطة لنقله إلى حلب لزيارة ابنه. كان هذا قرابة العام ١٩٥٦.

قال لي جدي زكريا غالب عمر حميدو أن بيت عمه حج بكري حميدو قد فتحوا مخازنهم كلها للصرف وإخراج جميع الشباب من السجن. قال لي: لقد أخذنا قاطرة ومقطورة مليئة بشوالات الحنطة إلى خانات لبيت الجابري الذين كانوا نافذين وقتها و كانوا على علاقة ببيت حج بكري. أضاف جدي: لقد أخذنا منها شوالا وبعناه وقضينا يوما جميلا بعد أن أوصلنا الحمولة للخانات.

في النهاية تم الأمر و برئ الشبان جميعاً و غادرت عائلة القتيل الضيعة و نسيت كما نسي القتيل.

حج أحمد حج بكري

لا أستطيع أن أصف هذا الرجل إلا أنه اسطورة العائلة. فكل ما يروى عنه يقول بأنه كان أسطورة بمكانته و علاقاته و بحياته و بثروته (مقارنة ببقية العائلة). صحيح أن ثروته كانت تساوي ثروة أخيه لكن كرمه وسخاؤه (على الغريب) هو من جعل صيته يحلق في الآفاق.

ولد حج أحمد حج بكري بين العامين 1905-1910 حسب تقديرات مستندة إلى عمره التقديري وقت وفاته (76 سنة) و عمر أخيه محمد علي عند وفاته (55 سنة تقريبا) و هو الابن الأصغر لحج بكري حميدو الأكثر دلالة. عاش حج أحمد طيلة حياته حياة تشبه حياة الإقطاعيين

مع أنه لم يكن كذلك. فقد وكل لأخيه محمد علي كل ما يتعلق برزقه و تفرغ للسفر و الوجهة كما كانت تقول لي نانتي أمون ابنة أخيه محمد علي. كانت تقول لي بأنه كان يقضي أوقاتا طويلة خارج الضيعة في حلب و لبنان و يعود قرب موعد الحصاد ليقبض حصته من الموسم. رزق حج أحمد بإبنة واحدة هي راضية التي تزوجها ابن أخيه (خالي محمد) فورث رزقه كله مع حصته من أبيه. توفي حج أحمد في العام 1982 ميلادية.

كثيرة هي القصص التي تروى عن حج أحمد و عن مكانته و عن كرمه و وجهته. لقد استند هذا الكرم على رزق واسع متوارث و أوضة (مضافة) كانت تظل مفتوحة طوال أيام العام لمن يقصدها. و الأوضة هي لفظة نطقتها في الضيعة على المضافة أو المجلس و كان تقريبا لكل عائلة أوضتها إلا أن أوضة بيت حج بكري حميدو كانت الوحيدة التي تفتح طوال السنة. فقد كانت هذه الأوضة مركز نفوذهم و كانت تستقبل الناس من الضيعة فيسهرون فيها و يتبادلون فيها الأحاديث و يقدم فيها الشاي و القهوة المرة و الطعام أيضا. كانت الأوضة أيضا مكانا يقصده المسافرون من حلب إلى الريف و بالعكس عندما يحل الظلام أو يقطع الطريق بالمطر و الثلج فيلجئون إليها و ينامون فيها و يأكلون و يكرمون ثم يتابعون مسيرهم في اليوم التالي.

كانت هناك في الأوضة أفرشة لعابري السبيل تمد لهم في آخر الليل قبل النوم لمن أراد أن يقضي ليلته في الأوضة قبل أن يتابع مسيره في اليوم التالي.

لقد كانت الأوضة عموما مركز نفوذ العائلة كلها ومحط أنظار الناس في الضيعة لقضاء وقت جميل و هادئ دوما. و قد حاول البعض في الضيعة مجارة بيت حج بكري حميدو في فتح أوضة لكنهم لم يقدرُوا على مصروفها فاكتفوا بفتحها في المناسبات فقط كأوضة بيت الجمل التي شاهدها من الخارج مغلقة و كنت أسمع أنها كانت تفتح في الأعياد والمناسبات فقط.

كانت هناك أوض قديمة في الضيعة كأوضة جد أبي محمد المحمود و هي أوضة مخترته (مختار الضيعة) لكنها لم تستمر بعد وفاته فأغلقت و تحولت إلى غرفة من ضمن غرف بيتنا القديم في الضيعة و ما زالت موجودة حتى اليوم و ظلت أوضة بيت حج بكري حميدو قائمة تفتح دائما و يوميا حتى وفاة حج أحمد حج بكري فأصبحت تفتح يوميا مساء ثم تحولت إلى أوضة تفتح في المناسبات و الأعياد و ما زالت (دمرت أخيرا في الزلزال التذي ضرب حلب فب شهر شباط فبراير في العام 2023 و تظهر في الصورة أعلاه مدمرة).

وإلى جانب الأوضة كان كرم حج أحمد حج بكري ذائع الصيت. روي لي أنه في كل مرة كان يذهب فيها إلى سراي اعزاز ، كان يجتمع حوله الموظفون فيخرج من جيبه عملات ذهبية ويوزعها عليهم. لا أعرف بالضبط إن كانت عملات ذهبية أم لا لكن الواضح أنها كانت مبالغ قيمة. وقد وصل كرمه أنه كان يمنح قطع أراض لمن يريد بناء بيت أو أمر خاص ويطلبها منه.

كان الحج أحمد يتصرف كالإقطاعي الكبير الذي يملك ويوزع العطايا ويتمتع بالنفوذ والثراء.

اشترى حج أحمد بيتا في الجميلية في حلب في خمسينيات القرن العشرين و كان يقضي فيه الشتاء كله ويعود إلى الضيعة في الصيف في أوقات الحصاد وجني المحصول.

وفي الصيف اعتاد على نصب خيمة كبيرة في كرم البيلونة كان يستقبل فيها ضيوفه و ينام فيها طيلة شهور الصيف. روي لي أبي أنه كان بمجرد قدوم الصيف كان يقيم بيت شعر كبير في كرم البيلونة و يتوافد عليه الناس للسهر عنده و بقيم فيه الولائم. أخبرني أبي أيضا أنه حضر وليمة من لحم الحصيني (نوع من الثعالب) اصطادوه في كرم البيلونة و شوهه و أكلوه.

كان حج أحمد يسافر كثيرا إلى لبنان و دمشق و قد روي لي أنه كان هناك غرفة محجوزة له طيلة أيام السنة في فندق بدمشق و قد يكون ذلك من نوع المبالغة. كانت نانتي أمون دائمة الانتقاد له فكانت تقول لي غاضبة أنه " كان يقلق " و يدلل الغريب على حساب القريب و كانت تراه قاسيا فقد حاول بعد وفاة جدي مصطفى أن يجبرها على الزواج لكنها رفضت وعندما استقرت في حلب حاول تحريض إخوتها عليها و جلبها عنوة إلى الضيعة لكنه فشل.

كان أبي يحبه لكن نانتي (بنت أخيه) لم تكن كذلك بل كانت تراه قاسيا يحب "البهورة " و التسلق على أكفاهم. فقد عمل كل أولاد أخيه في أرضه و رزقه لمجده و لبروزه في المجتمع الذي كان يريد الدخول إليه وهو مجتمع العائلات الغنية و النافذة فنسج علاقات مع عائلات حلب الغنية كبيت الجابري الذي دعاهم إلى الضيعة و أولم لهم .

قالت لي نانتي غاضبة: لقد أتوا و أتى معهم خدمهم و طبaxterهم لتشرف بنفسها على تحضير الطعام و ما يحبونه و ما لا يحبونه. أضافت و هي غاضبة: لقد جعلنا كالخدم عند خدمهم نفذ ما يطلبونه.

من المعروف و حسب كل الروايات عن حج أحمد حبه للغريب و استصغاره للقريب فقد كان يتباهى بالغريب و علاقاته و يجعل من قريبه كالخادم عنده مع أن المرء يكبر بكبر مكانة قريبه وارتفاع قدره

و يستصغره الناس مهما بلغ من مكانة و كان أقرباؤه قليلي المكانة و المرتبة. فبالنسبة لي المرء يكبر مهما كانت مكانته بارتفاع مكانة أقربائه و نفوذهم و غناهم.

كانت علاقة حج أحمد مع بيت الجابري علاقة تبادل منافع يخدمونه بنفوذهم و يخدمهم في منطقته. قال لي جدي زكريا بأن حج أحمد كان يرسله مع عمال إلى تل سوسين ليفلح أرض بيت الجابري التي كانوا يملكونها هناك بجرار جنزير كان يمتلكه بيت حج بكري و يقضون أياما يفلحون الأرض الشاسعة هناك.

بدأ نفوذ حج أحمد يضعف رويدا رويدا بعد اندثار الطبقة السياسية والاقتصادية التي سادت في سورية و حلب حتى العام 1958 و بحجى الوحدة ثم البعث تراجع نفوذه مع أنه حاول أن يعوض ذلك بدفع أقاربه للوقوف مع الحكم الجديد. فقد كان سببا مباشرا في جعل جدي زكريا يتطوع في صفوف الجيش و يصبح ضابطا ذا نفوذ. كان جدي زكريا يحبه و يصفه دوما بالزعيم و ينسب له كل شيء جيد حصل معه في حياته. فقد زوجه بنت أخيه (نانتي نافلة) و شجعه على الانضمام للجيش.

كان أبي يحبه أيضا لكنه كان يذكر لي أنه عندما قرر السفر إلى السعودية حاول ثنيه و كان يقول له لن يفلح ابن أرملة (قاصدا أبي). و روى

لي أبي كيف أنه أخذه لسماع خطاب عبد الناصر عندما أتى إلى حلب و خطب من على شرفة الفندق السياحي و حمله على كتفيه ليرى عبد الناصر.

توفي حج أحمد في العام 1982 و بوفاته بدأ العصر الذهبي لبیت حج بكري حميدو يتلاشى خصوصا بعد وفاة ابن بنته أحمد في نفس السنة بعد أشهر من وفاته. كان الجميع يقولون بأن أحمد سيكون خليفة جده الوحيد الذي يستطيع الإبقاء على مكانة بيت حج بكري و نفوذهم. كان القدر حاسما في مسألة خلافة حج أحمد و كأنه هو الذي يريد أن تحبو مكانة و نفوذ بيت حج بكري و لحكمة ربانية أقلها تقلب الامور و تغيير الحال فلا دائم في هذا الكون إلا الله.

عمر حميدو

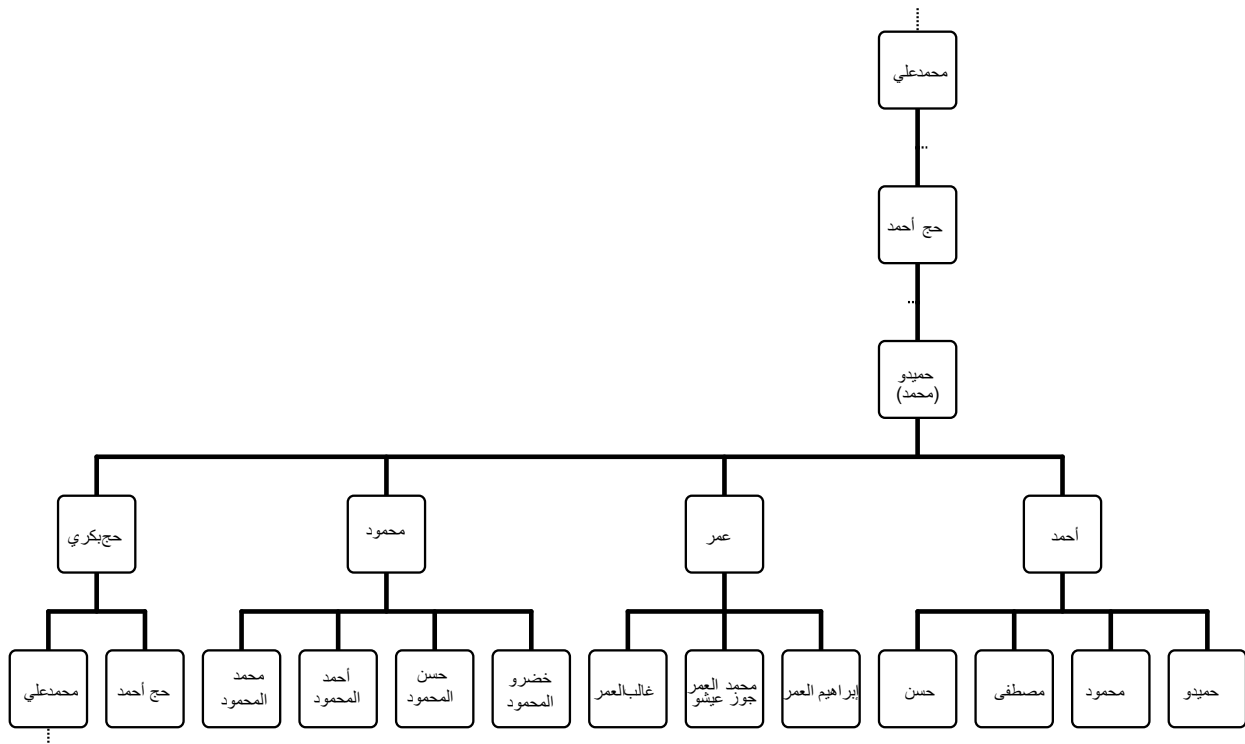
ربما يكون عمر حميدو هو أصغر أولاد حميدو و أقلهم ربما حظوة. علينا هنا التأكيد على أننا لا نعرف بالضبط ترتيب أولاد حميدو لكننا نعرف فقط أسماءهم و بعض أخبارهم المتناثرة كروايات شفوية بين أولادهم و أحفادهم. ولد كل أولاد حميد تقريبا بين منتصف القرن الثامن عشر و نهايته. إن هذه الفترة هي فترة تقديرية مبنية على تقاطع

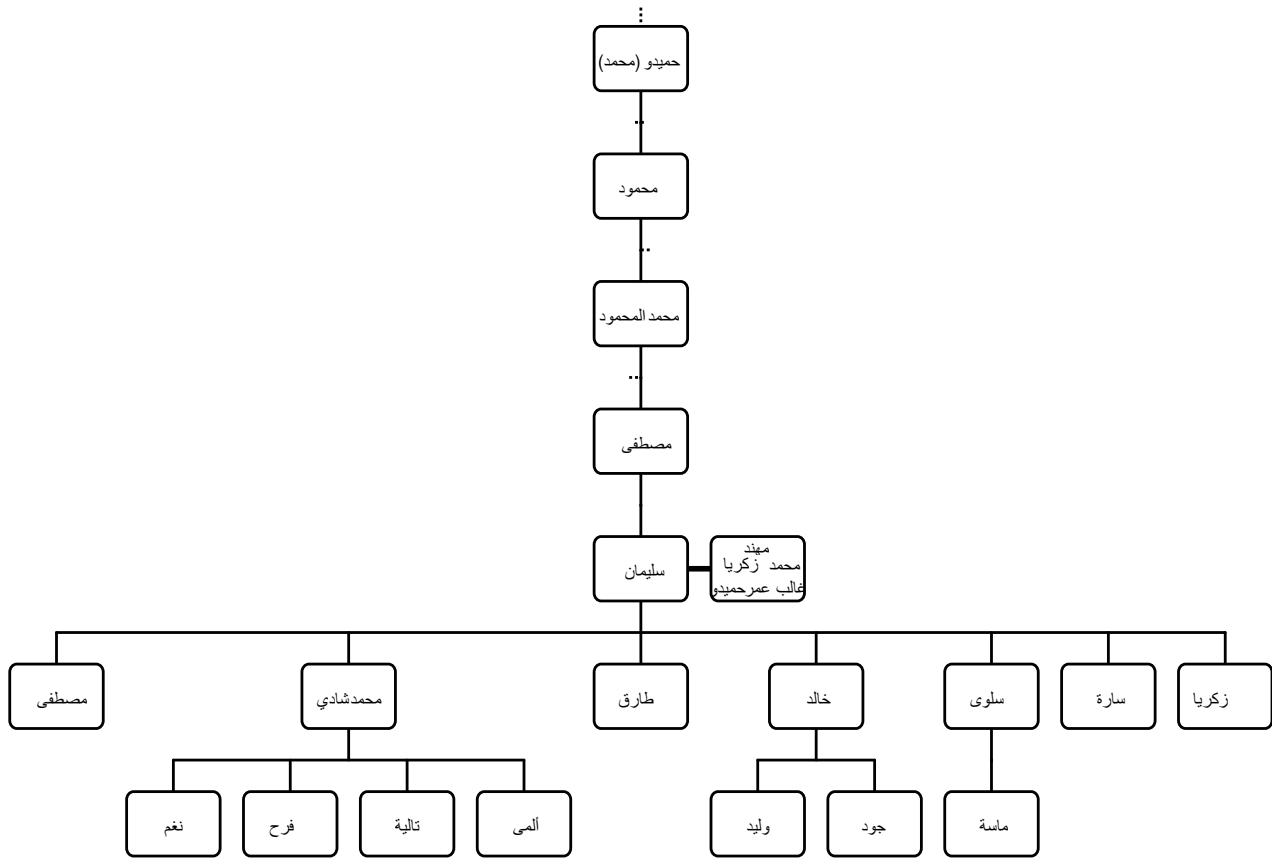
معلومات و تواريخ و مقارنات. ربما نستطيع أن نقدر أن عمر حميدو قد ولد حوالي العام 1860-1870. إنه مجرد تقدير لا نملك معلومة دقيقة تثبته لكننا يمكن أن نعتمد على تواريخ وفاته و أعمار أحفاده وأولاده للوصول الى تقدير سليم للفترة الزمنية التي ولد فيها عمر حميدو. فأكبر أحفاده ولد قرابة عشرينيات القرن العشرين و يصبح تقدير ولادة عمر بين العامين 1860-1870 منطقيا بناء على تقدير تاريخ ولادة أكبر أحفاده عمر غالب عمر حميدو عم أمي.

فعمر حميدو هو جد جدي زكريا غالب العمر المباشر. لم يعرفه جدي فقد توفي عمر حميدو (جده) ربما قبل ولادة جدي في ثلاثينيات القرن العشرين. فقد غادر للحج غاضبا من أولاده و أعطى كل ما يملك تقريبا من أراضي لابنه محمد (جوز عيشو) و لم يعد. لقد توفي في الحج و دفن هناك و لا نعرف بالضبط أين و لا أي معلومات عن مكان دفنه. رزق عمر حميدو بغالب (جد أمي) و نايف و ابراهيم و جوز عيشو.

أحمد حميدو

لا نعرف بالتفصيل معلومات كثيرة عن أحمد حميدو ولا ترتيبه بين أولاد حميدو ولا أستطيع أيضا تقدير تاريخ ميلاده لكننا نعرف أن أولاد حميدو جميعهم قد ولدوا في الفترة الزمنية بين العام 1845 و 1870 تقريبا. وربما يكون أحمد حميدو هو أصغر أولاد حميدو لو كان كذلك فمن المنطقي أنه قد يكون ولد قرابة العام 1870 ميلادية. ويعتبر أولاده هم أخوال جميع فروع بيت حميدو فقد زوج بناته لكل فروعهم و يندر أن تلتقي بأحد منهم ليس له خال من فرع أحمد حميدو. رزق أحمد حميدو بمصطفى و حميدو و محمود و حسن. حسن كان أكبرهم و حميدو كان أصغرهم.



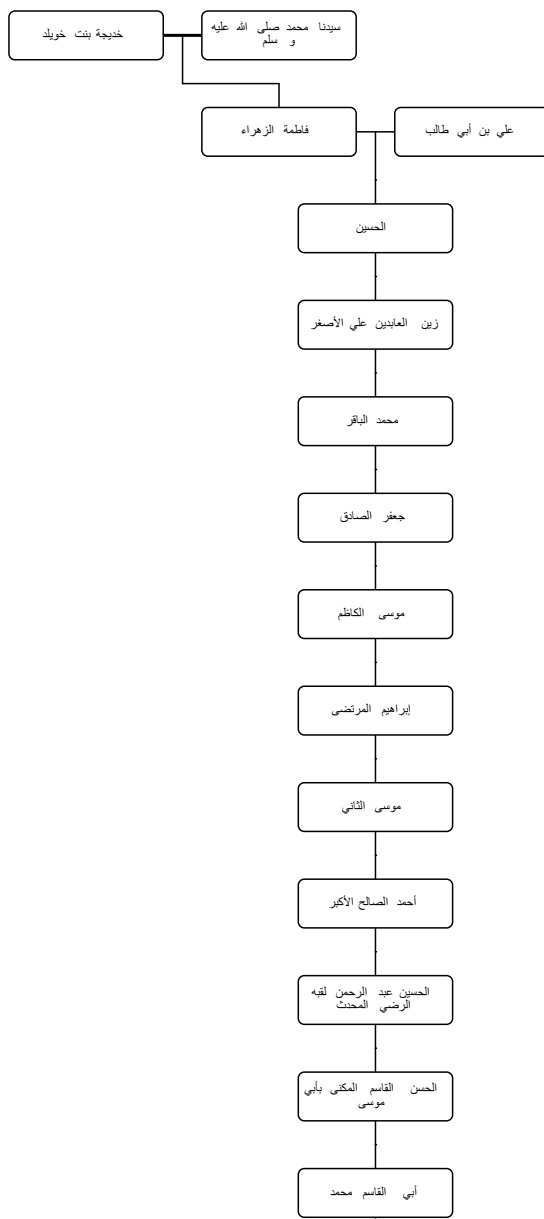


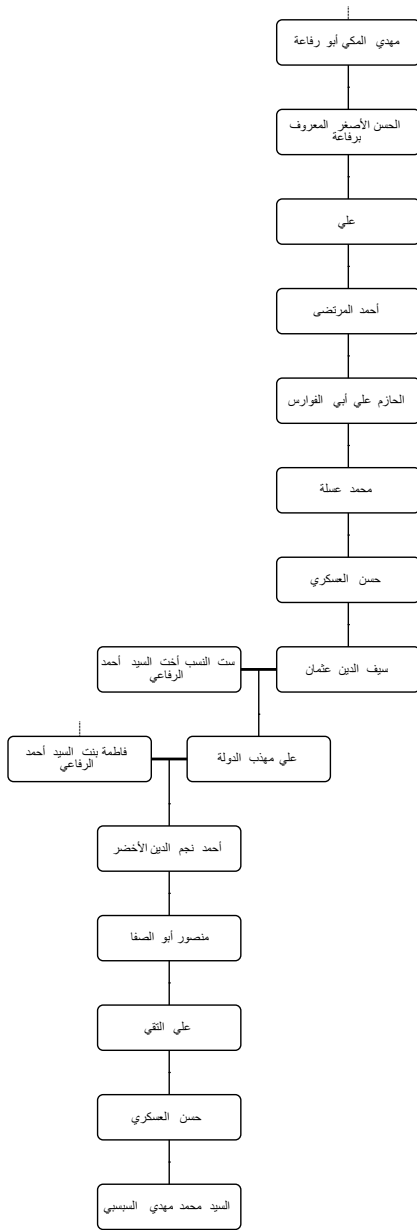
" ما أغفلك عما خلقت له ؟ وما أعجزك عما أمرت له ؟ منعك
طول الأمل، عن ذكر الأجل. لا تعص مولاك بطاعة هواك .
رأس الوفاء : ترك الجفاء، إن أردت المكارم فاجتنب المحارم،
قليل يكفيك خير من كثير يطغيك .
المؤمن: كثير الفعال، قليل المقال.
والمنافق: قليل الفعال كثير المقال.
اتق الله إذا خلوت، يستجب لك إذا دعوت .
غضب الله أشد من ناره، ورضوانه أكبر من جنته دع
التدبير إلى الملك الخبير "

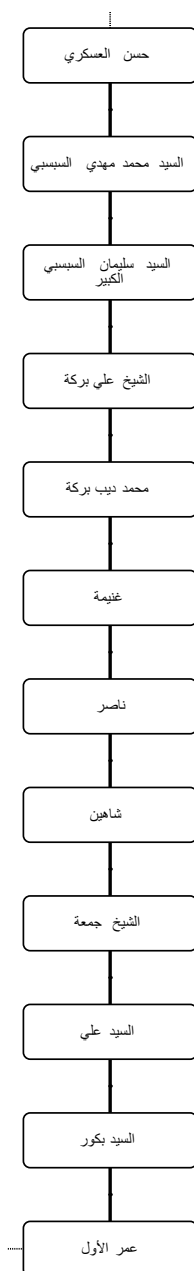
الإمام أحمد الرفاعي

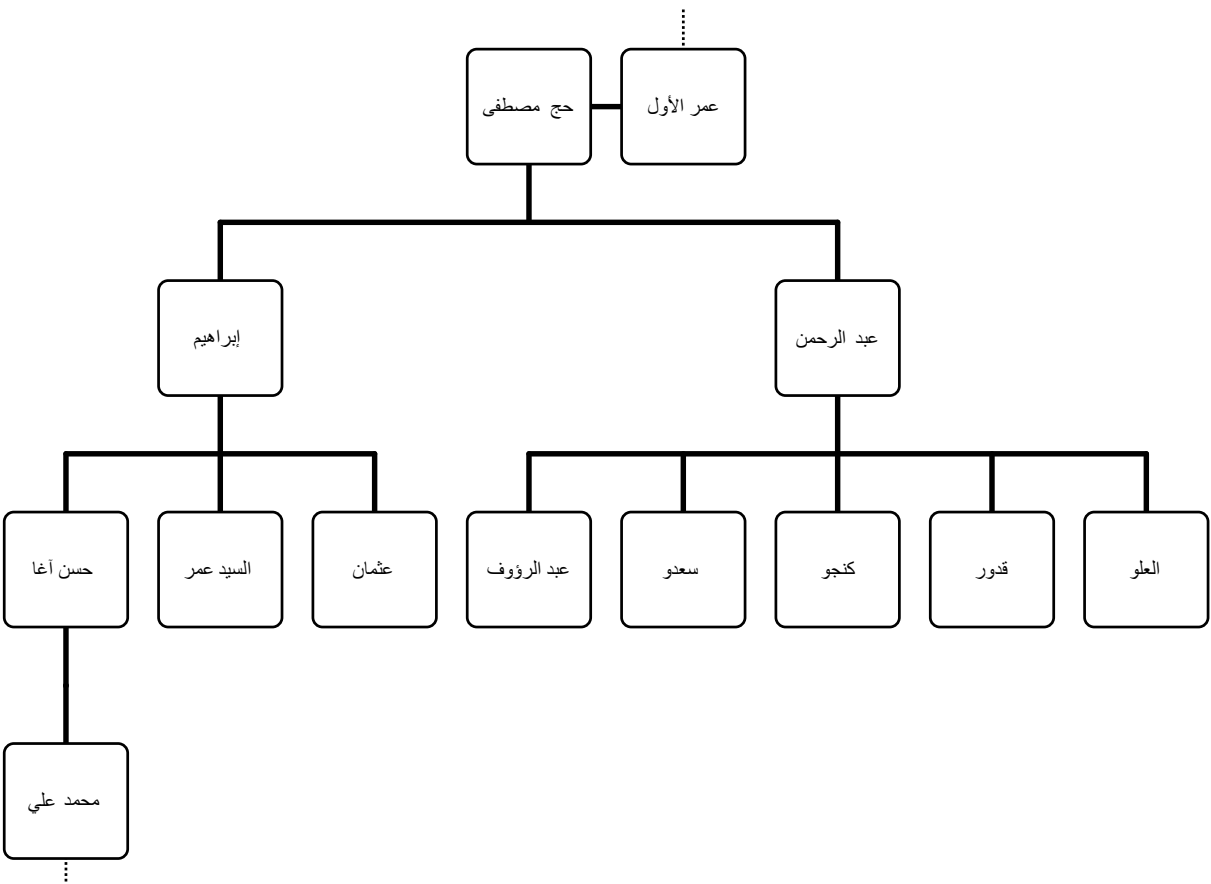
ملاحق

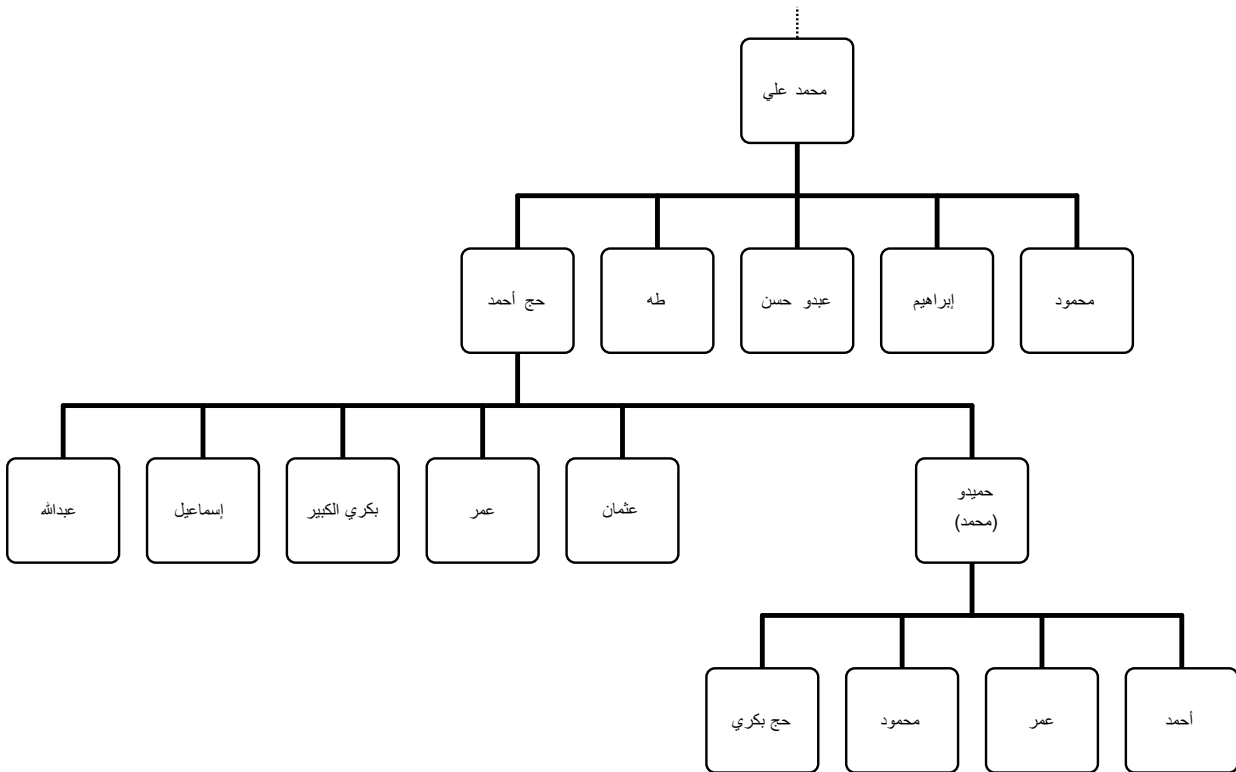
ملحق 1: الشجرة الكبيرة



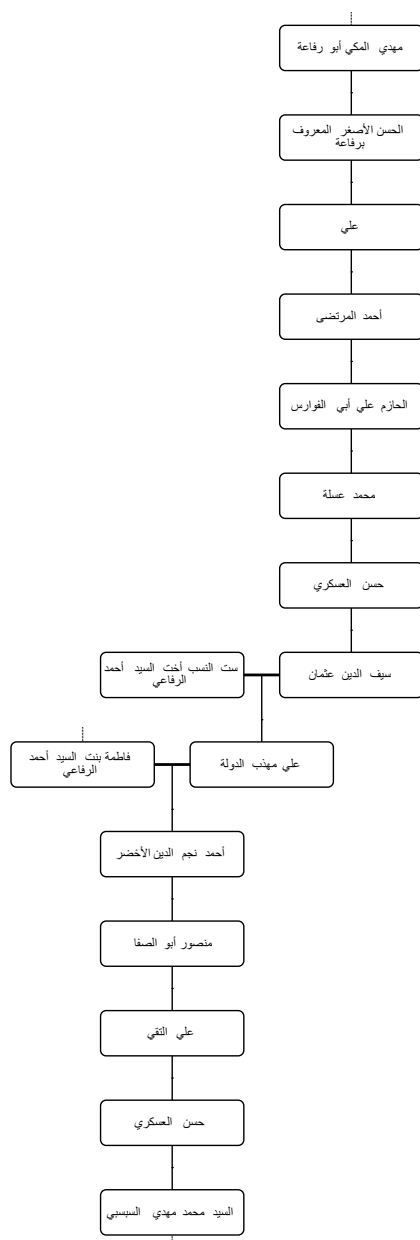




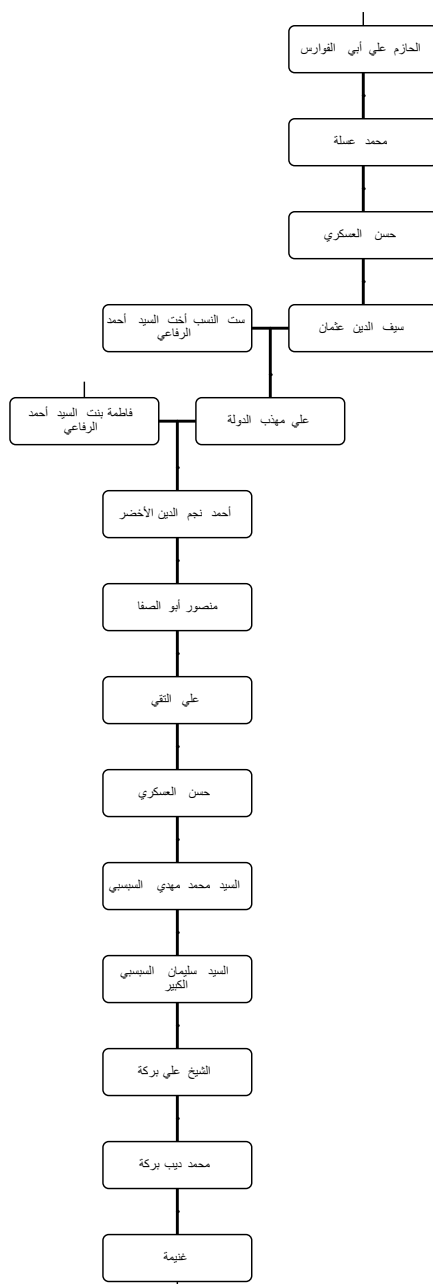




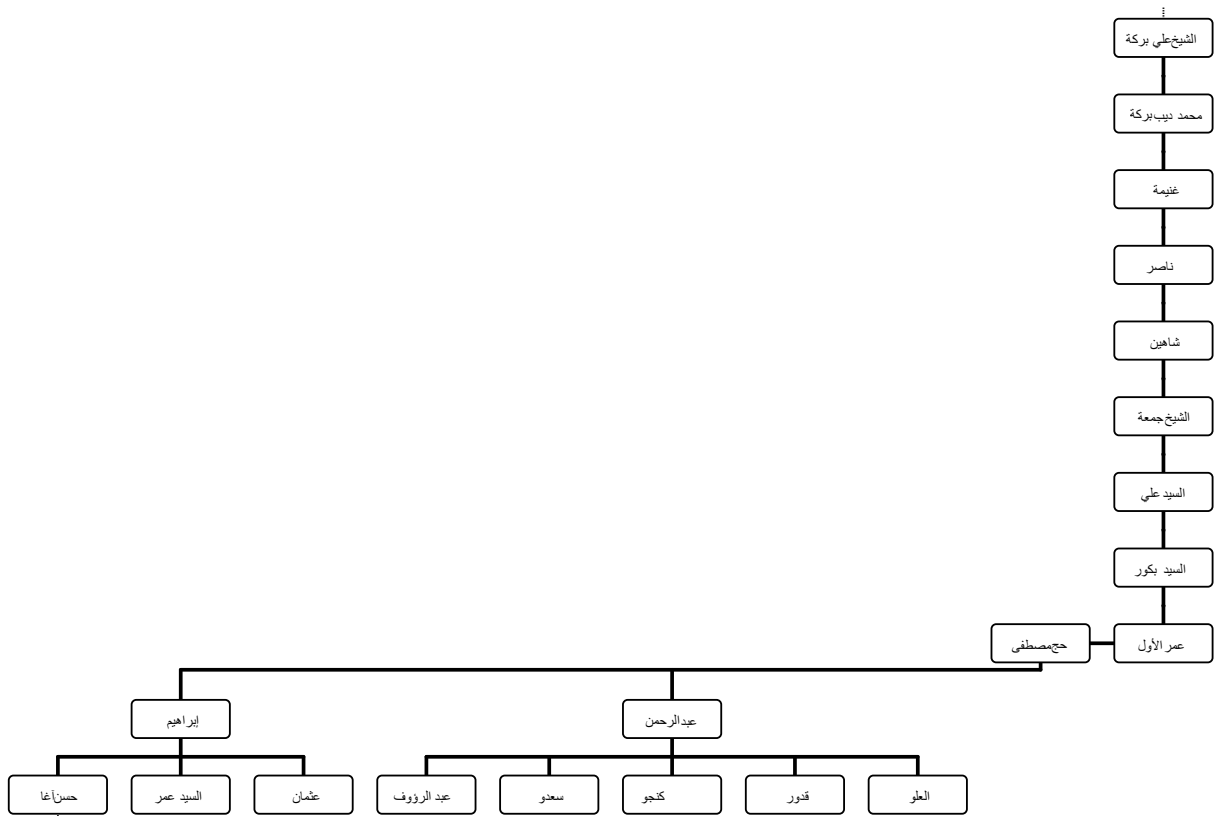
ملحق 2: الرفاعي



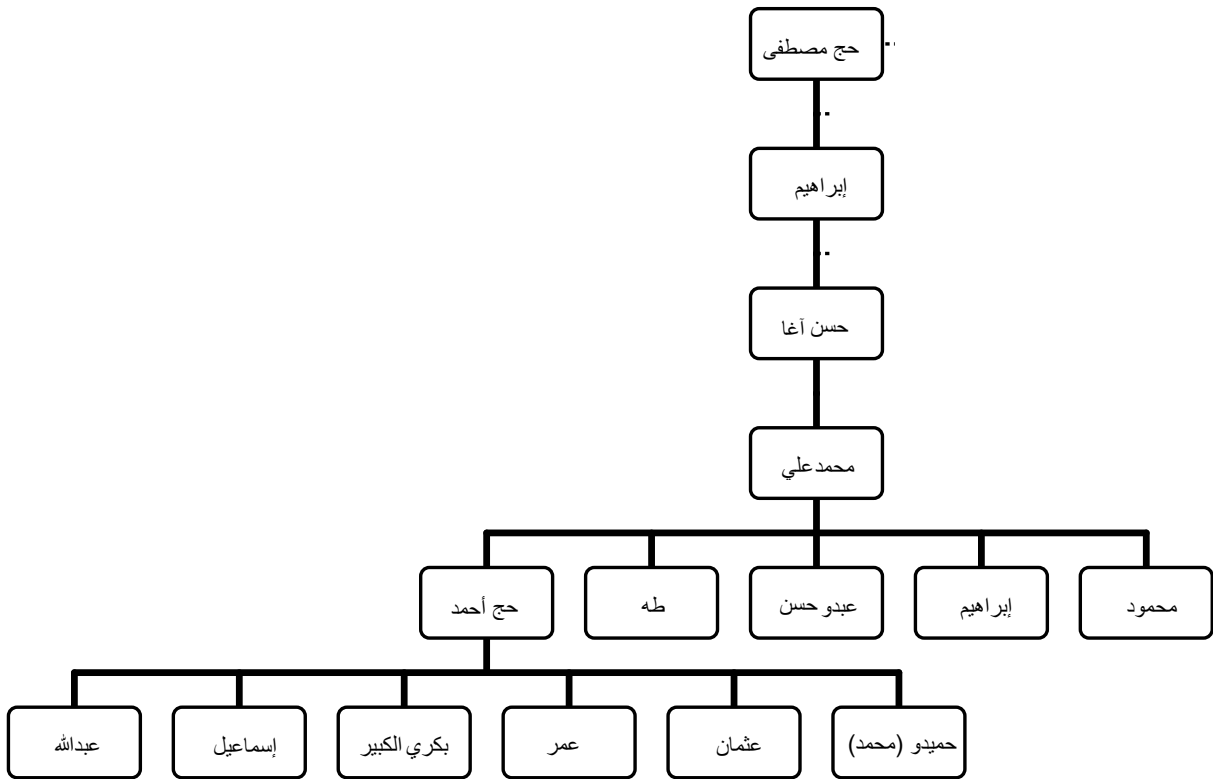
ملحق 3: السبسي



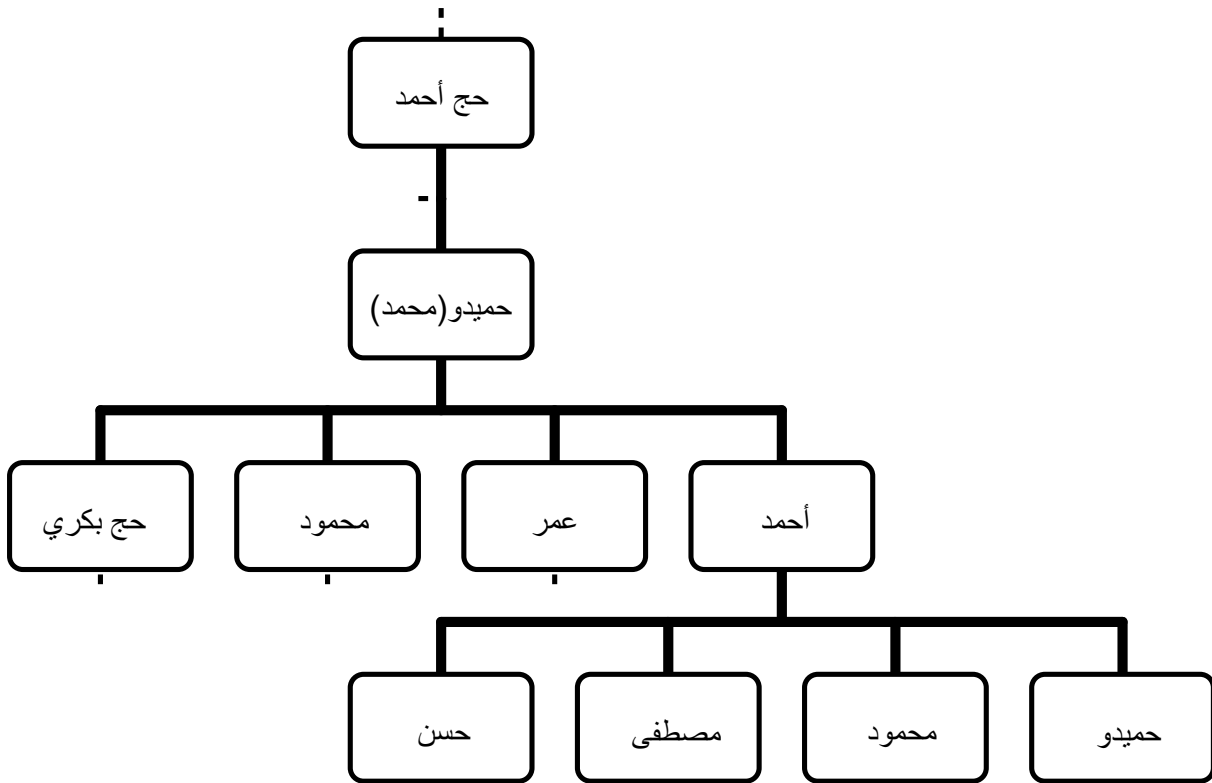
ملحق 4: حسن آغا

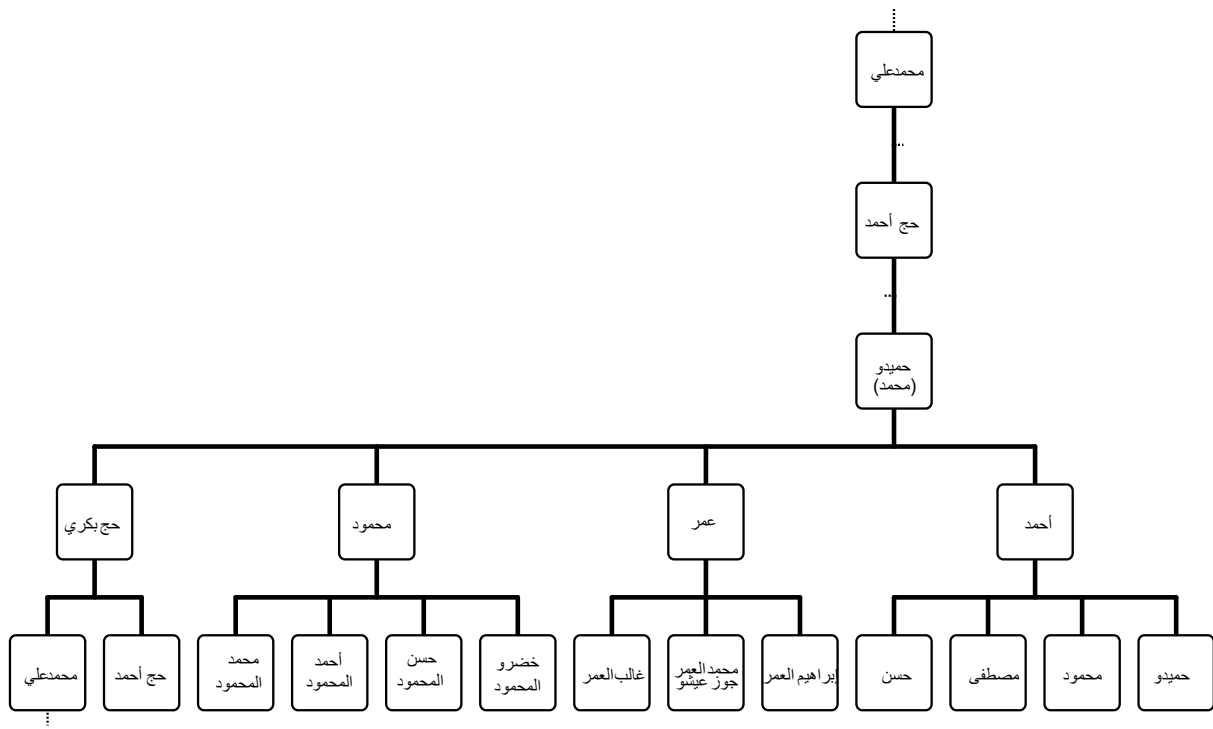


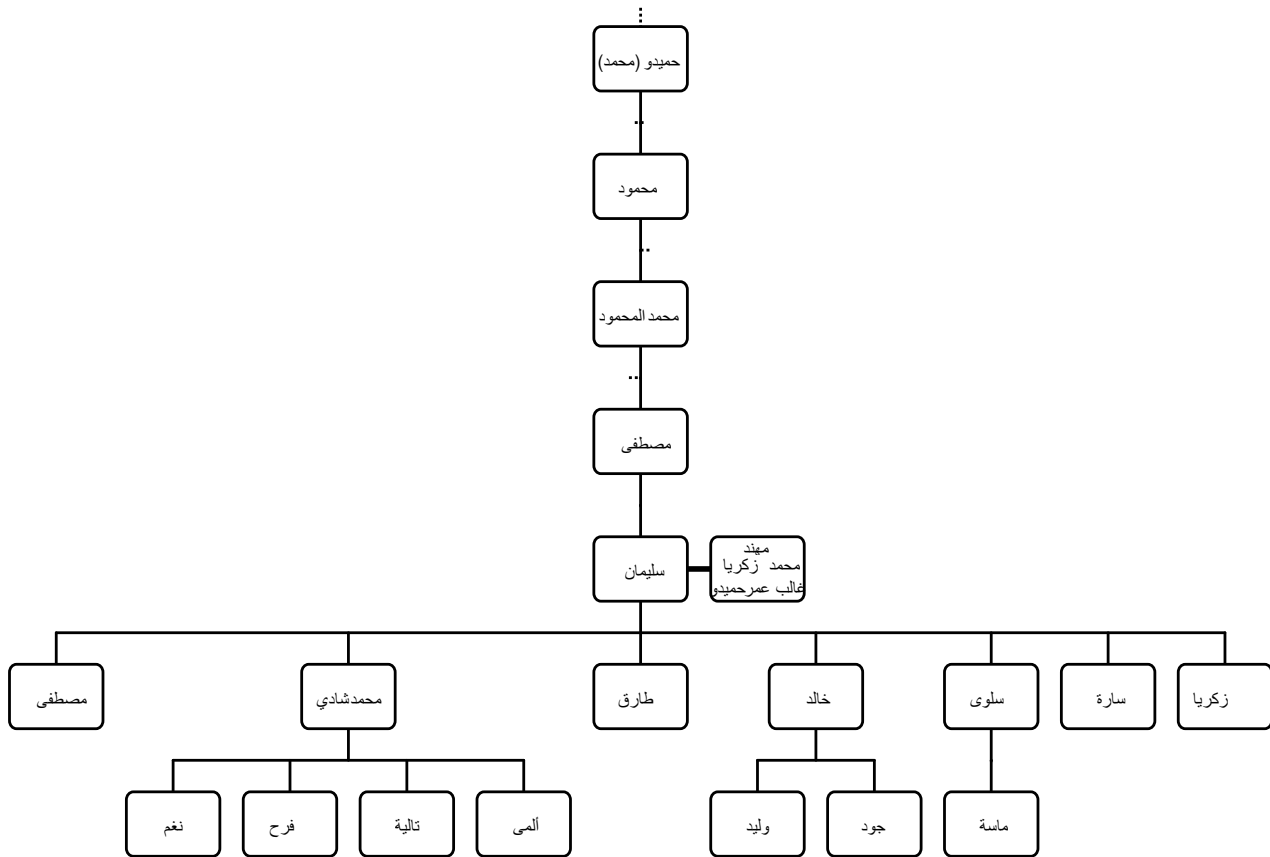
ملحق 5: حج أحمد

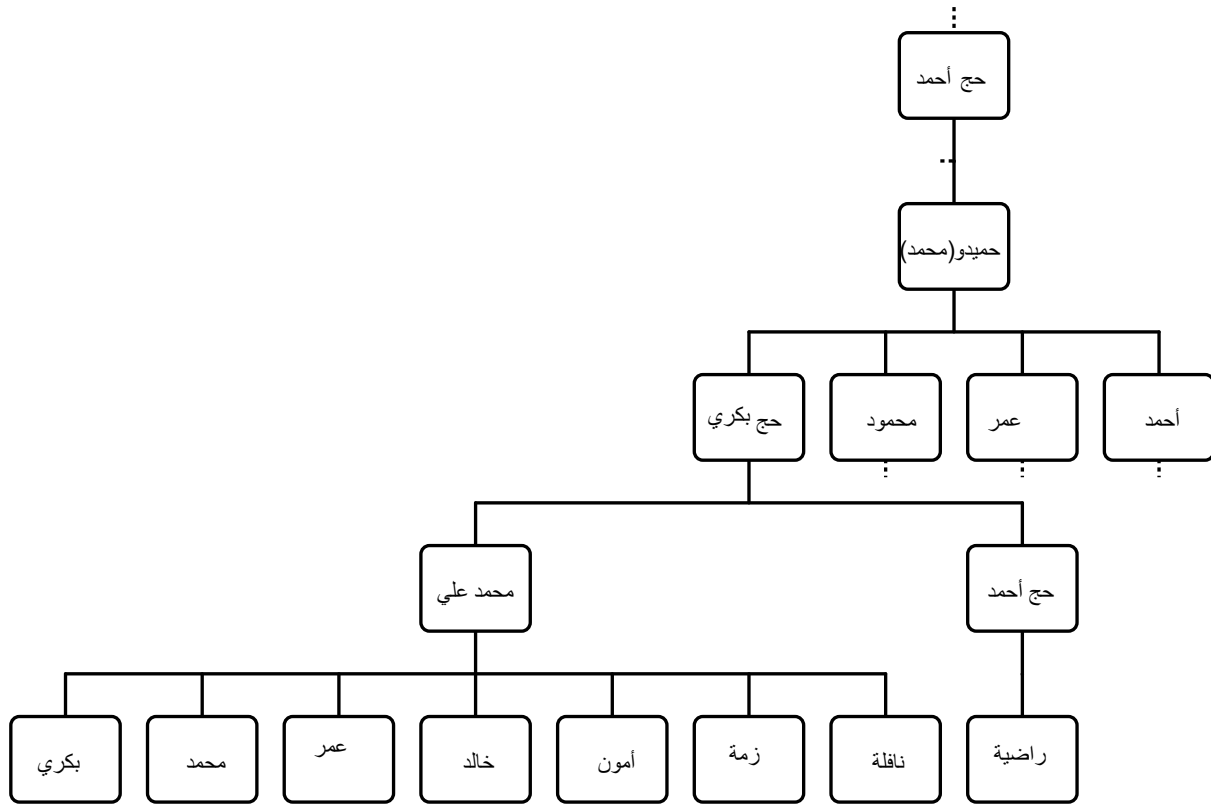


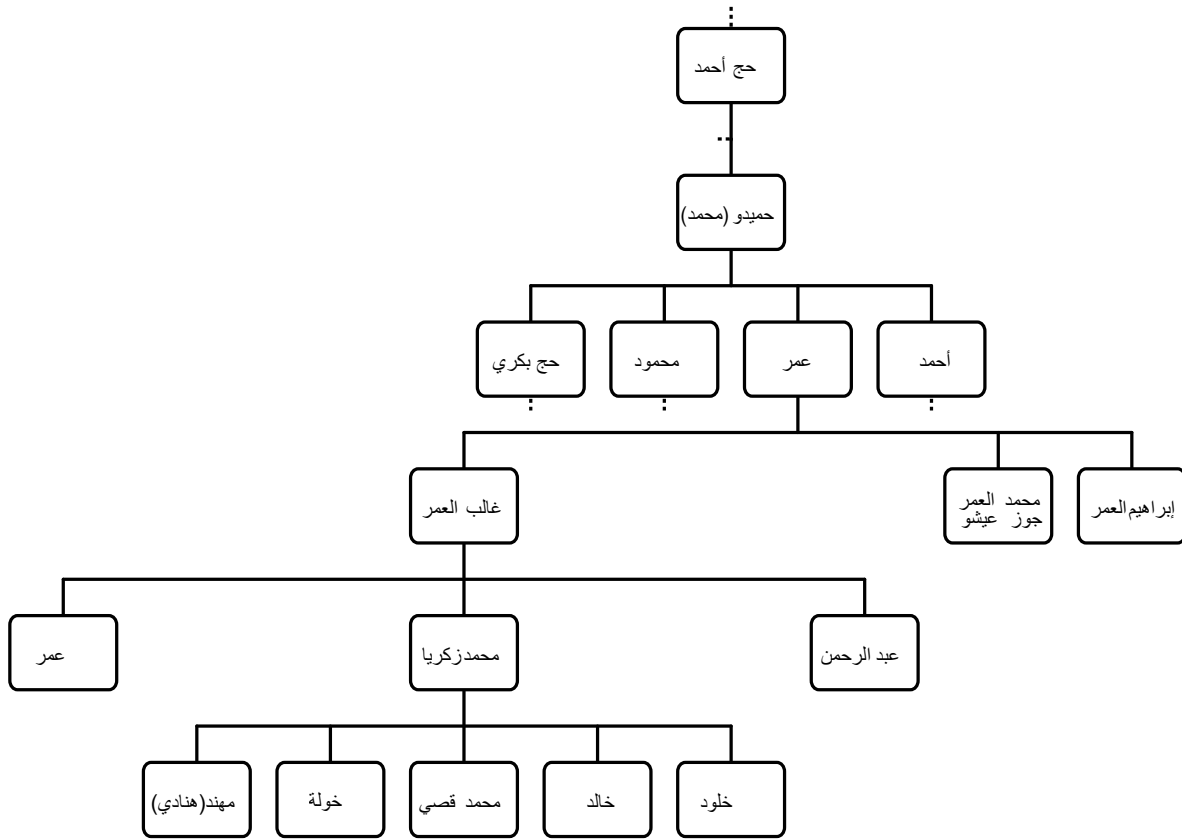
ملحق 6: حميدو





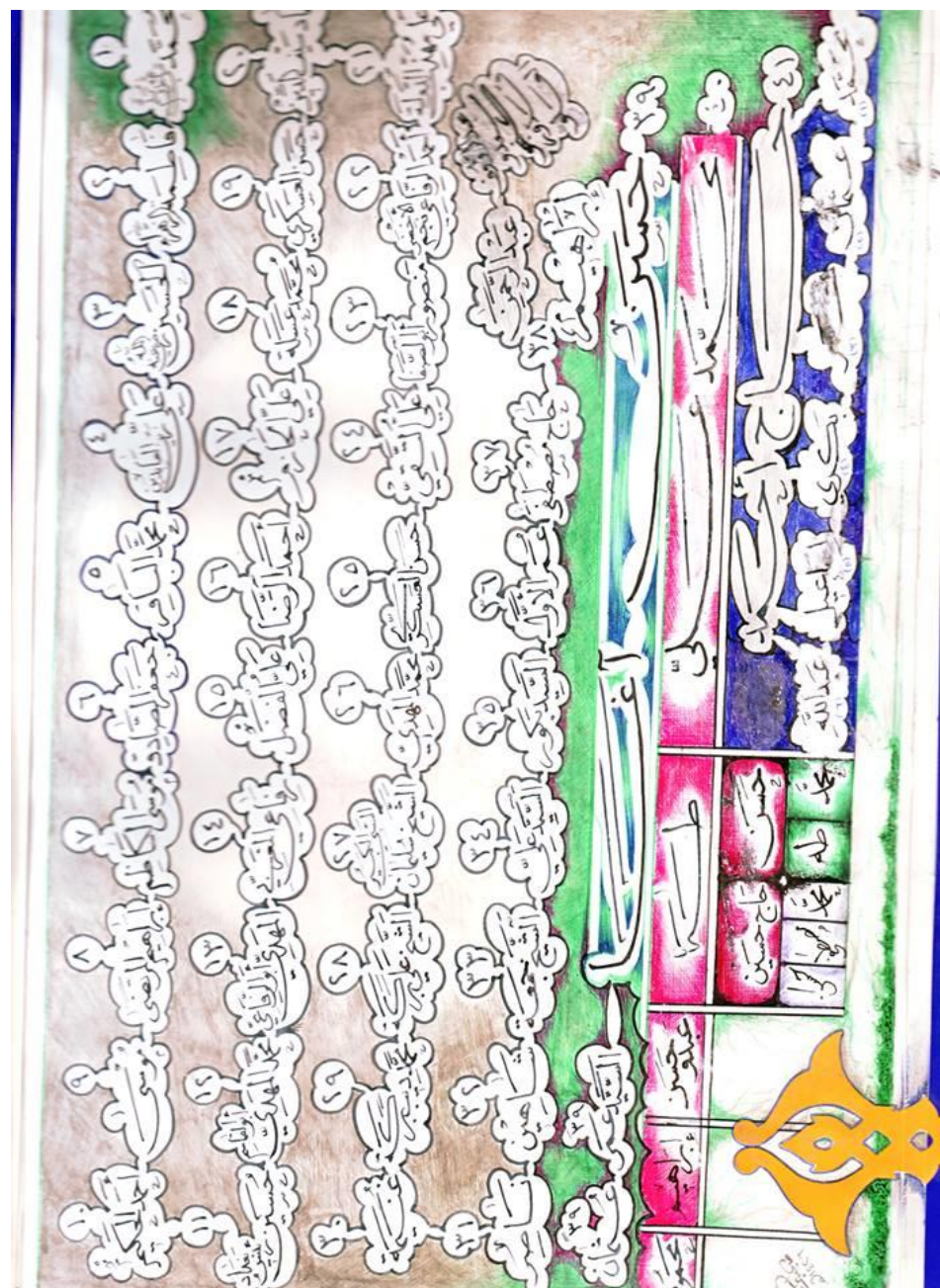






ملحق 7: شجرة العائلة المتوارثة

تتطابق الشجرة المتوارثة مع المشهور من المشجرات الرفاعية إلا في نقطة واحدة. فقط أسقطت الشجرة المتوارثة الحسن القاسم المكنى بأبي موسى كوالد محمد المهدي أبو القاسم وهذا لا يغير في صحة الشجرة. فكل ما ذكر فيها يتطابق مع كل المشجرات الرفاعية المشهورة.



الفهارس

الفهرس

المقدمة	7
كيف ولد الشغف؟	13
السؤال المحير	14
السيرة تروى أمام الصغار	18
خزانة أبي	19
الشيخ إبراهيم الرفاعي	25
البحث عن التفاصيل	27
الشغف طريق المعرفة	32
البداية من والدي	39
والدي	40
الحاج أحمد	42
حسن آغا	43
الدامالحة	45

السياسة.....	46
الرفاعيون.....	48
الرفاعيون	55
من هم الرفاعيون؟	55
السيد أحمد الرفاعي.....	57
حياته و علمه.....	64
عصر السيد أحمد الرفاعي	65
وفاة السيد أحمد الرفاعي.....	69
مذهبه وآثاره.....	71
سلالة أحمد الرفاعي	73
الطعن في النسب الرفاعي.....	79
السياسة	89
من هم السياسة ولماذا سموا بذلك؟	90
الانتقال إلى حماة.....	96
الوقف السبسي.....	100
السيد علي بركة السبسي.....	111

116 الشيخ بركة أورثنا الطريقة الرفاعية
117 علي بركة و سليمان السبسي
119 بعد معركة اللاوند
122 الطريقة السبسية
127 الدمانحة
129 من هم الدمانحة؟
130 جد الدمانحة
132 أصل لقب الدمانحة؟
133 الروايات المؤسسة
138 الاختلاف في الروايات
141 الصراع بين الأشراف و العسكر العثماني
146 إعادة تشكيل الرواية
156 مسكن الدمانحة
158 العشيرة 515 الرمز العثماني للعشائر الحسينية
158 الدمانحة و النعيم
160 قتيل في باب الحديد

التصاهر مع البركاوية.....	162
خلاصة.....	163
حسن آغا.....	167
النسب.....	168
الآغاوية.....	172
الأشراف و حلب.....	176
إعادة بناء الرواية.....	190
حلف بني سعيد.....	192
نص وصفي زكريا عن بني سعيد.....	198
تحليل نص وصفي زكريا عن بني سعيد.....	200
حج أحمد (الحجي).....	213
الرواية الشفهية.....	215
من هو أحمد؟.....	216
متى أتوا إلى الضيعة و من أين؟.....	221
بين الرواية الشفهية و الحقيقة.....	229
أحمد و عقبه.....	232

بيت الحجي	236
حميدو: الجد الذي أورثنا اسمه	241
ولادة ونشأة حميدو	242
أولاد حميدو	249
محمود حميدو	250
حج بكري حميدو	279
عمر حميدو	292
أحمد حميدو	294
ملاحق	301
ملحق 1: الشجرة الكبيرة	303
ملحق 2: الرفاعي	309
ملحق 3: السبسي	311
ملحق 4: حسن آغا	313
ملحق 5: حج أحمد	315
ملحق 6: حميدو	317
ملحق 7: شجرة العائلة المتوارثة	324

الفهارس	327
---------------	-----

تم بعون الله

هذا الكتاب

منذ صغرنا كان يقال أمامنا في اجتماعات كبار العائلة أننا دمالخة. لم أكن أعني بالضبط معنى هذه الكلمة و لم أكن أبذل أي جهد في البحث عن هذا المعنى.

فالمقولة شفوية و كل من كان يقولها، كان يتوقف بعد إطلاقها و لا يكمل مفسدا لها. كانت هذه المقولة اساسا تقال في اجتماعات العيد العائلية و في المناسبات التي يجتمع فيها كبار العائلة أنزاحا كانت أم أضاحا. كان مكان الاجتماع الرئيسي هم في أوضة جدي حج بكري، التي كانت مكان اجتماع العائلة الرئيسي و مكان اللهو و التسلية و المناسبات الكبيرة. كانت هذه الأوضة التي ما زالت موجودة لكن مكائنها و وظيفتها اندثرت تقريبا- أوضة عريقة في منطقة اعزاز كلها، يكاد لا تذكر إلا و يذكر معها الكرم و العز و الأطل العريق.

كان هؤلاء الكبار عندما يقولون عن الأصل الدملخي للعائلة يقولونه بنوع من الفخر و المباهاة، دلالة على الأطل العريق للعائلة. و لكن أي عائلة و أي أصل؟

عندما بدأت أكبر في العمر طرت أكثر فضولا في معرفة معاني الأشياء. فكلما كنت أكبر عاما، كان يزداد وعيي بتفاصيل الأشياء و معانيها و دلالاتها و يزداد فضولي لمعرفة معاني و دلالات الأشياء المبهمة غير المفسرة. طرت فضوليا أحب البحث و الوصول إلى ما يشبع فضولي و يجعلني أستطيع أن أجيب السائل بثقة و بطلاقة و بقدرة على الإقناع.

هذا كتاب يجيب عن الأسئلة و يضع سيرة تاريخية لعائلة صغرية هي امتداد لعائلة تاريخية كبيرة ذات أصول و جذور عميقة.

ISBN: 979-8-87037-001-0



9 798879 370010